

الجانّة أو لماذا أؤمن بالله؟

كتاب يدل على وجود الله من أقرب طريق
وأوضح طريق ، وينقض شبهات الملحدين نقضاً

تأليف

هلال على هلال

الطبعة الأولى ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م

حقوق الطبع محفوظة للأولف

(المطبعة اليوسفية بطنطا)



« الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ،

[illegible]

تقديم الكتاب

انى اوصى بوجوب اللہ ایمانا مطلقا ۱ کیف ذلك ؟
ولاشکال منی شہادت المحرمینہ ائی مثال علی کثرتہ ما استعنت لہا
وبحثت فیہا ۱

ما نزلك ؟

هَذَا هُوَ مَوْضُوعُ هَذَا الْكِتَابِ .

فألى منه بربيع أنه يكتسب من مثل ذلك لنفسه أقرم كتابي هذه -
وعساه يتفهم .

(المؤلف)

المقدمة

يخرج الإنسان إلى الوجود فيقال له : إن هذه الكائنات لها موجد هو الله تعالى - فيصدق لساعته ويؤمن ، لأن ذلك ليس في عقله ما يأباه ويرفضه ، بل الذى فى عقله هو ما يتوافق معه ويحمله على الرضى به - فكل شىء يراه من حوله لا يكون ولا يتحقق إلا بصانع يصنعه ، ويقيم كيانه .

ولكنه يعود فيتشكك فى هذا الحكم ويرتاب به إذا ما قيل له ثانية : إنه ليس لها من فاعل قاصد لهذا الفعل ، وإنما هى المصادفة أقامت ما يرى ، وفعلت ما أراد نسبته لله ؛ أو هى طبيعة الأشياء تتحرك بحركة ذاتية لها ، ليس لاحد فيها تخريج ولا توجيه ، وعن هذه الحركة تم كل شىء - فيستنيم إلى الرأى الاخير ولا يقبل على الرأى الاول ، لا لأن هذا أصبح فى نظره أقوى من ذاك الكلا ولكن العقل يأخذ فى أمر العقيدة بالاحتياط . ولعل عذر الإنسان فى أمر المصادفة ، أنه وجد فى الكون كثيراً من مثلها ، فكم من حركات تنتج نتائج وتحدث آثاراً لم يقصد إليها أحد بنية ، ولعل عذره فى توهم الطبيعة أنه وجد تفسيراً لظاهرة فى الكون وتأويلا لها ، ومحملاً تحمل عليه - وكل احتمال فرضى فى أمر البحث ، لا ينبغي أن يتركه الانسان إلا بحجة تنفيه وتطرده وتلعنه لعناً .

ومن يتتبع حركة ذهنه فى قبول الآراء ورفضها ، يراه يقبل على الأسلم له الذى لا يورطه ، فالإنسان أمام رجلين يطلب أحدهما للعمل عنده ، ورغبته فى كل منهما متساوية يرفض من حامت حوله أدنى شبهة وإن لم تثبت ، وإن

تكن أبعد ما تكون عن الثبوت ، لأن في قبوله على علالاته ، احتمال لمؤونة الحذر منه بغير موجب .

والانسان بين أمرين قد حامت حول أحدهما من مثل تلك الشبهات التي مرت ولـكنه كان إليه أكثر رغبة وتعلقاً تراه يقبل عليه غير مستمع لشبهات لم تثبت . ولعل وجهته في ذلك ، أنه لا ينبغي أن يتحمل مرارة الحرمان من شيء مرغوب فيه ، من غير ما سبب أكيد .

وفي ساحة التحقيق ترى القضاء يطلب من المتهم أن ينفي عن نفسه كل شبهة تدينه وهو في الوقت ذاته يطلب إلى النيابة ، أن تنقض كل شبهة تبرئه ، ولا يزال هكذا ، يأخذ بالأحوط عند المتهم وبالأحوط عند النيابة ، حتى تثبت إحدى كفتي البراءة أو الاتهام .

ويقف الانسان حائراً بين يدي هذه الآراء ففكرة السلب معه أينما سار تصاحبه وتنغث في أذنه عند النظر إلى كل شيء ، وفكرة الإيجاب قد أصبحت عنه مبعدة مطرودة ، إن ترامت له ، لا يقبل عليها إلا متمعة بحجة قوية وبرهان شديد . وهو في إبعاده هذه وفي إدنائه تلك ، لا يشعر أن إحداهما لديه أثر من الأخرى ، ولأنه سعيد بإدناء ما أدنى منهما وإبعاد ما أبعد ولـكنها طبيعة الدهن تأخذ بالسلب حتى يثبت الإيجاب ، ولعل ذلك من الحزم الذي أودعه الله فيه خشية الخدعة والضلال .

وتدفع الانسان حيرته تلك إلى طرق كل باب ، والتعلق لكل سبب حتى يفتح الله عليه .

جبهة المصادفة

الانسان مع عقائده كالراكب على سفينة في وسط البحر
يخاف أن تتخلى عنه وتسلطه ، قبل أن يعرف غيرها يستقر عليه
(المؤلف)

لقد كنت أحد أولئك الذين تلقفتهم الحيرة بجمع يديها ، وأخذت ترمي
بهم من متاهاتها ومراميها إلى أبعد مدى ، وكان أمر المصادفة والوسوسة ذهني
بفكرتها ؛ وتوهم أن تكون شيئاً ، يمكن أن تنسب الأمور إليه ، مما حيرني
وأمضني ، وحال بيني وبين القرار ، وكلف ذهني الكثير من التفكير .
كان يقلقني أشد القلق ويزيد من وساوسي وارتباكى ما قرأته في بعض
مواضع الجغرافيا ، من أن الامطار في غابة (تموث) بالولايات المتحدة مثلاً
تسقط على أحجار هناك فتؤثر فيها فتنشأ عن ذلك 'عمد' هي آية في الهندسة
والجمال والفن ، بل كثيراً ما كنت أنظر إلى حائط قد نزل بعض طلائه في نقط
متعددة منه فأجد مكان القشرة يمثل بعض آلات أو أدوات مثلاً أو يصور
أعضاء حيوانات مختلفة ، كما كنت أجد في قطع السحاب السارية في جو السماء
مثل هذا التمثيل ، فتلك قطعة تمثل حيواناً رابضاً ؛ أو رافعاً مقدمته أو مؤخرته
مثلاً ، وربما مثلت أعضاء منه فقط وهكذا ، بل إن قطع الاحجار تبدو لمن
يتأملها وكأنها تصور له صوراً من مثل ذلك أيضاً - وكأنما كان فكركي
يقول لي : ها هي ذى أشياء جاءت بطريق المصادفة المحضة ، ومع ذلك لها صنع
وتخريج ، المطر ، وهو لا عقل له ، قد فعل شيئاً منتظماً متناسباً جميلاً ، ونزول

الاطلاء من أثر الحوادث أو البلى ؛ قد ترك من غير قصد صوراً ورسوماً لاشياء نعرفها ، وتمزج السحاب بسبب الاصطدام بقمة جبل أو نحو ذلك ، هذا التمزج غير المقصود ، الذى حددت المصادفة قدره ، لم يذته هو الآخر حتى ترك صورة من هاتيك الصور التى نشاهدها ؛ إذأ تصوير الصور لا يحتاج إلى كبير عناية ، يمر الانسان فيراها ، وتتحرك الحوادث فتكون فى أعقابها .

لقد صرت أنظر الآن إلى هذه الآراء فأجدها مما يضحك إذلا صلة مطلقاً بذيها وبين أمور السكران المقصودة من أول الأمر ، المعمول حسابها حسب ما يتطلب الغرض ، المقدرة له تقديرأ صحيحا لا تقصير فيه ولا فضول مما يشهد بسمو التدبير والحكمة . إن الفرق بين الحالين كالفرق بين شئ تراه فتلتبس أنت له شئاً أو منفعة ، وبين شئ آخر تراه فتجده مهياً من قبل ليأخذ الشبه وليؤدى المنفعة .

ما هى المصادفة ؟

المصادفة هى الحصول على نتيجة لم تقصد ، أو الوصول إلى نتيجة بغير سبب فعال فيها موصل إليها غالباً ، فمن النوع الاول أن تحمل الريح إليك ورقة أو منديلاً أو ترمى بشئ عفو اليد فتصيب أحداً بأذى أو تجرّ مصلحة ، ومنه أيضاً استخدام الآلات فى غير ما أعدها صانعها له كأن تستخدم يد المظلة فى جرّ شئ أو يد المعلقة فى حفر حفرة مثلاً ، فإن يد المظله صنعها صانعها للقبض عليها والتمكن منها بسهولة ، ولكنك استعملتها فى غير ما أراد الصانع أو فى غير ما أعدها الصانع له .

ومن النوع الثانى ، أن تقصد إلى وضع الكرسي فى الموضع اللائق وبهيئته الصالحة ، ولكنك تتوصل إلى ذلك بقذفه ، فان القذف لا يأتى بهذه الثمرات فى الغالب ، ولكنه قدياًتى بها ، ولكن مجيئها على هذه الصورة يعتبر مصادفة لأنك لم تتوصل إلى ذلك بسبب فعال ، بدليل أنك لو دومت ذلك مرة ومرة وكررت العملية ، فان الامر لا يرافيك كما تشتهى ، نعم لو تدرب شخص تدريباً خاصاً فصار يفعل ذلك بحركة خاصة لا يقدر على مثلها غيره ، لاتكون الثمرات التى وصل اليها مصادفة ، لأن حركته صارت فعالة ، وإن كانت عند غيره تعتبر إن أنت بمثل نتيجته من قبيل المصادفات .

والامور التى تأتى مصادفة ، لاتستأهل ملومة ولا شكرانا ، ومن ثم وجب ونحن نبحث فى أمور الكون نلتمس الالهية ، أن نأخذ فى حسابنا حالات المصادفة ونسأل : هل ما أمامنا يمكن أن يكون لها ؟ إنه لو كان شئ ينسب إلى المصادفة نسبناه نحن إلى الالهية ، واعترفنا بها من أجله ، وتوجهنا إليها بما تستأهله الالهية قبل الناس من ثناء وشكران وعبادة - لكان عملنا هذا ضللاً وخسراً .

وسمات الالهية لا تشتهى مع حالات المصادفة فتلك تفصح عن القصد والتدبير والحكمة ، بخلاف هذه ، والامور نفسها تخبر عما هو لها من الحالين ، فالعمل الذى يحتاج فى إجرائه إلى تدبير لا يمكن أن يأتى من غير تدبير ، ولا سبيل إلى القول بأنه جاء مصادفة ، فصانع الطعام لا يستطيع أن يقول إن عمله من غير قصد لان العمل نفسه يحمل طابع التدبير والنية ، ومن هنا كان من يحاول من المجرمين أن يتخلص من تبعة عمله بدعوى المصادفة مثلاً تكون محاولته عبثاً .

هل الامور في هذا الكون تأتي مصادفة ؟

إذا صح أن المصادفة تتنافى مع القصد بمعنى أن كل عمل ثبت القصد فيه فلا مصادفة فيه ، وتتنافى كذلك مع التدبير والحكمة ، فما أراى بملاق عتتاً فى إبعاد ذلك ، إذ كل شىء أمام الإنسان وأقرب شىء إليه يثبت فيه القصد بشكل صارخ لا يحتمل أدنى شبهة ، إليك مثلاً :- (١) الاسنان التى يخرج كل منا إلى الوجود فيراها فى فمه ، إنها لمضغ الطعام لاشك فى ذلك ، وهى فى وضعها فى المكان التى هى فيه ، واختلاف أشكالها ، وترتيبها على النظام التى هى عليه ، تشهد بتدبير أكيد وحكمة ظاهرة ، لعمري لو كانت الاسنان فى مكان آخر إلى الداخل أكثر مما هى أو إلى الخارج أكثر مما هى لفسد الامر ؛ ولو كانت كلها أضراساً عريضة أو أسناناً محددة ، لفسد الامر أيضاً أو لكان أقل صلاحاً مما هو ثم لو اختلف ترتيبها عن النظام السائر لاختل العمل أيضاً .

لا حاجة إلى التدليل على ما أقول فكل منا يشعر به من نفسه ، ومن ثم ترى الاطباء الصناعيين الذين يصنعون أسناناً بديل التى تلفت وصارت لاتصلح يحاكون الاصل ، ويصنعون أسنانهم بالشكل المعروف تماماً وبالنظام المقرر بدون فرق ، وهذا يؤيد ما أقول ، ويؤيد الضرورة الملحة لوجود الاسنان ثم هى صلبة متينة لتستطيع أن تمضغ ما سيعهد إليها بمضغه ؛ وفى الفك المفاصل التى تمكن من الحركة ليحصل المضغ - فأى شىء بعد ذلك نحتاج إليه لنثبت هذا القصد يا ترى ؟ ثم اللسان المهياً لذوق المطعوم وتقليبه أثناء المضغ واللعب الكيماوى المساعد على البلع فالهضم كل هذه لا شك فى أنها مقصودة ومهيأة لذلك ، وموضوعة فى المكان اللائق فاذا فرغ الانسان من مضغ اللقمة وجد

المنزلق الذى تنزل منه والباب الذى تنفذ منه والقناة التى توصلها إلى المعدة حيث
تضم ، هذه أعمالٌ متراكبة مقصودة ، الحكمة فيها ظاهرة ، والتدبير أكيد ولا
دخل للمصادفة فى شيء منها .

(٢) والطفل فى بطن أمه لا بدّ له من التغذية ليتمّ خلقه وتكامل صورته
وقد عمل حساب ذلك على أبداع صورة ، وتمّ للطفل أمر التغذية بفضل الحبل
السرى الموصل بينه وبين أمه الملقوب ليمرّ منه الغذاء الممتد بدقة وتقدير
بين جهة الاعطاء من أمّه وجهة الاخذ منه ؛ فهل للمصادفة فى هذه الامور مجال !

(٣) والنباتات الزهرية تحتاج إلى التلاقح فيما بينها ليتكوّن البذر الذى هو
سبب الجيل الجديد ؛ ومن غير هذا التلاقح لا يتكوّن البذر أبداً ، كما ثبت ذلك
لعلماء النبات ؛ علم كل ذلك التدبير السكونى الذى لا يغفل ، فهياً الازهار
بوسائل هذا التلاقح الحتمى فى غير سبور أو خطأ ، زود الازهار بالاستام
(عضو الذكر) بمؤهلاته كلها من انتيرا وهو بمنزلة الحشفة فى الحيوان ؛ والطلع
وهو بمنزلة المنى ، والعصيب وهو الخيط الذى يحمل الانتيرا ويرفعه ليكون
ظاهراً فيسهل التلقيح ، وزودها كذلك بالبستيل (عضو الانثى) بمعدّاته
جميعاً من استيجما وهو بمثابة فوهة المهبل ، والاسْتِيل ، وهو بدل المهبل ، والمبيض
وهو بمنزلة الرحم ، ثم المكان المقام فيه عضو الذكر هو مكان مناسب لا يناسب
سواه فهو يكون بين البستيل والغلافات الزهرية ، ولا يخرج عن هذا الوضع
إلا لوضع آخر يكون أنسب منه حسب اختلاف نظام الزهرة وترتيب
أعضائها ، ويلاحظ أن الاستيجما يكون سطحاً مغطى بخدد صغيرة تفرز

مادة لزجة تستطيع أن تمسك 'بحبوب اللقاح حين تسنح لها .
فأروني بالله أى شئ فى هذا يمكن أن ينسب للمصادفة العمياء التى لاتعقل ؟
إن هيئة هذه الصورة واستكمال أدواتها وتكليف أجزائها حسب ما يتطلب
الغرض بحيث تكون فيها جهة العطاء والاختذ ، وجهة فاعلة ، وأخرى منفعة
وجعل تلك الوسائل بحيث تؤدي الغرض الذى أعدت له ، إن ذلك
لايكفى أن نصفه بالعقل والإدراك ، والفطنة والبراعة والمقدرة ؛ وكل معانى
التدبير والحكمة ، لأن تلك الصفات يستأهلها من كَوْن هذا العمل وصاغ
أعضائه من مادة 'محضرة موجودة بين يديه ، فما بالك إذا كان القائم به قد
استخلص المادة أولاً من غيرها ، قد استخلصها من الطين والهواء والماء ! .

لعمري إن ذلك يتطلب أعظم كيماوى بأدق الموازين ، وأعجب الآلات
وأقوى المجاهر ، ثم لا بد أن يكون ممتازاً فى تعقله وإدراكه وسعة علمه وكال
حذقه وطول مرانه ، فكيف بالله يستطيع ذو ذرّة من العقل أن يذكر اسم
المصادفة هنا مجرد ذكر ! ،

تمت أدوات العمل على هذا النحو البديع ، وبقيت نقطة : إن أعضاء
التذكير 'يعوزها الانتقال ، فليس لها إذا تملك المغامرة اللذيذة ، التى يقوم بها
الذكر حين لحاقه بأنثاه ، فيغازلها ويستميلها ثم يوقرها باللقاح ، جعل التدبير
الازلى القادر مايسد هذه الثلمة ويقوم مقام هذه الوسيلة ليؤدي الغرض .
الازهار منها مالا يحتاج إلى عامل خارجي لنقل حبوب اللقاح ، وهذه
خلق الله فيها أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث معاً ، فيأخذ عضو التأنيث فى النمو
وفى أنثاء نموه يتقابل مع عضو التذكير الذى يكون موضوعاً فى طريقه ،

وبحالة تضمن تقابلها فيتم الاختصاص . ومنها ما يحتاج إلى الريح لينقل حبوب اللقاح من أعضاء الذكر إلى أعضاء الأنثى مثل المشمش والرمان والتوت ، وهذه مهياة لذلك تماماً ، ومعمول حساب الريح في أمرها (١) ، فبمجرد انضوج حبوب اللقاح ينفرج كيسها عنها ليلعب بها الهواء فتنزل على أعضاء الأنثى . واضمان أن ينزل الطلع على أعضاء الأنثى حتما جعل الله حبوب اللقاح في هذا النوع من الأزهار كثيرة كثرة هائلة ، حتى إذا أخطأت هذه تُصب تلك ، ويلاحظ أيضاً أن هذه الأشجار لا تورق وقت التلقيح لأن الأوراق قد تقف حائلا دون وصول حبوب اللقاح .

والعجيب أن بعض الأزهار المائية التي تعيش تحت الماء مهياة ليلقحها الريح ، وهذه كأنها تعلم ذلك ، فإذا جاء أوان التلقيح تراها قد صعدت على سطح الماء وفتحت أكمامها ، لتتمكن الريح منها .

ومن الأزهار نوع تلقحه الحشرات ، وهذه لا يفرغ الانسان في أمرها من العجب ، لأن هذه الأزهار لما كانت تلقح بواسطة أنواع من الحشرات عدة ، فقد روعي في تنسيق الأزهار ولونها وريحها ما يتناسب مع النوع الذي لها من الحشرات دون سواه . فالأزهار العميقة كالبليلة وزهرة الدخان لها رائحة تجبها الفراشة والنحلة ذات الخرطوم الطويل ، ولا يجبها مثل الذبابة ، وإن تتأمل تجد الفراشة والنحلة تستطيع تلقيحها دون الذبابة .

(١) ان ذلك ليس كلام لاهوتي يتعبد بل هو كلام علماء النبات الذين لا يعتمدون على الظن ولا يأخذون بالاحتمال . كل كلامهم علمي بمعنى الكلمة مبني على الاستقراء والتجربة .

وزهرة اللبلاب تألفها الذبابة وتستطيع تلقيحها دون الفراشة والنحلة ،
وهكذا . ولون الازهار إذا وريحتها ليس عبثاً ، وليس للزينة ، بل هو
لاستجلاب الحشرات الخاصة التي تناسبها ، وتستطيع أن تنقل إليها حاجتها
من اللقاح . ومن ثم كانت الازهار التي يلقيحها الهواء ليس لها مثل هذه
الالوان المغرية ، وليست بذات رحيق .

وإنك لتجد الحشرات وهي إنما تقصد إلى الازهار ، لتستمتع بجمالها
وتعباً من رحيقها ، ولا غرض لها غير ذلك ، تراها كأنها مكلفة ومجبورة ،
ألا تضع مصلحة الزهرة ، التي انتفعت برحيقها ، فترى النحلة إن تقصد وردة
تراها لا تنقل إلا إلى وردة أخرى ، وإن تعابها في الطريق زهرة ياسمين مثلاً
تصدف عنها ولا تغشاها ، حتى تنتهي خطتها التي قررتها للورد ، لالتحيد عنها
أبدأ حتى ينتهي شوطها ، فتعود إلى زهرة الياسمين إن أرادت ، ثم تنقل عنها
إلى زهرة ياسمين أخرى ، وهكذا حتى ينتهي هذا الشوط المتجانس كذلك .

إن الامر يستدعي العجب حقاً ، والتدبير يُبلغ النظر للغاية !!

فلو أن النحلة قد خرجت من زهرة الورد إلى زهرة الياسمين لضاع لقاح
زهرة الورد ، وما وصلت تلك الرسالة التي حملتها ، واؤتمنت على أداؤها ،
وأخذت ثمن إرسالها سلفاً .

وهكذا تجد مشيئة الله لا بد أن تنفذ ، والمخلوقات صغيرها وكبيرها لا بد
أن تعمل لاتمام هذه المشيئة ، وإن لم تكن تدري لماذا هي تعمل .

وابتسام الازهار يجري مجرى الحكمة هو الآخر ، ولا يكون إلا بحساب
فالازهار التي تلقيحها الحشرات النهارية مثل النحلة ، تظل مبتسمة طول النهار ،

حتى إذا جاء الليل ، وهو وقت هجوع حشرتها ، تراها قد انكمشت وضمت أوراقها ، وانطوت على نفسها ، والأزهار التي لا تلقح إلا ليلاً مثل زهرة القطرب ؛ تلك التي يلقحها فراش الليل ، تظل طول النهار ذائبة ؛ حتى إذا خيم الظلام ، تفتحت أوراقها وانتشرت رائحتها ؛ وبرزت المدقات ، وظهرت استعداداً لوقوع فراشة عليها تحملها من اللقاح ما لا تطيق (كما هو تعبیر کتاب محاسن الطبيعة) والأزهار التي يلقحها الهواء ، تظل مفتححة ليل نهار انتظاراً للتلقيح الذي يُظن في كل وقت . والأزهار التي تلقح بنفسها كما سبق ، لا تفتح ؛ وما هي بحاجة إلى أن تفتح . ومتى حصل التلقيح ، تُمنع الغذاء عن الزهرة لتدبل ثم تقع فقد تم الغرض منها ، وصار بقاؤها لا داعي إليه . - فبالله أي حكمة تلك التي لا يوفيهما البيان حقهما من الثناء والاشادة والاعجاب . ؟

وغنى عن البيان أن المصادفة ليس لها في موضوعنا أي شيء . .

القوى الطبيعية

إذا وضعت بضعة قطرات من الماء على شيء من حامض السكر يتكسر المركز ، وقلبت المزيج شاهدت تفاعلاً واضطراباً وحركة لا شك فيها ، تنظرها بعينيك .

وإذا وضعت قطعة من السكر في كوب من الماء فبعد قليل تجد الماء قد أذاب السكر ، وإذا قربت حجر المغناطيس من برادة الحديد وجدت الحجر قد جذب البرادة إليه ، حتى ولو كان بدل البرادة مسامير من الحديد ترى الحجر قد جذبها هي الأخرى ونقلها من مكان وضعها نقلاً .

إذا الأشياء بطبيعتها لها قوة تحدث حركة وتنتج عملاً ، وإذا رفعت رأسك ونظرت إلى ما حولك تجد الرياح تثير الغبار وتحرك الأشجار وتسوق السفن ، والحرارة تبخر الماء فيعلو فيتكاثف في الطبقات العليا بسبب البرد فينزل علينا مطراً بسبب الجاذبية ، وتوارد الليل والنهار علينا ، له سببه هو الآخر من ضوء الشمس وكروية الأرض وحركتها اليومية ، وهكذا كلما امتدّ نظرك ووقفت على شيء تجده سبباً لهذه الأسباب ، وقوة كهاتيك القوى تحدثه وتعمل في إبرازه : — إذا فأين عمل الله ؟

وإذا استمعت إلى العلم إذ يفسر لنا عملية التنفس التي لا يستغنى عنها الإنسان بضعة دقائق فانه ينسب بدأها إلى ضغط الهواء ، وحركة الحجاب الحاجز وغايتها التي هي تنقية الدم من أوساخه إلى الألفة الطبيعية بين الأكسجين وما يحمله الدم من كربون وسواه .

تلك الألفة التي تشبه جذب المغناطيس للحديد .

وإذا استمعت إليه إذ يُفسر لنا عملية هضم الطعام العجيبة ، تلك التي لولاها ما انتفعنا بالغذاء ، ولا أحدث فينا القوة التي بها نتحرك ونعمل ، ونفكر ونحس^٥ لقال لك الفضل فيها إلى العصارات الهضمية التي تذيب مواد الغذاء كما يذيب الماء السكر تماماً - وهي قوة طبيعية كما سبق .

كفر بعض الباحثين لهذا السبب ، وظنوا أن الله والحالة هكذا ، لا وجود له ، أو لا عمل له ! وهذا عجيب ليس أعجب منه ، ويدل على قصر نظر فاضح وغباء كغباء العجماءات تماماً .

إننا إن سلمنا لهم جدلاً بالقوى الطبيعية كما فهموا ، ونسبناها إلى ذاتية محمولاتها كما ظنوا ، إننا لو فعلنا ذلك لكان وجود الله مع هذا التسليم ظاهراً وتدييره لا شك فيه ، وآثار صنعه وعمل يديه لا يستطيع جحوده ، ودلائل رحمته وتفضله مما لا سبيل إلى المماراة فيه أبداً .

أإذا قدّم إليك في يوم صائف كوباً من الشراب قد حسن مزج السكر به حتى حلا وإضافة الثلج له حتى برد وصار شهياً ، أيكون الشراب - والحالة هكذا - لا صانع له ، مادام الماء فيه يذيب السكر بنفسه والثلج يبرّده بذاته ! لا لعمر الله ، إنك لا تستطيع أن تقول لأنك تعلم الحاجة إلى الصانع الذي جمع بين السكر والماء والثلج ، وراعى النسبة اللائقة بين هذه المخلوطات ، فجعل السكر ليس أقل مما يلزم ، ولا أكثر مما يلزم ؛ وقل مثل ذلك في الثلج ، والنوع الرابع إن كان ليموناً أو نحوه .

ولو قدّم إليك جرس كهربائي ، فأنك في الحال تجربّه لتعلم هل أحكم صنعه ؟ فإذا وجدته كما ينبغي أعجبت به وأثنت على صانعه ، أو لا ، علمت أنه قد

أخطأه التوفيق ، تفعل ذلك لآنك تعلم أن له صانعاً ولا يمكن أن يكون من غير صانع ، لا يعفك من الاعتراف به أن تعلم أنه في جوهره مؤسس على قوة الجذب الطبيعية التي للمغناطيس الكهر بائي .

ولو أن أحداً مارك في الصانع ، وقال لك : وأين الصانع ؟ والذي يحرك الجرس المغناطيس الكهر بائي بنفسه ؟ - لضحكك من سخفه ، وقلت له : إن الصانع أيها الآله هو الذي جمع بين المدقة والناقوس ، ووصل بينهما ليستطيع المغناطيس إذ يعمل ، أن يعمل صالِحاً . على أنك لن تجد هذا المُمارى ولا من هؤلاء الجاحدين أنفسهم . وأعجب لماذا إذاً يجحدون الخالق ؟ والضرورة التي تحتم وجوده ألزم ، وآثار صنعه أظهر ، وتديره أعم وحكمته أشمل !

الحاجة الماسة التي تحتم علينا الاعتراف بالصانع البشرى في هذه الصنائع البشرية ، وبالرغم من استناد صنائعهم في الحقيقة إلى قوى طبيعية ؛ وأسباب طبيعية لا فضل لهم فيها ، ولا يجحد فضلكم مع وجودها ، لما تفتقر اليه صنائعهم من التدبير والحكمة والخلق والبراعة - هذه الحاجة هي نفسها التي تحتم علينا الاعتراف بالصانع الأعظم والآله الأكبر ، بالرغم من تلك القوى ولوفهمناها على حسب ما يفهم الطبيعيون أنفسهم ؛ لوجود آثار القصد والتدبير والحكمة وغاية ما نستطيع أن نتصوره ، من آيات البراعة والمقدرة والخلق والابداع . نعم إن العصاراة الهضمية تذيب الاغذية . ولكن عملية استخلاصها من الدم ، بحيث لا تكون إلا هي ؛ تحتاج الى عقل وتدبير وحكمة . وفي تنوع تلك العصاراة ، بحيث يكون منها ما يذيب المواد الزلالية ، ومنها ما يذيب المواد

الدهنية ، ومنها ما يذيب المواد الذشوية الخ تلك المواد التي يتألف منها الغذاء ، لا تغفل نوعا لعنصر موجود ، ولا تأتى بنوع لعنصر لم يوجد ، وفي تقدير كميتهما بحيث لا تكون أقل مما يلزم ولا أكثر مما يلزم ، وفي تهيئة السبيل لها لتصل إلى الغذاء وتصل إليه وقت اللزوم ، كل هذه حالات من القصد والتدبير والحكمة لا بد من الاعتراف بها لجهة ذات قصد وتدبير وحكمة لا يعفينا من ذلك أن تلك العصاراة تذيب الغذاء .

وإذا تمادى ذلك القصير النظر وقال إن طبيعة الجسم تفرز هذه العصارات بطبيعتها لا تسأل لم أفرزتها ولا كيف أفرزتها ، هي أفرزتها وكفى ، نقول على رسلك إنها ما دامت تفرز عصارات صالحة لا غذية بعينها وتقدرها بحيث لا تكون لصنف لم يوجد ولا تهمل صنفاً وجد وتعرف كيف تستخلصها من مواد مخالفة لا تخفى ثم توصلها وقت ما يلزم ذلك فهي طبيعة عاقلة مدبرة حكيمة وما دامت تعمل ذلك وهو ' يصلحنا ولا يصلحنا سواه - فلها علينا الفضل والمنة . هي ذات أباد علينا - ذلك ما يتضمنه الحال مهما قلته ، وهو ما لا يستطيع جحوده ، ولا يسمعه إلى الاعتراف به ، ثم لينظر إلى تلك الصفات التي حتمت عليه الأمور الاعتراف بها فإذا بها صفات الإله الذي ننشد ، وموعداً مبحث شبهات الملحدين والرد عليها - فما جئنا به هنا كقدمة : هو ردود أوليه لشبهات قديلت الذهن إليهما وهو يبحث ، أينما بها هنا ليستطيع القارىء أن يتخلص منها ويتابعنا في مباحثنا لاتصال ذهنه . أما مستقبلاً فسنكلم بشكل أوسع وأشمل مع باحثين ذوي معارف واسعة وعقل قصير .

تقديم سمات الالهية

إذا نهضت تبحث عن شيء ، ولم تكن قد حددت سمات هذا الشيء قبلاً فإنك تضل حتماً ، قد يقابلك الشيء الذي تبحث عنه فلا تعرفه ، وقد تقف على غيره تظنه هو وهذا خطأ لذلك وجب علينا أن نحدد سمات الالهية التي نبحث عنها من الآن - ولا تظن أننا ونحن نفعل ذلك سنعمد إلى أدمغتنا لتحلل لنا صورة خيالية ، تصورهاها من قبل ، وتوهمنا أنها الالهية التي نلشد - كلا . إننا لو فعلنا ذلك لكان مثلنا كمثل ذلك الحاسب الذي معه قدر من المال عهد إليه بتقسيمه على عدد من الناس ولكنه بدل أن يعرف أولاً عدد الناس ثم يقسم المبلغ عليه لجأ إلى عدد تخيله ثم اختاره لأن مبلغه يقبل القسمة عليه بسهولة وبدون باق ففعل حتى إذا نهض للتطبيق وتقسيم المبلغ فعلاً ، وجد عدد الناس في ذهنه لا يتطابق مع عددهم في الواقع فحصل له الارتباك ؛ ولم يغن عنه عمله السابق شيئاً .

إننا سنأخذ هذه الصفات من نفس السكون وإرشاد البحث نفسه كما يفعل المحققون الجنائيون في حادثة يلتمسون فاعلها فتعين الأمور لهم سمات الفاعل ، وتشرح لهم خصائصه شيئاً فشيئاً . وإليك هذا التحديد :

إننا تلقينا أمر الالهية أولاً على النحو الآتي : النجار يصنع الباب ، والحداد يصنع القفل ، والبناء يبني الحائط . إذاً كل فعل لابد له من فاعل ، والسكون إذاً لهذا السبب وبناء عليه له هو الآخر فاعل هو الله تعالى .

لم تكن نرتاب بهذه القضية ، فالسكون أنى سرنا فيه نجد كل حوادثه

تؤيدها ولا تخرج عنها . فلما ترامت لنا شبهتا المصادفة والطبيعة ، وتنبهنا على ضوئهما إلى أن من الفاعلين فاعلين مثل البهيمة ، وهي لا عقل لها ، ومثل الريح وهي لا اختيار لها ، ومثل راكب القطار يقع منه رغيف على جائع ، فهو لم يقصد إعطاء الجائع ، فلا يستحق شكره ، ومثل الآلة الميكانيكية تقطع بنا المراحل ، وتحمل لنا الأثقال ، وليس فينا من يشكرها لأنها مصيرة مجبورة - على ضوء هاتين الشبهتين وإرشاد هذه الأمثلة ، ولما نعلمه من أن اسم الألوهية لا يذكر أمامنا إلا مقرونا بالثناء والحمد لأنه صاحب النعمة والافضال - على ضوء ذلك كله ، نستطيع أن نحدد سمات الله تعالى وجهات البحث عنه على النحو الآتي :

(١) أن نجد نعماً صحيحة يتوقف عليها وجودنا وسعادتنا قد وصلت إلينا فعلاً .

(٢) أن تكون تلك النعم مقصودة فلا يشتبه أمرها بالمصادفة العمياء .

(٣) أن يدل مجيئها على اختيار فلا إكراهاً ولا جبراً .

ذلك استنتاج صحيح من نفس الامر ومن واقع الغرض ، وإلا فلم الثناء والحمد إن لم تكن نعم قد وصلت إلينا فعلاً ، وعلى أى وجه يكون إن كانت المصادفة هي الواصلة بها ، أو الضرورة هي التي حتمتها وأوجبتها ؟

ثم دليل البناء السابق قد أفاد الفاعلية والمفعولية وهي أن كل فعل لا بد له من فاعل . وهذا دليل صحيح يدل عليه فسكرة قصر المادة وأن كل فعل لا بد أن يصاحبه بذل مجهود واستنفاد طاقة كما يقول علماء الطبيعة ، حتى ذوبان الملح في الماء لا بد أن يصاحبه بذل مجهود واستنفاد طاقة كما قالوا أيضاً وكذلك

كل حدث يحدث أو تغيير يسكون ، من رائحة تشم ، أو إحساس يكون ، أو
خطرة فسكر ، أو نبضة عرق ، وهكذا .

وعلى ذلك فاذا وقفنا أمام فعل كوني كريم ، كتركيب العين مثلاً فحددنا
سمات تلك الجهة الرحيمة التي قامت بذلك للانسان وقلنا أنها قوة عاقلة مدبرة
مختارة لسكان استنتاجنا من واقع الامر ، فهي قوة لأن كل فعل لابد له من
علة أحدثته وسبب قام به ، وعاقلة لانه لا يقدم لك ما تحتاجه ويعرف نوع
الحاجة وما يسدها إلا عاقل وذلك هو الوصف الذي قد نأتى به بدل وصف المنعم
ونداول في التعبير بين الوصفين فنقول تارة عاقل وتارة منعم وكلا الوصفين
صحيح . فمن ركب العين للانسان منعم لاشك في ذلك ، وعاقل لانه عرف
ما يحتاجه الانسان ففعله وعرف كيف يفعله ، ومدبرة ، أى والله مدبرة .

وناهيك بما يتطلبه أمر العين من تدبير ، فاعضاء كثيرة متنوعة ضرورية
كلها للعين - بحيث كان عمل العين لا يتم لو نقص شيء منها ؛ قد استكملت كلها
للعين ورتبت الترتيب العملي اللازم ، وحورت حسب ما تتطلبه نواويس الضوء
فمثلاً المقلة لها أغلفة ثلاثة قرنية وتراها كثيفة إلا من الامام حيث الاشعة إلى
العين ستدخل ومشيمة وتجد لونها أسود لمنع تهوئش الاشعة داخل العين ،
وتجد من الامام انسان العين وهو الثقب الذي ستدخل الاشعة منه والشبكية
وسياق عملها . ثم تجد في مقدمة العين داخل المقلة العدسة وهي محدبة من
الوجهين لأن عملية الإبصار تقتضى ذلك وموضوعة حيث هي لتلتقي الاشعة
الواردة من الجسم الخارجى المنظور فتكسرهما فتتلقاها المادة الزجاجية
الموضوعة من ورائها لتجمعها على الشبكية المهيأة لذلك . وحين تنطبع الصورة

على الشبكية تقوم بدورها فتنقلها إلى العصب البصرى ليوصلها إلى المخ فيميزها
وهنا غير ما ذكر احتياطات ووقايات وتحفظات يطول الكلام عليها . فالمقلة
جعلت بحيث تتحرك داخل حجاجيها إلى أى جهة أرادها الانسان . وهبت
شبكتا المقلتين بحيث إذا وقع شبح الجسم المنظور يسكون فى نقطتين متماثلتين
منهما ولولا ذلك لتلقى المخ من كل عين الصورة التى أخذتها من الجسم الخارجى
فأبصر صورتين للجسم الواحد . ثم أعضاء العين جعلت بحيث تتحور وتسكيف
وتتمكن الإنسان من الرؤية قرب الجسم المنظور أو بعد . وبعد كل ذلك جميعه
فالأجفان هى أغطية محكمة تهرب المقلة تحتها إذا تهددها ما يؤذى ، والغدد الدمعية
تحدث تيارات مائية تغسل المقلة باستمرار . والأهداب لتظلل من الضوء .

فبالله هل بعد ذلك عجب . وهل بعد ذلك إحكام . وهل بعد ذلك تدبير ؟
ثم الاختيار ثابت وهل هناك من جبر ؟ لئن كانت النواميس مجبرة أن
تعمل فهناك من أجبرها وصيرها وجعلها تلزم الخطة لا تحيد . وتسكون جهة
الاختيار الأخيرة هذه ، هى وجهتنا فى العبادة ومقصدنا بالشكر والثناء .

الآلة الميكانيكية مجبرة كما قلنا ، واسكن صانعها الذى ابتدعها ركبها لتعمل
لنا مختار . ولذلك نحن نكافئه ونثنى عليه . ولئن كانت قوة البخار مثلا التى
ترتكز عليها آله لا فضل له فى أمرها لأنها طبيعية مثلا فعمله ظاهر بالرغم
من ذلك وفضله لا ينسك . هو عرف كيف يستخدمها ويجعلها تدبر الآلة ،
فآثار عقله ثابتة وحكمته لا ريب فيها وإرادته وتديره لا شك فيهما كما قلنا
فى مبحث القوى الطبيعية .

أستطيع أن أقول أن كل عمل ينتجه العقل لا يسكون إلا عن اختيار
ولا يأتى عن جبر أصلا مادام اختيار العاقل هو الذى يحرك قواه وما دامت

تلك القوى زمامها في يد صاحبها لا يحركها إلا هو .
إنني قد أجبر لا أكتب ولكنني إذا اتجهت للكتابة فلا بد أن يكون
عملي عن اختيار . ولولم يكن ذلك ما حصلت الكتابة أصلاً .
إن القوة الدافعة لي لا تستطيع أن تحركني لأكتب بعملها هي بحيث
يكون عقلي وإرادتي معطلة ولو كان ذلك ما حصلت الكتابة أبداً إلا إذا
كانت هذه القوة عاقلة هي الأخرى فتكون الكتابة من عملها لا من عملي أنا
وعلى ذلك فلم ينف ما قلت من أن العمل الذي يتطلب عقلاً لن يتأتى إلا عن
اختيار . هناك فرق بين من يسكرهني لأستخدم قواي فتأني الأعمال أترأ
لقواي وأنا كاره وذلك ممكن أن يكون . وبين من يستخدم قواي بالرغم
عني فتعمل له وأنا راغم وذلك لا يكون .

ثم هذه الجهة الأخيرة التي أجبرت جهة دونها فعملت لي ، أليست هي
أجبرتها لتعمل لي فهي مريضة لهذا العمل فهيأت ما يعمله أو من يعمله . فثم
جهة حتماً مختارة تستحق الثناء والشكر .

وإذا وقفت على المفاصل الجسمية مثلاً وفكرت في ضرورتها للجسم
بحيث كانت تتعطل مصلحته حتماً لولم توجد ، وتدبرت تنوعها فمفاصل تتحرك
أماماً مثل مفصل المرفق ، ومفاصل تتحرك خلفاً مثل مفصل الركبة ومفاصل
تتحرك لجميع الجهات مثل مفصل الرسغ ووجدت أن مصلحة الإنسان تتطلب
ذلك بحيث لو تحرك مفصل المرفق إلى الخلف بدل الأمام ومفصل الركبة إلى
الأمام بدل الخلف ووقفت حركة مفصل الرسغ عن جهة من الجهات لفسد الأمر ،
ثم تدبرت التدبير الصارخ في تهيئة المفصل ليكون مفصلاً يؤدي عمله : سيور

وأربطة ، وغضاريف تمنع الاحتكاك بين العظام ، ومواد زلالية تسهل الحركة ثم وقايات تمنع المفصل أن يتحرك إلى الجهة التي لا يتطلب الأمر أن يتحرك إليها وإغفال هذه الوقايات في المفاصل ذات الحركة المطلقة - لعلمت من إمام الصورة التي أمامك أن ثمت قوة عاقله مدبرة حكيمه ، منعمة متفضلة رحيمة ودعنى أطلق لنفسى العنان ، فلا أنقيد بالألفاظ السابقة فأتى بما يفسرها أكثر أو بما يرادفها ويؤكد لها فال مقام عظيم يحتاج إلى الشرح والتفصيل والإشادة والإعجاب والشكر والثناء .

هذا - والأمور الوجودية ليس حتما أن تحس بأحدى الحواس فالعقل والروح وهما ما نعلم وجوداً وآثاراً ظاهرة في السكون ليس أظهر منها لا يحس لهما وجود ، أى ليس لهما ناحية مادية تدرك بالحواس فلا عجب أن كانت ذات الله لا تحس ومع ذلك نعتزف بها لوجود آثارها الظاهرة التي تحتم على كل من لاحظها أن يعترف بها . بل أستطيع أن أقول أن هذه الصنائع البشرية التي لا حصر لها لا تنسب إلى تلك الناحية المادية المشاهدة في البشر ، بل هي تنسب إلى عامل خفى لا يدرك ، هو ذلك العقل المحجوب ؛ ألسنت لو وقعت على تمثال نخم في يد جاهل قدم ادعاه لنفسه وزعمه من صنعه ألسنت لو كنت تعلم طاقته وأنها لا تسمو إلى هذا المستوى تكذبه ولا تستطيع أن تصدقه مع أنه بحجم وجرم أمامك قد يكون أجمل وأروع مما للمشالين الذى لا ترتاب بهم إن ادعوه ؟ ولو وقفت على صنع بديع رافك وأهيجك واستولى على لبك من خط رائع أوزخرقة مدهشة أو اختراع عجيب فظلمت أمامه معجباً مأخوذاً تريد ألا تريم مكانك ، هب أنك هكذا وإذا بشخص جاك من عرض الطريق

أخذ يتأمل فيما تتأمل فيه ، ثم فاجأك على غير انتظار قائلا لك : هذا الذى أمامك أتدرى إلى من ينسب ؟ إننى أنا صاحبه . ألسنت قد تستريب . ولا تستطيع التأكد إن كان هو أو لم يكن من تأمل صورته . وليس هو كذلك بالذى يستطيع إقناعك بها . والطريق الصحيح لإثبات ذلك هو أن يعمل أمامك مثله مثلا . أو ما يؤدى هذا الغرض ؟ ذلك هو الطريق الطبيعى للإثبات أما الصورة والطول والعرض فليس من شئ منها بطريق للإثبات أبداً ، الصورة المادية لا تنهض دليلاً لأن العمل ليس من منتوجها ، ولا تزال هكذا مقدرًا لصاحبك بعد أن عرفته معترفا بمواهبه تعلق الآمال السكبار عليه حتى إذا حصلت له - والعياذ بالله - جنة فى عقله ألسنت تراك فى الحال تضرب كفاً بكف تعتقد تماماً أن موهبته قد زالت ولم يعد لها من أثر ؟ وعلى ذلك فالحسارة فادحة - وإنه على ذلك لعمر الله ما نقص من هيكله المادى شئ ، ولا تغيرت له صورة ولا قصر عما كان ولا استطال ولو كان فى جموع من الناس تعد أفرادها بالآلاف فانك تعرفه من بينهم جميعاً لا يشتبه عليك أمره أبداً ، ومع ذلك فما كان أعجبك منه قد زال لأنه غير ما ترى ، وما ترى من جسمه لا أهمية له ولا يتصل بموضوعك الذى تريد به شئ .

إذا صنائع الناس ومنتوجاتهم لا تنسب إلى ذواتهم المادية الملموسة كما قلنا بل تنسب إلى العقل الداخلى المطمور الذى لا يمكن الوصول إليه أبداً ودليل وجوده هو ما ينتج عنه من آثار تكون قوية بقوته ، وضعيفة بقدر ضعفه وتكون بين بين إذا كان هو من القوة والضعف بين بين ولذلك كان علي بن أبي طالب يقول : - المرء مخبوء تحت لسانه ، أى تستنطقه تعرفه

وليس هو ذلك الجرم المائل أمامك المندرج تحت الشياب الطال برأسه من فوقها .
ومن هنا تعرف خيبة أمل الماديين الذين أنكروا كل ما لم يدرك بالحواس
ولا أدري لماذا ! أخشية الضلال والخطأ ؟ لعمر الحق إننا لنحس من آثار
هذا العالم المجهول ما لا يسمو إليه الضلال . من منا أو منهم لا يميز بين آثار
العقل وآثار الجنون ويفرق بين المروت الهامد والحياة النشطة المتدفقة ؟ .
من منا أو منهم لم يعرف النظام والفوضى ، والصواب والخطأ والقصد والنية
بدراسة أعمال الفرد وتحليلها . وهذه كلها مصادر ما مجهولة لا تدرك بالحواس
ولا يمكن أن تدرك بها . بل إنهم وباللهعجب افترضوا الاثير أخيراً حينما
حتمت عليهم الامور أن يفعلوا واعتقدوا وجوده بشكل قاطع وإن لم
يدركوه بأى حاسة . وهذا إن دل على شيء فعلى أن مذهبهم يجب أن يتخلوا
عنه أحياناً ، إذا اقتضت الاحوال ذلك . وقد تخلوا عنه مرغمين هنا بتهتميم
تلك الاحوال والظروف . ولعمري أن الضرورة التي حتمت عليهم الاعتراف
بالاثير الذي لا يدرك هي أقل بكثير من تلك التي تحتم الاعتراف بالله تعالى .
ولا أدري على ذلك ما بالهم - ما أراهم إلا آثمين لا يتسع لهم العذر أبداً .

بقي أن أقول : إنى بمحاولتى تحديد سمات الله فى هذا الباب لا أقصد تلك
الصفات والاسماء التوقيفية ، التى قصد إليها المتكلمون من علماء المسلمين كلا ،
فتلك لا أستطيع أن أعرض لها بتغيير ولا تبديل ولا زيادة أو نقص ، إنما
قصدت بها الترجمة عما أحسه فى صنع المصنوعات السكونية التى أمامى وما

اقتضاه وجودها بحالاتها التي هي عليها من التزام صانع متصف بتلك الصفات التي ذكرتها حتى كانت تلك المصنوعات كما هي لا تزال تتم بحالاتها عنه وترشد إليه .

ولعل استحضاري لفكرة المصادفة والطبيعة واجتهادي أن أفرق بين ما يمكن أن ينسب لهما وما لا يمكن . كان لهذه المحاولة أثر كبير في اختيار هذه الصفات بالذات لأنها كما بدا لي في فصل التفرقة بين الحالين .

كيف نبحث عن الله ؟

دلائل وجود الله واضحة جليلة يجدها الإنسان حيثما اتجه وأنى تلفت لا تشبه ولا تخيل . وغامضة جداً ومنحجرة لدرجة ضل معها بعض أكابر الباحثين على كثرة ما بحثوا ونقبوا . ولا عجب فمن قصد إلى جهة ينبغي الوصول إليها إن هو أخطأ السبيل إليها فقد ضل عنها إلى الأبد وإن طوى الأرض على قدميه طياً .

قد أكون في نقطة تقع غايتي منها إلى الشمال ؛ أفلا ترى أنني إذا اتجهت إلى جهة أخرى غير الشمال فأنى لا أجدها ؟

لعمري أن الجهات كثيرة أصلية وفرعية فأى انحراف بسيط يجعلني لا أجد غايتي ولو قطعت الأرض ثم قطعتها . لذلك كان خير نصيحة ينبغي أن يزود بها الباحث في هذا السبيل - أنه إذا عثر على ما يراه يعمل في الكون ، لا ينظر إليه نظراً جامداً مرتجلاً حتى لا يحس إلا به بل ينبغي أن ينظر فيما حوله ليعرف ما مده له وما ترتب عليه ليحس بالقصد ويشعر بالتدبير ويدرك الفاعل المختار - ولا داعي للتعجل ، فلنمض بترتيب الأمور :

إن الناحية التي تربطنا بالسكون ؛ والحالة التي وجدها الإنسان في نفسه وفيما يحيط به من الأشياء فنبهته إلى فكرة الألوهية وأكدت له عنايتها بالإنسان وآثارها في الوجود . هي تلك الحاجات الضرورية المتتابعة التي كان يحسها في نفسه دائماً ثم وجوده لما يسدها فيما يحيط به من الأشياء على أكمل وجه وبأحسن صورة .

تصور ذلك الإنسان القديم إذا أخذ يبحث عن شيء قد أخطأ مكانه وقد أظله الليل وتكاثف حتى ما يكاد يبصر شيئاً ؛ وقد يكون الجو مرکوما والنجوم غائرة فما زال يتحسس حاجته فلا يجدها ؛ ويتعثر بين الصخر والاحجار على غير طائل ، وإنه لسلك ذلك إذ ظهر له البدر فأضاء الفجاج ، وأزال الغمة وأجلى الشبهة وأوقفه على حاجته في يسر وسهولة ، وقد يكون قد تسكر ذلك له حتى صار يعرف أن مصدر ذلك النور هو ذلك البدر المنير - ماذا يكون لبدر السماء في نظره من القيمة والأهمية والمصلحة ؟

ثم تصوره مرة أخرى إذا انقطع عنه الماء فما زال يبحث عنه جاهداً هنا وهناك ، حتى بهرته الظمأ ، واشتد أواراه وصار على شفا جرف الهلاك ، ثم وجدته أخيراً فأخذ يسرع منه حتى ارتوى ، فما كاد الماء يستقر في جوفه حتى صار كأنما قد نشط من عقال ، أركأ كما كانت به شعلة من النار فانطفأت - ماذا بالله يسكون لهذا الماء في نظره ، وماذا يستطيع أن يقول وقد رآه قد استطاع أن يتغلغل في أعماقه ، ويستأصل العلة لا يبقى منها شيئاً ؟ ألا تراه يتساءل :

ماذا هذا - أهو لها وهي له ؟ لعمر الله ما الأمر إلا كذلك - وما ذلك

إلا ما يفهم من الحادث .

بل تصور أحدنا إذا جلس يوماً ما على ضفاف النيل ، وقد جاء مرغداً مزبداً لا يصده شيء ، فأسند رأسه إلى يده ، واستطاع أن يبعد عن فكره مصنوعات الإنسان وآثار ذهنه الذي لا ينى ، ثم تأمل فى مدى افتقار مصر إلى هذا الماء ، وأن عليه حياة الزرع والضرع ، ومن غيره كانت تعود مصر صحراء قاحلة ، لا يرى فيها نبت ، ولا يطير فى جوها طير ، ولا يدرج فى أكنافها حيوان ولا إنسان ، فامتد به تفكيره إلى ذلك المصدر المائى الذى لا يفرغ كأنما قد هالته كثرة ماء النيل ، فأشفق ألا يستطيع المصدر أن يمدنا بتلك الكثرة دائماً ، فأخبره العلم أن نهر النيل ، وجميع أنهار الدنيا أصلها من المحيط أصلها من المحيط ؟ أى والله أصلها من المحيط ذلك الماء الأجاج الذى لا يشرب والذى يموت الإنسان عطشاً ولا يشربه ، لانه والظماً سواء ، بل هو يزده ويحمسه كيف ذلك يا للعجب ! وماذا كان يعمل الإنسان بالله لو لم تكن حركة التصعيد والتكثيف الكونية التى تستخلص له الماء من المحيط ؟ .

لأجواب لذلك إلا أنه كان يموت ، كان يموت حتماً ولكنه لم يمت . لأنها لا تنى ولا تتخلف ، ولا تتمد بأقل مما يلزم ، ولم تتمد بأقل مما يلزم طيلة الأعرام والقرون التى مرت .

ألا تراه بالله يدرك عناية ساهرة ، وعملاً دائماً متواصلاً ، ورحمة لا تتخلف ذلك السبيل هو سبيل التفكير فى الخالق قديماً وحديثاً ، وفى كل عصر وجيل يرى الإنسان عناية به ، وإنعاماً دائماً ، وسداً لعلله وحاجاته بأقوى حيلة ، وأفضل علم ، وأكمل تدبير ، فلا يجد له بداً من التفكير فيه ، والثناء عليه ، حيثما كان وكيفما كان ، إن كان هذا التعبير يليق .

مظهر وجود الله إذاً ، هو الرحمة والانععام والتفضل ، وتفصيل العطاء على قدر الحاجة ، وشمول علمه لكل الحاجات لا يغفل واحدة ، وتديره الحكيم الذي يعالج الحاجات بما يسدها لا يترك منها شيئاً ، ومهمة الباحث ، إذاً هي النظر في احتياجاته الحيوية ، وفيما يحيط به من هذه الكائنات التي حوله . ثم يتدبر كيف هي هيئت بحسب احتياجاته في غير تقصير ولا فضول . فيأخذ لنفسه من ذلك عبرة .

يخبرنا العلم أن أحداً لو صعد إلى قمة افرست ، فإنه يشعر باختناق لا يستطيع معه الحياة ، ويشعر بطفور الدم من عينيه وأفقه وأذنيه ، ويشعر أنه قد صار أخف مما هو بحيث مبوب الريح يقلبه . لماذا هذا ؟ لأن أكسجين الهواء قد قل تدفقه في جسمه عن النسبة المقررة التي تستطاع معها الحياة ، ومن هنا شعر بالضيق ؛ ولأن طبقات الهواء الجوي قد خفت فقل الضغط الحاجر للدم فقفر ، ولأن جاذبية الأرض قد خف إمساكها له فصارت تلعب به الأنواء ، ويقول العلم أنه لو عملا أكثر فإن تلك الحالات تزيد حتى ما تستطاع الحياة لحظة ، ولا يبقى في مستقره غمضة . إذا البيئة التي هو فيها له ، ومهياة بحيث تناسبه ، ولا يستطيع الحياة في غيرها ، ذلك ما يستخلص من الحادث . ثم عليه أن ينظر الاجهزة المختلفة التي تعمل فيه دائمة لانهاداً ولا تفتر والخير كل الخير له في ذلك بحيث لو كانت ونت أو وفي شيء منها لكان في ذلك هلاكه ، عليه أن ينظر المهمة التي يؤديها الدم في جريانه ، وكيف مهدت له السبل ليسير في أنحاء الجسم لا يجد عقبة ، ويفكر في المهمة التي يقوم بانجازها وكيف هي ما كانت لتم لو لا هو وما كانت الحياة تستطاع

من غير ذلك ، عليه أن ينظر في مهمة الغدد في الجسم والسكريات في الدم حمراء
وبيضاء عليه أن ينظر كل ذلك ويتفهم الغرض الذي يؤديه كل منها ليسير دولا ب
الحياة العام وليست جهات البحث مقصورة على الانسان وحده ، بل هي أيضاً في
النباتات والحيوانات فحينما اتجه الانسان في انحاءهما يجد فنونا من الحكمة
وآفاقا من التدبير وقصدا أكيدا ويقظة حاضرة .

إن علماء النبات والحيوان قد جاوبوا هذه الآفاق فقف أمام أى شئ
وسائلهم عن مهمته في موضعه ، والمصلحة التي يؤديها ، وماذا كان يكون لو لم
يكن . وماذا يحدث لو أبطأ عمله . أو أسرع عمله عما هو لتسمع العجب ،
وتشعر بالنظام الجارى . والهندسة المتقنة والتدبير السامى المدهش .

أى أن نظرة الباحث اللاهوتى تتجه دائماً وجهة الطبيب الشرعى ،
والباحث الجنائى ، الذى يريد أن يعرف النية والقصد ومقدار ما تدل عليه
الآثار التى أمامه من عمد وتدبير ، فيسير دائماً ووجهته أمام كل نقطة لماذا هذا ؟
- وماذا كان يكون لو لم يكن ؟ وقد كفانا أو لك العلماء النباتيون والحيورانيون
والطبيعيون والكيميائيون شر الضلال والخيرة فى هذا السبيل . ومساوىء
الحدس والتخمين - فما علينا إلا أن ننظر فيما وصلوا إليه من نتائج مثبتة
آخذة حظها من التمحيص ؛ ونردد النظر فيما فيها من التدبير وتمهيد المقدمات
لتحصل النتائج - فنأخذ العبرة ونستبين السبيل .

وهناك اتجاه آخر يتجه إليه الباحث الطالب للمعرفة ، فيقف أمام الظاهرة
ويفكر كيف هى جاءت ؟ فشلا إذا راقب الدورة الدموية ، فوجد أن الدم
يأتى به الوريد أزرق ، ثم هو إذ يسكبه فى القلب يراه قد خرج هو نفسه أحمر
قانيا - كيف هذا ! يتساءل الانسان ! إنه كان أزرق هكذا شاهدته فكيف

عاد إلى الحرة ثانية ؟ فيتغلغل في هذه الظاهرة فيعرف أن الهواء الداخل مع النفس قد تغلغل في الرئتين في حين أن الدم الأزرق يكون قد تغلغل هو الآخر في ثنايا القلب ، ومن وراء هذا الجدار الرقيق ، وبسبب الألفة الكيميائية يجذب أكسجين الهواء ما بالدم من كربون وإيدروجين وهى تلك المواد التى كانت تعكسه ، فيعزود الدم صافيا ، ويأخذ لونه الأحمر النقي السابق .

وقد يشتهى أن يعرف القوة المحركة للدم ، فتجعله يسير ويتدفق فيبحث في ذلك فيجد السبب طبيعيا . القلب مضخة كابسة ، يفعل بالدم ما تفعله المضخة الكابسة بالماء ، أليست هى تستطيع أن تقذفه إلى أعلا في الأنابيب التى ستوصله .

وإذا راقه أن يعرف كيف يسقط الطعام والشراب في الفتحة الموصلة للقناة الهضمية دون غيرها من تلك الفتحات المتعددة المجاورة لها ، وكلها مفتوح

نصحيح

اللاهة تسد فتحتى
الانف الداخليةين
فقط عند البلع
ولان المزمار يسد
طريق النفس .

وكان يمكن أن يسقط الطعام فيه ، فيجد الفضل لللاهة التى تسد ما عدا هذه الفتحة المطلوبة ، وتلك الحركة الميكانيكية التى يؤثر فيها انحدار اللقمة .

وهكذا كلما وقف أمام ظاهرة يجد سببها الذى أحدثها فيمضى في سبيله وقد حجبت هذه الأسباب كل ما عداها . حتى إذا عاد من هذه السباحة هز رأسه مكتفياً قائلاً : الآن عرفت : الدم ينقيه أو أكسجين الهواء بفعل التجاذب والدم يسير بفعل مضخة القلب الكابسة ، يعين على ذلك نبضه الدائب المتالى وحركة اللاهة حركة ميكانيكية يؤثر فيها انحدار اللقمة أثناء البلع ، ولعله يتوهم أن الأمر بسيط لا يستحق العجب السابق والحركة آلية لا شيء فيها ، وإذا علم

السبب زال العجب .

غفل بعض الباحثين عن الإله الأعظم سبحانه لو جرد هذه الأسباب العاملة كأنما ظنوا أن الألوهية والحالة هكذا ، لا داعي لها ، فإدام الأكسيجين الهوائي يجذب أوساخ الدم لينقي فما الداعي إلى افتراض إله معه هو فعل ذلك وكفى ؛ وإذا كان الدم يسير بفعل القلب يعين على ذلك نبضه المتتابع ، واللهاء تسد الفتحات الأخرى والدافع لها إلى كل ذلك تلك الحركة الميكانيكية فما الداعي إلى افتراض شيء بعد ذلك .

الكلام ظاهره لا غبار عليه ! ولكن المتأمل يجد خلطاً دسببه الفساد إلى التفكير . إن تلك النظرة القصيرة المقتضبة تشبه تماماً ذلك الذي نظر عقارب الساعة تسير والأسباب الكثيرة المتراكبة التي تسيرها واستنادها أخيراً إلى مرونة القطعة الزنبركية التي لا فضل لأحد فيها فقرر أن الساعة لا صانع لها وحجته أن تلك القطعة تستطيع الاستقلال بإدارة الساعة وحدها بدون احتياج إلى شيء معها .

وهذا كما نعلم خطأ كل الخطأ ، لأن تلك القطعة التي هي في نظره كل شيء قد احتاجت قبلاً إلى من مهد لها المجال الذي تعمل فيه ووصلها به ووضعها في موضعها منه ، بل وجمع بينها وبينه وإلا فكيف تم كل ذلك لها - فكذلك الأمر هنا لو تدبر .

ولزيادة الإيضاح والشرح نعيد النظر في تلك الظواهر من وجهة النظر اللاهوتي ونبين كيف أن المقام - فضلاً عما سبق - يمتنهي الاعتراف بالإله المنعم من نواح أخرى بحيث لو لم نفعل لسكان في ذلك غفله أي غفله ، وعمى وضلال بعينه .

الأكسجين اجتذب المراد العالقة بالدم - ذلك ما لا شك فيه ، واجتذبتها بنفسه وبدون شيء معه - سلمنا ! ولكن ماذا كان يحصل لو لم يفعل الأكسجين ذلك ؟ كان السكان الحى يموت فى الحال ! إذا فهذا عمل ضرورى لا شك فى ضرورته و الأكسجين كيف جاء إلى هذه الأوساخ التى يجتذبها ؛ وهذه الأوساخ كيف جاءت إلى النقطة التى ستلتاقى مع الأكسجين فيها ؟ هذا أمر يتطلب الاعتبار ثم إذا تدبرنا المسالك الهوائية التى سيسلكها الهواء إلى الرئة وكيف هى متصلة متلاقية حتى تصل إليها ، وألقينا السمع إلى ما يقوله علماء الصحة ووظائف الأعضاء من وجوب أخذ النفس من الأنف لانه الطريق الطبيعى المعد لذلك ، وما يشيرون إليه من أن الشعر فى الأنف إنما هو لتنقية الهواء من الغبار وهو داخل ، وأن جدران التجاويف الأنفية دفقة تدفع الهواء البارد رطبة تلتطف حرارته قبل الدخول .

والمادة المخاطية التى فى الأنف لها هى الأخرى سببها الموجب لوجودها . إنها لتنقية الهواء مما به من الجراثيم الضارة (ذلك كلام أولئك العلماء لم يقولوه ليخدموا قضية الدين ، بل لمصلحة الصحة الإنسانية والأمور الحيوية نفسها) فإذا ألقينا السمع إلى كل ذلك وجدنا طريق الهواء ممهداً مزوداً بكل ما يلزم لذلك القادم مراعى فيه كل ما يتطلبه الأمر من حكمة وتدبير وحيطة وبعد نظر . وإذا بحثت السبب الذى يدفع الهواء ليدخل فى مسلكه إلى الرئة لوجدت سبب ذلك ضغط الهواء والحجاب الحاجز الذى ينزاح عن موضعه فيخف توازن الضغط الداخلى عن الضغط الخارجى فيجسد الهواء فرصة للدخول

فيدخل ، تلك الحركة التي يعملها الحجاب الحاجز هي حركة طبيعية كما نعلم ،
ولكنها الحركة المهيأة لتؤدي هذه المهمة وما وجود الحجاب الحاجز في
موضعه الذي هو فيه الذي لا يناسب العمل سواء وحركته السرمدية المتأرجحة
المنتظمة حسب ما تتطلبه حركة التنفس . ووجود العضلات التي تحركه ، وتحركه
تلك الحركة الخاصة بالذات - كل ذلك مما يجعل التدبير أبعد مدى والحكمة
أتم وأشمل ، ثم إذا نظرنا من جهة أخرى إلى هذه الأوساخ وكيف جاءت للدم
ولماذا ؟ لوجدنا أن الدم وهو يسير سيره السرمدي المعتاد ليغذي خلايا الجسم
حتى أبعد خلية فيه وأدخل خلية ، تراه يحمل أثناء سيره ما تفرزه تلك الخلايا
من أوساخ وما يندثر منها نتيجة للحركة المستمرة والعمل الدائب ، وهذه كلها
لو بقيت في ثنايا الجسم لأردت به ، لذلك تراه يخلص الجسم منها ، ويحملها
ماراً بالمسالك الممتدة المتراصة المتشعبة هنا وهناك حتى تتجمع وتتلاقى ،
وتنتهي أخيراً إلى المكان الذي سيكون الهواء فيه هو بالذات ، وثبتت تتلاقى
الفضلات بأكسيجين الهواء فيجذبها إليه ويعود بها إلى الخارج مع حركة
الزفير ، ويعود الدم نقياً صالحاً كما كان .

فهذه أعمال التدبير فيها جدى والحكمة ظاهرة والرحمة والعناية لا ريب
فيهما فكيف نطبق إغفال هذه الصفات ، ونطبق إغفال المتصف بها سبحانه
ونهمل ما تستحقه قبلنا من ثناء وشكر .

وإذا كان نظام القلب مهياً على نسق المضخة الكابسة ، حتى صار وصفه
بالمضخة الكابسة صحيحاً ، وصار قذفه للدم في مسالكه تبعاً لذلك شيئاً طبيعياً ،
فينبغي أن نعلم أن القلب وقد هيء هكذا غانما هيء ليؤدي هذه المهمة وقدمت

له المسالك التي سيقذف الدم فيها ، وامتدت الى حيث يطلب منه الامتداد حتى أقاصى الجسم ، ثم عمل له حساب الرجوع الى القلب حيث ينظف .
ثم اذا كانت اللهاة تسد هذه الفتحات دون الفتحة المطلوبة ، فذلك سداد
واذا كان انزلاق اللقمة يؤثر على اللهاة لتعمل ، فيأتى عملها وقت الطلب ،
فذلك تدبير وحكمة ، فاذا جاء هذا التدبير على أساس الحركة الميكانيكية فما
ينبغي أن يقابل بالفتور لهذا السبب ، أليس العمل الميكانيكى يتطلب لى يتم
حذقا وفطنة ، وقوة حيلة وعظم درايه ؟ إذا ليس فى الأمر مصادفة عمياء ولا
حركة هوجاء ، ولسنا نطلق على عالم ميت أو خراب .

فقد بان لك أن الأسباب الطبيعية التي انتهت عندها بحث الباحث الطبيعى
كانت بمثابة نقطة الاتكاز فى عمل مصلحي متراكب ، ذى مقدمات ونتائج ،
يؤدى مهمة فى غاية الاهمية للسكان الحى ، وما يضير ذلك العمل الضرورى
المتقن ذو النتائج الخطيرة فى حياة الانسان وغيره أن يكون مرتكزا على سبب
كهمه الاسباب ، ما يضره وجودها ، ولا يقلل من أهمية المخترع ولا يقال من
حذقه وكياسته وتدبيره شيئا ، ومجمل القول أن خطة الباحث اللاهوتى هى
البحث فى حكمة وجود الشئ والمهمة التي يؤديها .

وماذا كان يترتب على عدم أدائها ، والخطة العملية التي ستؤدى بها هذه
الغاية بمراقبة المقدمات والنتائج ليظهر التدبير وتتجلى الحكمة ويظهر الغرض
أما وجهة الباحث الطبيعى فهي كما علمت البحث عن الاسباب والمسببات وكفى ،
وقدضل بعض الباحثين فيها لسوء الغفلة كما أريتك فى المثال الذى سقته لك ،
والأغلبية لم ينلها أى ضلال لأنهم كانوا إذا ساروا شوطا فى سلسلة الاسباب

والمسيبات وجاء ذكر الخالق يقولون :- إن هذه الأسباب لتدل عليه ، كما تدل الساعة على صانعها .

وأكابر علماء الطبيعة ، والغائضون وراء نواميسها ، والمكتشفون لكبريات العوامل الطبيعية الفعالة كانوا على إيمان راسخ وعقيدة صحيحة ومنهم نيوتن مكتشف ناموس الجاذبية العام ، الذي به يعزل وقوف الشمس والأقمار ، والسيارات والنجوم في مواقعها من السموات العلا

كان (نيوتن) مكتشف هذا الناموس متدينا كأشد ما يكون التدين وكان يلقب باللاهوتي الفاضل ورد على الماديين ودحرهم بقوة الحججة ، (وهارفي) مكتشف الدورة الدموية كان يقول : ما شرحت حيوانا إلا رأيت فيه شيئا جديداً وأدلة جديدة على العناية الإلهية ، وقل مثل ذلك في (باستور) مكتشف التخمر وغيرهم .

قراءة الافطار وتعيين القصد والنية

إن قراءة أفكار الفاعل وتعيين قصده ونيته من دراسة أعماله ليس مما يستعصى ؛ أليس ذلك هو مهمة رجال الآثار ؟ إنهم يعكفون على مخلفات الماضين يستنطقونها فيعرفون نطقها ويعودون بمعارف قيمة عن أجوالهم ونظام حياتهم ومعارفهم وفنوهم ، ودياناتهم ومقدار ما كان لهم من حنق في الصناعة ونخطر في الدنيا ، ولكم حاول المجرمون التوصل بما فعلوه فأدانتهم أعمالهم ، وثبت

قصدهم ونيتهم من دراسة هذه الأعمال ، واستطعنا أن ندين المجرم المهيء
لأركان الجريمة وإن لم يلوث يده الدم .
والجاسوس يظهر أمره من تتبع حركاته ودراسة مسالكه ، فيقدم للقضاء
وتقام على جاسوسيته البراهين التي لا تدفع ، وهي مأخوذة من حركاته
ومسالكه طبعاً ومن يتناول آلة ميكانيكية ، ويدرس أجزائها ، فإنه يتمثل
اتجاه تفكير المخترع ويعرف مقدار ماله من الخلق والبراعة ، ويتبين كيف
احتاط وكيف تيقظ ، وفي أى نقطه غفل وأخطأ ، وفي أيها قد زايله التوفيق .
وسبيل الباحث اللاهوتي في بحثه هو هذا السبيل . وهو كما رأيت ميسور
ومقدور عليه ، وطرائف عدة من الباحثين سبيلهم هو سبيله ، ومهمتهم الحصول
على مثل نتائجه ، فليس في الامر شيء لا يستطيع .

فرصة طيبة

وإذا كانت أصول البحث الرشيدة ، لا تستطيع الركون إلى استنتاج لم
يؤيده الدليل ، ولم تثبته التجربة خشية الضلال والخطأ ، فذلك ما صرنا في
مأمن منه الآن ، لاننا نتفلسف فيما فرغ العلم الطبيعي منه وقرره ، وأثبتته
بالتجربة ، ذلك هو موضوعنا الذي نبحث فيه ، ونأخذ الشواهد منه ونبنى
تفكيرنا على أساسه ، وهو كما تعلم أساس ركين لا مظنة فيه ولا شبهة فلندع
العلم الطبيعي أمامنا كغرق الكشافة ، ولندبعه بفلسفتنا غير خائفين من عثار
أو ضلال ، وسنصل إن شاء الله - إلى غرضنا بأمان .

أدلة وجود الله المنعم

وجهتى فى إيراد هذه الأدلة وهدفى فى استنباطها ، والناحية التى أغوص فى أنحاء الكائنات لاصوغها من مادتها ، هى سمات التعقل ، والإنعام والقصد والتدبير والحكمة ، تلك التى تغص بها رقعة الكائنات وتطفح ، وما أفسد على كثير من الباحثين بحوثهم ، وصيرها لا تغنى إلا اقتصارهم على الفاعلية والمفعولية ، فاجتهدوا أن يثبتوا حدوث الاحداث الكونية ليستنتجوا افتقارها إلى محدث ، فلما جاءت شبهات القائلين بالصدفة والطبيعة وما إليهما كانت تلك الأدلة فى واد ، والشبهات فى واد آخر .

الجميع متفقون على حدوث الاحداث ، وافتقارها إلى محدث ، إلا أن هذا المحدث فى نظر زعماء الصدفة هو الصدفة ، وزعماء الطبيعة هو الطبيعة والقائلين بالقوة والمادة هو هذا الشئ الذى يقولون به ، وكل هذه لا تعبد وما ينبغى أن تعبد ، وذلك هو مفترق الطرق بين طائفة المؤمنين والملاحدين والكلمة الفاصلة فى قضيتهم .

وإعجابى الذى لا يفرغ من القرآن الكريم أنه وقد ذكر اسم الله أول ما ذكره نعتة بذلك الوصف الكريم الموجز الذى يطيح بجميع الشبهات مهما تعددت ألوانها واختلفت أساليبها حيث قال : بسم الله الرحمن الرحيم .

فصفات الرحمة والإنعام ، المنعوت بها الاسم الكريم ، هى صفة فى قفا الإلحاد يظل يهرى بها حتى يستفيق ، يقول وكأنه يخاطب من جحد ، أو من يريد أن يتبين :- أنظروا إلى أحداث الكون تجدوها رحمة ونعمة ، والشئ

لا يكون رحمة ونعمة إلا إذا صدر عن عقل يدرك مدى ما يلزم ، ليفضّل العطاء على حسابه ، وكل ما يلزم ، ليقدمه جميعه لا يترك شيئاً . فبتدبر كل ذلك وأمام هذا المنار الهادي ، يعرف كل أولئك أن شبهاتهم لا مجال لها في الوجود ثم المنخدعون بالاسباب الظاهرة ، التي تؤثر في نزول المطر ، وورود الليل والنهار ، لو تدبروا هذه الآية الكريمة - هم الآخرون - لوجدوا أن وراء الاسباب سرّاً ما دامت تقدم - إذ تقدم صالحاً ، وتعمل ، إذ تعمل لازماً ، ويكون عملها دائماً مشفوعاً بالحكمة ، ومقدراً مضبوطاً ، لا تقصير فيه ولا فضول .

ذلك كله يهدي من ضلّاله ؛ ويُفّيق من سكرته ، ذلك الوصف الجامع المانع الوارد في قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم .

١ - دليل النهاية

١ - تهيئة البيئة الصالحة للحياة :

أنظر حولي فاجد كل ما تحتاجه حياتي من ماء وهواء ، وغذاء وحرارة وضوء فاعتقد أن ذلك العطاء جاء بتدبير حكيم منعم متفضل ؛ قد علم ما أحتاجه فأمدني به في غير نقص أو خطأ .

ولو أن مسافراً ضلّ في مفازة ، وما زال يهيم في متاهاتها على وجهه حتى هداه الحظ أخيراً إلى بنية لا يجد أحداً فيها فاراضها مبيتاً ليلته .

وبعد أن هدأت أطرافه من التعب نوعاً ، رأى أن يقضي حاجته قبل

الهجوع ففعل ، فلما عاد وجد عجباً ؛ وجد مصباً حار منيراً ، وفراشاً وثيراً ، وغطاء مدفئاً ؛ وزاداً شهياً ، وقد حارداً ، ثم الأناة والابريق لينظف يديه وفمه ألا تراه بالله يعتقد اعتقاداً لا ريب فيه ، أنه في كلامة كريم عاقل قد عرف ما يلزم للطاريء الغريب فقدمه ، بلى إنه يعتقد ذلك جازماً ، يعتقد أنه في ضيافة ذلك الكريم ، وإن لم يره ، والرؤية لا داعى إليها ، فالفعل قام مقامها وأكثر منها ؛ فربّ موجود مشاهد ، كأنه غائب مفقود ، لا ينتفع الانسان منه ، ولا يحس بوجوده ، ووجوده وعدمه سواء .

لعمري إن تلك الحالة الصالحة للحياة التي نجدها في بيئة نسا ليست ظاهرة كونية عامة ، نجدها في جميع أنحاء الكون - كلا ، فلو علونا عن سطح الأرض مائة ميل فقط (١) وما عسى أن تكون المائة ميل من مدى ما حولنا ؟ إن المسافة بين الأرض وبين الشمس ٩٣ مليون ميل . فالمائة ميل هذه ليست إلا ذلك المدى الذي يبعده الانسان عن مرقدته في غرفة مدفأة - لأن الليلة قارة - ليقف على بابها ويريق الماء . أقول لو علا الانسان عن سطح الأرض هذا المدى الضيق جداً الذي يعرف ضيقه علماء الفلك حتى لكان خطو النملة - فماذا يجد ؟ إنه يموت في الحال لانه لا يجد هواء تمت ، ولما كان ذلك لن يتأتى لاحدنا يوماً فلندع العلم يتكلم :

إن الزاد والماء يتركهما الإنسان على سطح الأرض كما نعلم ، والهواء ينقطع عنه بعد مدى . ثم العجب أن الحرارة والضوء اللذين يظن أنهما في الطبقات

(١) الحياة لا تستطاع بعد خمسة أميال - كتاب تدبير الصحة المدرسي

العليا يسكونان أكثر مما هنا - بالعكس يقلان حتى لا يكون لهما وجود بعد . وما الثلج الذى يتجمد فى أعالي الجبال إلا من شدة البرد هناك وسيشتد البرد كلما علونا ، ويقل الضوء حتى تعود الحرارة صفراً ويصير الجو عتمة ، وإن كانت الشمس طالعة لأن هذا الضوء من صفات هذا المحيط الأرضى والنور لالون له كما قالوا : إذا هذا المحيط الذى نحن فيه مهياً للكائن الحى بالذات ومراعى فيه ما يلزمه هرووحه ؛ ولن تجد لهذه البيئة الصالحة اللائقة له وجوداً على مدى ، ومن ثم ترانا مشدودين إلى هذه الأرض شداً بفضل قانون الجاذبية حتى لا نتخلع عنها فنهلك ؛ فذلك القانون لنا بمثابة السياج الذى تقيمه الحكومات الرشيدة فى المصيف على مدى قريب من شاطئ البحر ، خشية أن يتابع أحد هوسه ويمضى ، فيهوى فى الهاوية .

ثم هل تظن أن الخالق المدبر المنعم . وقد جمع للانسان فى محيطه هذه الأشياء وغيرها مما يحتاجه ؛ هل تظن أن الأمر قد انتهى عند ذلك ؟ كلا ! . إن الهواء الذى يسد الخافقين يفسد بعد مدة ويصير لا يصلح لو ترك وشأنه - ذلك أن الانسان يتنفس باستمرار فيستنشق الهواء صالحاً ويخرجه فاسداً ؛ وكذلك الحيوانات الأخرى والنباتات (١) ، فبتوالى الزمن يصير هذا الهواء فاسداً كله . فهلك كل من وما فى الأرض جميعاً - أفيترك الخالق الرحيم

(١) النبات يستنشق الأكسجين مثلاً لغرض التنفس . وسيأتى أنه يستنشق السكر بوزن لغرض التغذية - فلا مناقضة .

هذه الكارثة المنتظرة بدون ما يحول دون وقوعها ؟ كلا ! إنه عاجلها أبداع
علاج ! إليك :

جاء في كتاب عجائب الخلق لجر جي زيدان ما يلي : « يدقــدرون جرم
الاكسجين الذى يمتصه الجنس البشرى فى السنة بنحو ١٦٠ ألف مليون متر
مكعب ، ويظنون أن الحيرانات الباقية تمتص أربعة أضعاف ذلك على الأقل
ويخرج الإنسان من جهة أخرى ٢٥٠ غراما من غاز الحامض الكربونيك فى
اليوم فيها ٧٥ غراما من الكربون الصـرف (الفحم) فبناء على ذلك لا يمضى
زمن حتى يتحول الهواء إلى حامض كربونيك سام وينقرض الحيوان عن
وجه الأرض ولكن العناية تلافت ذلك بتنفس النبات . فالنبات يحتاج إلى
مقدار كبير من الكربون لغذائه وتقوية أعضائه ، فيتناول حامض
الكربونيك من الهواء ويحله فيأخذ منه الكربون لنفسه ويخرج الأكسجين
إلى الهواء فيتم التوازن . . »

والماء وإن وجد فى الأرض بهذه الكثرة التى لا يخشى معها زواله ، إلا أنه
ملح لا ينفع ، وملوحته هذه لا معدى عنها فلولاها لفسد الماء وأرسن وصار
شره لا يطاق - جعل الله من ذلك مخرجا ، فاستخلص الإنسان من هذا الملح
الأجاج حاجته الكاملة ، من الماء العذب الصافى ، يأتيه باستمرار بوساطة
حركتى التصعيد والتكثيف الكونية الدائبة ، وذلك هو المطر . ولقد راعى
الخالق أن يسكن سطح المحيطات بهذا الاتساع ، ثلاثة أرباع الدنيا ليتم هذا
الغرض . ويسكن ما يتبخر من الماء كافياً للأحياء فصلا ، ولولا ذلك لكان
أقل مما يلزم ، خصوصا إذا أخذنا فى حسابنا العصور الجليدية التى تنساب

العالم أحيانا فتعطل من الماء أكثره .

وبديهي أن الحرارة والنور موفوران في محيطنا بفضل الشمس الدائمة التآلق والإشراق ، ولكن الامر فيه ناحية تقتضى العلاج . وإلا لوقعت كارثة . إن الشمس لو دام سطوعها على محيطنا في غير غيبة لانضجت حرارتها الجلود وأهلكت الاحياء ؛ ولو زالت الشمس عن الوجود فالهلاك محقق . إذن وجودها وغيبتها يهلكان إن داما . المخلص إذن أن يتعاقب الحضور والغياب لا يستمر أحدهما ، وذلك هو الليل والنهار الناشئ عن حركة الارض السرمدية المنتظمة . الجارى أمرها بحساب ليؤدّى هذا الغرض .

والغريب أن العلماء يقولون إن هذا القدر من الحرارة والضوء هو القدر اللازم الذى لو كان زاد أو نقص لما عاد صالحا . واقد كانت الزيادة والنقص جائز أن يكون كل منهما ، فالارض تقف من الشمس على مدى ٩٣ مليون ميل ، فلو كانت اقتربت نصف هذه المسافة لاجترقت في حقبة ، ولو كان بعدها عنها ضعف ما هو لصارت سوائلها جامدة ثم هلكت الاحياء ، وكذلك حركتها اليومية مقدرة تقديرا صالحا مناسبا لا أنسب منه .

يذكرنى كلام العلماء فى هذا الشأن وتقليبيهم الامر على جميع وجوهه ليسردوا الاضرار التى كانت تنجم لو كان الحال على غير هذا الوضع ، بما وجدته من أن صناعة التفريخ تحتم على القائمين بها ان يحيطوا بالبيئة بحرارة مساوية تماما ، وبغاية الدقة والضبط لتلك الحرارة الحيوية التى كانت الدجاجة ستحيطها بها . أفما ترى أن غير الواقع لا يليق بحال ؟

وهكذا تجد العلم جاهدا فى تفسير العناية الرحيمة الوافرة التى أحيط بها

الانسان ويبين الاحتياطات التى تقى هذه العناية مما يتهددها حتى تظل دائبة متصلة لا تنقطع ولا تتخلف .

والمهم فى أمر العناية بعد كل ما سبق ، هو توفيرها لتلك النعم بحالة تجعل الانسان يطمئن على مستقبله تمام الاطمئنان .

ذكروا (١) أن أحد الباحثين (٢) هالته كثرة الاحياء وتوالى نموها بحالة حسبها مطردة كأن الامر فوضى ، فقرر أن الطامة لا بد واقعة فسيجد الناس بعد ثلاثة قرون أن الارض قد صارت لا تكفيهم ، ونادى علاجاً لذلك ، بوجود ضبط النسل والحد منه بحالة تجعل هذا الطغيان لا يكون - ولكن من يسمع لقوله ومن يترك نفسه لا ينسل ، ولا شيء أحب إليه من النسل !

ذهبت فلسفته صرخة فى واد ، وهضى ركب الحياة فى وجهته كما يشاء ، وقرب اليوم الموعود . فإذا بالسكان قد زادوا فعلاً . ولكن ليس إلى هذا الحد الجنونى الذى قال به . وإذا بالخيرات قد زادت بزيادة السكان اطراداً ، بل صارت الحياة أرغد وأهنأ مما كانت ، بفضل العلم الذى يكشف للانسان عن كنوز الارض ، ويمكنه من الانتفاع بخيراتها ، بل لقد زاد الانتاج عن المطلوب ، حتى تسكدست السلع (٣) وغمرت الاسواق ولم تجد من يشتاعها حتى حدثت أزمة سنة ١٩٣٠ بسبب وفرة الانتاج فى العالم .

فبالله ماذا بعد ذلك ترى؟

(١) من مقال للاستاذ العقاد فى كتاب (الكتاب الثلاثة) بمصرف

(٢) هو مالثوس الفيلسوف قال بذلك فى القرن الثامن عشر

(٣) انظر كتاب فتوحات العلم الحديث للاستاذ فؤاد صروف (موضوع العلم والازمة العالمية)

وقد خطب^(١) السيروليم كركس رئيس مجمع ترقية العلوم البريطاني الذي انعقد في مدينة برستول سنة ١٨٩٨ فقال ما يجمله : إن إقبال النوع البشرى ، وخصوصاً الجنس القوقاسى على الخنطة يزداد عاماً فعاماً . وذكر أن النوع البشرى نفسه يزداد بالتوالد ، ولكن الأرض التى تصلح لزراعة الخنطة ، وإن كانت لا تزال واسعة في المسكونة ، إلا أنها محدودة ، وسيأتى يوم لا تكفى ، ثم ذكر أن التسميد من نترات الصودا يكثر الغلة ، حتى إن الأراضى المزروعة الآن إذا سمدت تماماً فقد تكفى هى وحدها مدة طويلة ثم ذكر أن بلاد شيلي يستخرج منها نترات الصودا ، والخبث يرون يذكرون أنه لو استخرج منها كل سنة مليون طن لنفد كل ما فيها فى مدة ٢٠ إلى ٣٠ سنة وإذا استخرج منها حوالى ١٢ مليون طن فى السنة لم تكف سوى سنتين أو ثلاث ، أليزنى أن نتشأم إذا ؟ كلا . فان النيتروجين من أكثر العناصر وجوداً على وجه البسيطة ، فعلى ما مساحته يرد مربع من سطح الأرض نحو سبعة أطنان من غاز النيتروجين ، ولكنه بسيط غير مركب ، والخنطة تحتاج إليه مركباً ، ولكن هل من حيلة ؟ ذكر فى المجمع أنه اكتشف الوسيلة العلمية لذلك وشرحها أمام العلماء بواسطة التيار الكهربائى ، ثم قال : ولكن أنجد القوة اللازمة للعمل ؟ وأجاب بأن شلالات نياغرا وحدها تكفى ، فأنت ترى أنه مرّ بما مرّ به من أحداث السكون لا قلقاً متشائماً بل متفائلاً مبهجاً الأرض المزروعة وحدها تكفى مدة طويلة مع أطراد الزيادة إذا سمدت التسميد الكافى ، وقد صارت مصادر التسميد لا تعوز ولو أقفرت شيلي منه

(١) من كتاب (العلم والعمران) للأستاذ فؤاد صروف

وغيرها فما بالك بالمساحات الواسعة الأخرى التي لم تزرع ؟
على أنه مضى بخياله وعلمه الحاضر مع امتداد الزمن فقال : إذا زاد خلفاؤنا
كثيراً حتى لم تعد تلك الغلة تكفيهم فهم يهتمون بأنفسهم ويكتشفون سبيلاً
آخر ، ومن المرجح أنهم لا يعتمدون على الطعام المستغل من الأقاليم المعتدلة
بل على الطعام المستغل من الأقاليم الحارة ، وذكر أن همبلت حسب أن فدان
الموز يخرج منه سنوياً قدر ١٣٣ فداناً حنطة من ثمر الموز قبل أن ينضج وقبل
أن يصير نشاؤه سكرأ ، فانه يطحن حينئذ ويصنع منه خبز من أجود أنواع
الخبز على ما قيل .

فأنت ترى أن العلم لا يبحث إلا ويجد الخير عميماً موفوراً ولا يسكاد
يتوهم اقتراب الخطر حتى يجد الوسيلة للمخرج بحالة تطمئن قرونا وأحقاباً ،
على أنني من جهة أخرى أقول : إن الرجل وإن كان قد اهتمدى بفضل علمه
الذي حصل عليه إلى ما يطمئن إلى هذا المدى البعيد فهو لا يذكر أن باب
الآمل قد انتهى عندما بين . كلا . بل يرى أن في الإمكان غير ما علم ولذلك قال :
إن الخلفاء المنتظرين في المستقبل البعيد سيجدون الوسيلة لذلك وانتهى إلى
تحييد الفكرة القائلة (إن الغد يهتم بنفسه) .

يؤكد لي صدق الحكمة القائلة : إن في الإمكان أعظم مما علم ما سمعته
من وقوف بعض الباحثين مشفقاً (١) من أن الآلات العاملة تحتاج إلى الفهم وهو
محدود فماذا يعمل الناس بعد ذلك ؛ فلم تمض مدة حتى كشف العلم للناس مصادر
للقوة غير الفهم الذي كان يظن أنه كل ما هنالك لا يعرفون مداها مدى ؛

(١) اقرأ ص ٢٤٧ من كتاب فتوحات العلم الحديث للاستاذ دؤاد صروف

وناهيك بالقوة الذرية التي لم تعلم إلا في هذه الأيام ، والعلماء يقـدرون أن فـنجانا كبيرا من الماء تنحول ذراته إلى طاقة تسـكفي لإدارة محطة لتوليد الكهرباء قوتها تزيد على قوة شركة النور التي تغـذي أية مدينة من كبرى المدن مدة سنة (١) وهذه القوة ما كان يحلم بها المتشائمون ولا كانت تخطر ببالهم . وغير ذلك فالعلماء اتجهوا إلى أشعة الشمس وقالوا بإمكان استخراج القوة منها فماذا بعد ذلك ؟

وبعضهم هالته كثرة الحرارة التي تقذف بها الشمس باستمرار وحسبوا وقدروا كأنما قد خافوا انطفاءها فإذا بالمقاييس العلمية تقول لاخوف من ذلك فالشمس مع ما تقذف به من الحرارة تسـكفي آلاف الملايين من السنين وتظل بحالتها التي هي عليها : فهل علمت ؟

هذا هو فضل ربى الشامل وتلك هي آثار رحمته وتديره وحكمته ، فهل تراه ترك شيئاً لازماً للحياة لم يأت به ، أو حيلة لسـكيا تفسد النعمة إلا وفعلها ، أو وسيلة لاستخلاص النعمة من مصادرها إلا وأرجدها ، أو تقديرأ ليجرى أمرها بحساب بقدر حاجة المخلوقات لـتزيد عليها إلا وقدره ! فليت شعري : من ينكر وجود الله مع ذلك وبالرغم من كل ذلك أنى يذهب به ؟

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الدليل الذى يثبت وجود الله بحالة لا أكمل ولا أتم منها فقال : يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من

(١) كتاب قصة البقرة للإستاذ فوزي الشتوى ص ١٤٩

قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الارض فراشا ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) ، وقال (الله الذى خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) .

وقال : ألم نجعل الارض مهاداً ، والجبال أوتاداً ، وخلقناكم أزواجاً ، وجعلنا نومكم سباتاً ، وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ، وبنينا فوقكم سبعة شدائد ، وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج به حبا ونباتاً وجنات أنفاًفاً ،

ثم تراه يعمل لينبه الذهن الغافل إلى ما فى تلك العناية الكريمة من العبرة فيقول : قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتىكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتىكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ،

ب - تزويد السكان الحى بجميع معدات الحياة :

ينظر أحدنا إلى نفسه فيرى له رجلين للمشى ويدين للعطاء والاختذ ، وحواساً متنوعة تكشف له الوجود ليمير على هدى ، وأجهزة حيوية تعمل دائبة ، أعمالاً فى الاهمية القصوى بحيث لو تعطلت أقل وقت لمات الانسان على الارض ، ومقاييس يعرف بها الجوع والشبع والظمأ والرثى ، والحاجة إلى النوم والكفاية

منه ، ثم وقايات منيعة وحراصات يقظة ضد الميكروبات المهاجمة التي يعج بها الفضاء . إن السكريات الدموية البيضاء التي يقدر عددها بنحو ٥٠ ألف مليون (١) أي عدد النوع البشري في العالم كله ٢٥ مرة ، هذا العدد الهائل هو جند للفرد مناهياً لحراسته ، مرابطاً على الثغور والعورات ، يهرع للخطر حيث وُجد ، ويحس به قبل أن يشعر الإنسان به ، وفي الجسم كذلك استعدادات لهذه الميكروبات إن تغلبت على السكريات البيضاء ودخلت زاحفة ، إن فيه حرباً كيميائية عجيبة كأعظم ما تكون الحرب الكيميائية وأقدر ما تكون وأبداع ، ثم الغدد التي تمد الجسم بإفرازات متنوعة مختلفة التركيب ، ومختلفة الكمية ، ومختلفة الغرض فليس شيء منها يشابه شيئاً ، ولا يستغنى الجسم عن أيها ، ثم بعد ذلك كله غرائز للإنسان تهديه ، ومواهب يطول الكلام عليها . إن إمداد الإنسان بكل ما سبق - وهو ما يلزم لحياته لها - وهو كل ما يلزم لها هو أمر يشهد بالعقل ويشهد بالعلم ، ويشهد بالتدبير والحكمة ، هو كما تجهز الآلة العاملة بجميع معداتها التي بها تدور وتعمل ، أو ليس ذلك يحتاج إلى عقل وعلم وتدبير ؟ لعمرى إن للطائرة من الآلات والأجهزة ما لو نقص شيء منها ، ما كانت تنحرك وتنهض ، وقل مثل ذلك في القطار ، وقل مثل ذلك في الساعة وهلم جرا . فإذا رأيت الطائرة السابحة ، والقطار المسرع ، والساعة الدقاقة تدق دقاتها المتتالية التي تشعر بالمسير ، فانك في الحال تعتقد أنها قد استكملت أدواتها وإلا ما كانت تستطيع للعمل ، وتحكم في الحال بأن صانعاً لبقاً عليها كيساً قد ركب

(١) كتاب الإنسان ذلك المجهول تأليف مجلة المختار عدد فبراير سنة ١٩٤٥ ص ١١٨

ففيها الآلات اللازمة لم يترك منها شيئاً ، وبذلك استطاعت القيام بشأنها -
فكذلك الانسان .

ثم شتان بين العاملين ، وشتان بين الغايتين إن الصانع الذي وسمته بكل
ذلك لم يفعل شيئاً سوى أنه اختار أدوات الآلة التي سيركبها ، وميز ما يلزم لها إن
كان قطاراً مثلاً أو طائرة ثم ركب الأدوات كلها في موضعه . وعرف كيف
يركبها ، فاستحق هذه الألقاب بمجدارة واستحقاق ، فما بالك بمن مد الانسان
بهذه الأجهزة والحواس ليس من جهة أخرى صنعتها وقدمتها ، بل هيأها هو
نفسه أولاً - صاغها صياغة في داخل الجسم ، وابتدعها ابتداعاً ، وناهيك بما
يتطلبه ذلك من تشكيل وتحويل ، ثم هو لم يصنع هذه الأدوات من مادة
محضرة كما يفعل جميع الصانع ، بل استخلص موادها الأولية من الغذاء ،
وابتدع من هذه المادة المتشابهة أشياء مختلفة أشد الاختلاف ، استخلص منها
العظم ، والشعر ، والظفر والدم ، وعدسة العين الشفافة وجلدة الرأس المصمتة
- وهلم جرا - فأى حذق ترى وأى اقتدار ؟

ثم الآلات على اختلاف أنواعها ، لم يزد عملها عن حركة مطلقة ، لولا توجيه
الإنسان لتلك الحركة لما كان لها أية قيمة ، فالقطار مثلاً لم يزد عمل كل أجهزته
عن تحريك عجله لولا توجيه الانسان لتلك الحركة لتسير في الأرض ، أولتدير
طلبية أو آلة طحين ، ما كانت تعمل .

والساعة لم يزد عملها على حركة مطلقة لا غرض لها ولا غاية ، ولولا تقسيم
الإنسان لمدارها ، واتخاذ حركتها مقياساً لأعماله ، لما دلت هي على شيء . ثم
لا بد من وصاية الانسان على كل هذه الآلات ، وقيادتها وإمدادها بالقوة دائماً

والعمل على تنظيفها باستمرار وإلا لوقفت بعد قليل .

أين هذه التفاهات بما للإنسان (أو أى حيوان آخر) وأجهزته تعمل دائبة بدون احتياج إلى وصاية ، أو رقابة ، أو معونة من أحد ، وتعمل كل ما يلزم لحركتها من إمداد بالقوة ، أو تنظيف من الخبث .

ثم فيها المقاييس التى تنبه صاحبها إلى الحاجة إلى الزاد مثلاً أو الماء أو النوم أو الراحة ، وتحكم عليه أن يفعل لها ما يلزم لها ، وإذا اتجه بسائق من نفسه عرف إلى أين يتجه ، ووجد الأعضاء التى تنقله إلى غرضه ، والخواس التى تكشف له الغرض ، وقوى التمييز التى توقفه عليه هو بالذات دون سواه . وإذا كان الحصول على الحاجة يحتاج إلى حيلة ومعالجة رأيت عرف كيف يقوم بها ليحصل على حاجته بنجاح .

والكلام يطول لو تناولنا كل جهاز مما أنعم على الإنسان به ، وكل حاسة وكل جارحة ، وحاولنا الكشف عما فى عمل كل منها من مقدرة لا تسارى ولا تلحق . وحسبى أن أذكر كلمة قيمة للعالم الفيلسوف النابغة غوستاف لوبون قالها عن أحقر شيء فى الأحياء تتصوره هو الأبنى الذرية ووصف عملها بأعظم وصف يمكن أن يوصف به كائن عامل . قال فى كتابه الآراء والمعتقدات ص ٤٩ : « تأتى البنى الذرية التى تصنع الخليات بأعمال نظامية لا نقدر على الاتيان بمثلها ، ولا بمثل هو دونها فى مختبراتنا . . . وسيعتبر العالم الذى يستطيع أن يحلل بذكائه وسعة عقله ما تقدر أحقر الموجودات على تحليله كإله لسموه على باقى البشر ، .

هذا والعجيب أن جهة العطاء السكرية هذه التى تمتد الإنسان بالأعضاء ،

تجعل عطاها متدرّجاً بحسب الحاجة أولاً فأول ، فالطفل ينزل ولا أسنان له ، لأنه لا حاجة إليها ، وعند نزوله ينزل اللبن الذي سيغذيه إلى ثدى أمه كأنهما على ميعاد ؛ ويكون اللبن في أول عهده غير مشتمل على المواد اللشوية التي لا يحتاج إليها الطفل في هذا الوقت ، لذلك يرجأ نثوء الغدة التي تساعد على هضم تلك المواد التي لم توجد ، حتى إذا شب الطفل قليلاً ، وصار محتاجاً إلى تلك المواد تنأت تلك الغدة وصار اللبن يشتمل عليها منذ الساعة ، ولا يزال اللبن متدرجاً في الدّسم شيئاً فشيئاً حسب نمو الطفل واحتياجاته ، حتى إذا صار اللبن غير كاف في التغذية نبتت الأسنان للطفل استعداداً للغذاء الثاني .

بالله : هل التدرج بالعطاء إلاحكمة ، والشعور بالحاجة المستجدة ثم تقديم ما يلزم لها هو بالذات إلاحدراك وعقل بل وتدير أيضاً ، ثم العمل على معالجة الحاجات بما يسدها جميعاً ، لا يترك حاجة تتطلب علاجها فلا تجد ، ولا يأتي بعلاج للحاجة لم توجد ، أوليس ذلك هو كل ما نعرفه كآثر من آثار التمييز والإدراك والتدير والقصد والحكمة ؟ .

إذاً كيف يتأتى أن تأتي هذه الأشياء من غير ماموجود متصف بهذه الصفات يهمن على عملية إعطاء وصياغة الادوات اللازمة أولاً بأول حسب الاحتياج إليها ؟ إن الأمر يحتم الاعتراف بوجوده رأيناه أم لم نره ، فقد دلت آثاره عليه قاطعة ناطقة بصفاته ، شاهدة برحمته ، معلنة أنه يستحق قبلنا الشكر والثناء وإلا ما كان هذا الذي يكون يكون .

ثم إنك ترى الاعضاء تختلف باختلاف ما يلزم لكل حيوان حسب

ما تتطلب البيئة ونوع المعيشة ، أى أن ناحية الإبداع هذه تراعى ما يناسب كلا فلا تخطئ ، فالإنسان إذا كان كما رأينا فإن الحيوان المائى كالسمك مزود بالخياشيم التى تمكنه من استنشاق الهواء من الماء ، الأمر الذى نعجز نحن عنه ويعجز عنه كل حيوان برى ، قدزود بمؤهلات الحياة البرية ، وزود السمك كذلك بنفاخات تمكنه من الصعود إلى طبقات الماء العليا والغوص فى أعماقه بحالة يروق وصفها وكان نظام جسمه لائقاً للحركة فى الماء ، الأمر الذى اقتضى أن تبنى السفن على نظامه لانه أحسن نظام ، ثم الزعانف التى تحركه والذيل الذى يوجهه وكل هذه قد روعيت فى صنع السفينة وعمليات مثلها لها ؛ وكان الطائر مزوداً بالاجنحة والريش ، ونظام جسمه مناسباً للجو ، وقد حاكاه فى ذلك صانعو الطائرات ، ولو حظ كذلك أن يكون الطائر بجوفة عظامه لتكون خفيفة .

وإذا كان الطائر سابحاً ، كالوز ، زود بغشاء جلدى بين أصابعه ليعينه على السباحة وكانت أصول الريش بها مادة زيتية تمنع نفوذ الماء .

والاسماك فى أعماق المحيطات حيث الجو عتمة لا ضوء فيه على الإطلاق ترى الاسماك مزودة بجهاز ضوئى تسرجه وقت ما يلزم لها ذلك ، وتتفاهم مع نوعها بهذه اللغة الضوئية وترى اسماكاً من هذه الاحياء البحرية الموجودة ثم - نرى خاص من الضوء ؛ حتى لا يختلط الأمر على هذه الاحياء .

فهل علمت ما فى كل ذلك من الفضل والانعام ، والتدبير ، وما ذكر إن هو إلا أمثلة من دنيا تسير هذا المسار ، وتوغل فى هذا الباب .

ثم النباتات هى الاخرى لها ضروب من العناية وأساليب من الحكمة

تناسب مع كل نوع وتختلف باختلاف كل نوع ، وكلها معمول معه حساب أن تؤدي وظائف الحياة العامة من تغذية وهضم وتمثيل وهكذا .

فالنبات مثلاً يحتاج إلى التغذية ولا بد له من هضمها ، لذلك أعدت له

المعدة التي تفعل ذلك - أعدت له الاوراق لهضم الطعام ، وهيئت المسالك التي

يسير فيها الغذاء من الجذر حتى الاوراق التي سيهضم فيها ، وهيئت له مسالك أخرى

يعود فيها الغذاء إلى جهات الشجرة بعد الهضم ليغذيها ، وصار النظام بحيث يسير

الغذاء صاعداً ونازلاً في الطريق المقرر المرسوم ؛ لا يحيد عنه أبداً ، وتقوم

الاوراق كذلك بعملية استنشاق الهواء ، ونضح الماء الزائد وهكذا ، ويحتاج

النبات إلى التناسل وقد علمت شيئاً من الحيلة حتى يتم أمر التلقيح وهكذا .

والكلام كثير ولا يستطيع أن أعدد كل شيء ، وحسب المستدل أن يذكر

من الشواهد والأمثلة ما يوضح غرضه ويقوى حجته ، وليس عليه بعد

ذلك شيء .

والغرض الذي انتهينا إليه هو أن أي نوع من أنواع الحيوانات أو

النبات ننأمله ونجمل النظر في أنحائه ، نراه مهياً لنوع معيشته تماماً ، مزوداً

بكل ما يعينه على أمره من الأعضاء والحواسي والشئون الأخرى . مختلفة هذه

الاشياء باختلاف كل نوع لتناسب مصلحته الخاصة به دون سواها ، قائمة

أعضاء كل نوع بما نيط بها تماماً وبدون عجز أو خطأ . أليس ذلك يدل على عناية

حقة وإفضال أكيد كما يدل على إدراك : ذلك الذي استشعر الحاجة ، وتدير

دبر لسيرها ؛ واقتدار جعل ما قدمه يقوم بالغرض فعلاً .

هذه هي الصفات التي دلّ عليها الفعل ، وتطلب إتمامه فاعلامتصفاً بها حتماً

فهل للمصادفة العمياء أى دخل هنا أو القوضى التى لا غرض لها ؟ كلا !
تلك صفات اللطيف الخبير .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الدليل فقال : « والله أخرجكم من
بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة
اعلمكم تشكرون » .

ج - للانسان كل ما فى الارض وهو خليفة لله فيها :

أردت بهذا الفصل بعد كل ما سبق أن أبين أنه ليس الغذاء
والماء والهواء الخ هو كل ما خلق للإنسان فى الأرض ، بل كل ما
فيها خلق له ووجد من أجله وهيء بحيث يناسبه ويسد حاجاته .
وأن معدات الحياة التى مرت ليست كل ما مُنح للانسان ،
بل منح معها غرائز عالية ، ومواهب سامية ، تمكنه من امتلاك
ناصرية السكون والسيطرة على كل ما فيه وتسخيره لصالحه ، قال
بذلك حتى العلماء الطبيعيون أنفسهم ، قال الاستاذ ميخائيل فوستر
الفسولوجى فى خطبة ألقاها فى رياسته لمجمع ترقية العلوم
البريطانى فى عام ١٨٩٩ بعنوان (العلم فى مائة عام) : إن كل ما نتج
عن العلم نتج عن سيادة الانسان على الطبيعة ، وقال : « إن الطبيعة
تناجينا دواماً لتكاشفنا بأسرارها ، ولو بأصوات خفية ؛ وعلى
رجل العلم أن يسكون منتبهاً على الدوام إليها مستعداً أن يسمع

صوتها ولو كان ركزاً ، ويرى إشارتها ولو خفيت عن الابصار ،
وقال : « إن العلوم الطبيعية نفسها تلوم ذويها إذا قصرُوا نظرهم
على الطبيعة ، ولم يلتفتوا إلى أعمال الانسان وهو في نظرنا
محور الطبيعة ، (١) فأقول :

حينما اتجهت فكرة (ماركوفى) إلى استخدام الامواج اللاسلكية عبر
المحيط الاطلسى ؛ هبَّ العلماء العارفون ينصحون له بالعدول عن ذلك
ويخبرونه أن مجهوداته ونفقاته ستذهب ضياعاً لان سطح الارض محدب ،
ولان تلك الامواج تسير سيراً أفقياً - فالجهة التى يبغى إرسال اشارته اللاسلكية
اليها إذن يختلف مستواها عن مستوى محطة الإرسال نحو آمن مائة ميل .

لم يكن كلام العلماء وهما - فتلك الامواج تسير أفقياً ولا شك ، وسطح
الارض محدب كما قالوا ، ولكن الذى غاب عنهم ؛ أن تلك الامواج - ربما
ستجد ما يردها إلى الارض كأنها لها ، وكأنها مخلوقة لمن فيها (٢) . وشاء الله
وسار ماركوفى فى طريقه قدما - ويانعم ما فعل . حتى وصلت إشارته وكل
بجوده بالتجاح ، وكان لنا بفضل ذلك الاقدام والتفاؤل ؛ تلك القوة العظيمة
التي ننعم بها فى الاذاعة ؛ وفى الاغاثة ، وفى إرسال الانباء إلى جميع جهات
الارض لحظة خروجها من فم قائمها . وهكذا .

(١) كتاب (العلم والعمران) للاستاذ فؤاد صروف

(٢) أجرى ماركوفى التجربة سنة ١٩٠١ ، وقد عثر العلماء على العامل الكونى الذى رد أمواج
ماركوفى عن انبجائها الا فى التسير مع منحدر الارض سنة ١٩٢٥ - وهو (دنار الارض
الكهر بائى) والغريب أنهم وجدوا الدنار ممتدداً بتعدد حالة الامواج طولاً وقصراً
بتأمل التباير - الشواهد من كتاب (آفاق العلم الحديث) للاستاذ فؤاد صروف .

وحينما تقدم (داينى) إلى (الغاز الضحاك) يبغى معرفة خصائصه - استنشقه على سبيل الاختبار ، ليعرف مفعوله فى الأحياء ، والظروف السعيدة التى كانت لنا فى هذا الحادث أن ضرره فى ذلك الوقت كان يؤلمه ، فما أن استنشق الغاز المذكور حتى رآه قد سكن ألمه كأنه قد شفاه ، فعلم فى الحال الأمور التى ينفع فى مثلها التركيب الجديد: وهكذا - وفق هذا العالم ووفق العلماء من بعده إلى هذه المخدرات التى هى رحمة فى الجراحة ، وأمل كبير فى يد الجراح ، ونجاة للرضى من أخطار وآلام كانت تؤدى بهم فى كثير من الأحوال .

وحينما اكتشف (رنتجن) أشعته المعروفة ، وعرفت خصائصها العجيبة ، وجدنا فى الحال النواحي الهامة التى ستنتفع فيها ، والتى كانت ستتعطل إن لم تكن ووجدنا النقص الذى كان سيستمر فى حياتنا حتى تسده ، وقل مثل ذلك فى قوى الكهرباء والمغناطيس والبخار ، وما كان لها من مواضع هامة فى حياتنا وضرورات كانت ستبقى لنا ، بإلحاحها حتى نجدها ، وكنا سنبقى نعانى المشاق والآلام حتى نرحم منها بفضلك .

هذه الأشياء مخلوقة لنا ولا شك ؛ وإلا فلماذا لا تظهر إلا والموضع الذى ستشغله من حياتنا يكون موجوداً ، والفراغ الذى ستسده لا يسد إلا بها ثم لماذا هى مهياة لتلك الأمور تماماً ؟

استحضر فى ذهنك ما اكتشف حتى الآن ، وتدبر هل كان إلا تيسيراً لمواصلتنا أو تسهلاً للتخاطب فيما بيننا أو تقوية لحواسنا - فصرنا نبصر الميكروب ونرى أبصارنا إلى ما وراء المجرة - أو محارباً لأمراضنا وما يضاعفنا

من آفات الزرع ، أو نقص الغلة ، أو تحسين الجو - أو تسديداً لأذهاننا في سبيل السياسة أو القضاء ، أو كشف الجرائم ومعميات التحقيق ، أو معيناً لنا على الدقة في وزن الاشياء وتقديرها ، ومعرفة الغث والسمين منها .

أى شيء من هذه الاشياء ، بالله دخیل علينا ؟ بل أى شيء منها كان فضولاً وسرفاً ، بل أى شيء منها لم يكن رحمة لنا من المشاق التي كننا نعانيها ، ونعمة وفضلاً سبق لنا على يدها .

ولكن ما الذى دفع الانسان في غيابات هذا الطريق المجهول المبارك ؟ لاشيء إلا أن الانسان هكذا ينبغي ، هو مدفوع لذلك دفْعاً لا يستطيع رده . ولقد يعاني الانسان في هذا السبيل كل مشقة ، ويضطرب لكل صعب ، ويذوق كل مرّ ، ويلهو عن نفسه حتى يذكره بها من معه ، ويقسو عليها حتى يطلبون إليه أن يرحمها (١) .

ومع ذلك هو سائر في طريقه قدماً كأنه مسوق برقية ساحر ، ولا يكتي تعلم العقبات التي تصادفه قبل الوصول يكفي أن تسمع كلمة انشتين فقد قال إن ألف فرض قد تذهب هدراً قبل أن يصح فرض واحد ، فيالله من مدى هذا الصبر ومن التواء هذا الطريق .

(١) كان (لافوازييه) الكيمياء الشهير لا يقرب الطعام الهنيء ويقتصر على الجبذ واللبن توفيراً الوقت ، وكان يرهق نفسه في العمل حتى أشفق عليه أحد أصدقائه فكتب اليه يقول : (ان سنة واحدة تضاف الى عمرك ، خير لك من مائة سنة في ذاكرة البشر)

وكان (هرشل) الفلكي كثيراً ما يرفض أن يترك عمله ليأكل ، فتقف أخته بجانبه وتضع الطعام في فم وهو يعمل — تأخيراً من كتاب (أساطين العلم الحديث) للاستاذ فؤاد صروف .

ثم النوع البشرى مسوق إلى البحث في كل شيء يتناوله سمعه وبصره وكل شيء فيه - وإن لم يعرف لماذا هو يعمل .

كان (فراداي) وهو يُجرى تجاربه يقولون له : وماذا في ذلك يفيد ؟ فكان يقول : مهلاً - فقد يكون فيه ما يغني ؛ كان يقول بهذا الأسلوب الاحتمالي أو القاطع لا يعنيني ، هو كان يسير في طريق لا يعرف غايته الأخيرة ، وإلا لافصح عنها - وهذا ما يؤيد رأيي .

نعم هذا الجهل ليس على إطلاقه ، فهو على الأقل يعرف أنه سيكسب علماً وقد علم أن الثمرات مع العلم دائماً - فكان يسير يبغى المعرفة ويبغى الثمرة من أى وجه كان ، واثقاً مطمئن النفس إلى أن جهده لن يذهب ضياعاً - فكان منفعة الإنسان في نظره صارت في كل شيء يبحثه ، لذلك هو يلقي دلوه في أى بئر كالصيد يضع شصته في أى نهر ، يعتقد أنه حيثما كان ماء فثمت سمك ! - هل بعد ذلك دليل على أن هذا السكون للإنسان ! أقول : إن النوع البشرى مسوق إلى البحث في كل شيء حتى لو كشف لك عن أمر الباسا حشين لو وجدت عجباً .

هذا يبحث في السماء ، وذاك يقاب في التربة ، وآخر يغوص في الاحافير وغيره يدرس في الجوالخ ، ثم ما يبذل من الجهد هو فوق ما نتصور وناهيك بقوم يُعنون حتى بوزن النجوم ، وتقدير حجوماتها ، وقياس أبعادها ، وتسجيل حركاتها - ويريدون أن يعرفوا متى تتركب وعن الأرض ، ومن أين جاءت ، والنوع البشرى وإلى أى مدى تمتد سلسلته في الماضي ، والمحيطات وأعماقها والصحراوات ومدى اتساعها ؛ وأى شيء في جوف الأرض ، وماذا هنالك

وراء الشمس ؛ وأى شيء عند القمر .

ثم هم لا يكتفون بأى فكرة يذهب إليها البال ؟ كلا . بل لا بد أن يتحققوا ويستوثقوا ، ويدغدغوا أساليبهم يتحنون بها ما قالوه . وهل هو صحيح أو خطأ ويفنون فى هذا السبيل أعمارهم ، ولقد عمى منهم من عمى ، واحتترقت أطراف الكثيرين منهم ومع ذلك فكل شقاء فى حب ليلي محبب .

ماذا كانت نتيجة هذا البحث المضنى ؟

دعك من الخير المادى العميم والترف الناعم ، وما صار به الانسان على بيئة من أمره ، عليها بمنهاجه ، يتقلب على هدى ، ويرجع ظافراً ، ويحيا آمناً ، واليك كسبه الأدبى العظيم :-

صار يسير السفن على سطح المحيطات وهو فى يده ، ويوجه الطائرات فى أعالي الجو وهو على مكتبه ، وانمحت المسافات أمامه ، وزالت الكثافات عن عينيه ، فصار إذ يتكلم يسمع الدنيا ، وإذ يفتح عينيه يرى جهات الأرض وهو حيث هو .

واستخدم عليه وفنه فى الأعشى فصار بصيراً ، وفى الأصم فعاد سمياً ، وفى الشيخ فأصبح شاباً ، ولو استطاع أن يخلد فى الدنيا ، أو يحيى ميتاً يؤثره لكان ذلك غاية ما يتمنى ! ولكن كلا ! إن ذلك مما لم يعط مفتاحه . وسخر الآلات العاملة - فحملت أثقاله وهو مستريح ، واستنجزها أعماله وهو نائم وقطعت به المسافات وهو جالس ، واتخذ منها الحارس اليقظ الذى لا يغفل ، والحاسب الفطن الذى لا يخطئ - وعلى العموم صار المتصرف فى أقطار الأرض ، المؤمن على قوى السكون الجبار الذى إن شاء نسف الغاية وسبأها بحركة أصبع .

هكذا الانسان - صار بفضل العلم وتسخير النواميس له ، خليفة لله في الارض كما قال القرآن الكريم .

إذا الانسان كان سائراً في هذا الطريق المجهول ليتوَجَّع ! وكأ أنه كان يدري وإن لم يكن يدري - ولذلك ضحى بكل شيء .

٢ - دليل المشابهة

يعرف كل منا من المحيط الذي يذمأ فيه ، الأنواع الحيوانية والنباتية ، التي تكون من حوله ، فيعرف البقرة والجل ، ويعرف الحصان والشاة ، ويعرف النمل والنحل والغراب والحمام وهكذا :- كما يعرف القمح والذرة ، والقطن والكتان والارز والفول والبرسيم وهلم جرأ .

فإذا انتقل إلى بلد آخر لم يحتاج إلى من يعرفه هذه الأشياء لأنه يجدها هي نفسها التي رآها في بلده ، الصورة واحدة ، والملاح لاخلف فيها ، والمشخصات التي تميز كلا منها تامة عند الجميع - فيقوم يقول كما قال في بلده : هذا جمل وهذا حصان ، وهذا قمح ، وهذا ذرة - فما يرجع ولا يخطأ .

وتتناسل أمامه الاجيال تلو الاجيال ، فتأتي الذرية الجديدة ، حافظة للصورة الاصلية تماما ، وبدون أدنى فرق ، فما يحتاج إلى تغيير معلوماته الاولى لأنه لم يجد ما يستدعي ذلك .

إذا القوة الخلاقة تلتزم في إبراز هذه الانواع صوراً مقررة معروفة ،

لاتحديد عنها ، ولا تخرج عن نظامها أبداً - وهذا ما يتطلب منها يقظة المحاكاة ،
وانتباه المتمثل المحتذى (١) .

قد يعيث الإنسان بقلبه على الورق ؛ ويحرّكه لا يلتقي له بالآلة ، فينتج عن
ذلك شكل - وقد يكون متناسباً وذا بال - ولكن ليس معنى ذلك أنه يحركه
مرة أخرى بمثل هذا الإعراض فينتج نفس الشكل ؛ ذلك لا يكون أبداً ،
قد ينتج شكل آخر متناسب هو الآخر ، أو متناسب أكثر - ولكن إن يكن
هو هو لا يتأتى .

والرسام الزخرفي المتفنن قد يرسم الوحدة الأولى كيفما اتفق فتسكون
بديعة إذا كان ضليعا ، ولكن بعد ذلك يتعين عليه أن يحضر ذهنه ليحاكي
الوحدة التي نتجت ، فإن أعرض فقد أخطأ .

على ذلك يتعين علينا أن نعرف أن أنواع هذه المخلوقات الحيوانية
والنباتية وقد التزمت في تسلسلها وتواليها صوراً مقررة ونهجاً مرسوماً ، فهي
ناتجة عن قصد ، ونتيجة عن روية وحضور ذهن حتماً ولا سبيل إلى نسبتها
إلى المصادفة بأي حال .

ثم لعمري إن أمر المحاكاة يتطلب من اليقظة والانتباه أكثر مما تتصور
فإن أحدنا ليعرف القلب والرئة والسكبد مثلاً ، ويميز كلا منها على وجه قاطع
لا يحتمل من يشككه فيه ، ولكن ما أكثر ما يجده محتاجاً إليه إذا طلب منه
رسم هذه الأشياء ؛ إنه يرى نفسه محتاجاً إلى استحضارها في ذهنه ، ويطيل

(١) ان ذلك ما يتطلبه الفعل حسب مألوفنا . وان كان الله الذي ليس كمثلته شيء ليس لازماً
أن يعاني ما نعانيه في ذلك نحن البشرين - تعالى الله عن ذلك

التأمل ويطيله ، ويقدم ذاكرته المرة بعد المرة عساه يعرف الفروق الدقيقة التي أنسيها ، ثم قد لا يجد مناصا من الاعتراف بالعجز ؛ فيقوم يطلب هذه الأشياء ، ليعيد النظر إليها ، ويأخذ منها ويرسم رسمه ، وقد يطلب أن تظل أمامه حتى يفرغ .

فهل رأيت مقدار ما تتطلبه المحاكاة من فكر ، وإعمال روية . ثم لعمري إن ذلك كان في أنفه محسوسا كما هو زاد على رسم شكل بالقلم الرصاص أى رسم خط على الورق - فما بالك إذا طلب منك صوغ صورة من الصلصال مثلا غير مغفل ما فيها من أعضاء وأجهزة ومسالك هنا وهناك ، وحواس وهلم جراً ، ثم ما عساك ترى إذا ما تصورت الصورة الحيوانية المستحدثة التي تم صوغها على نسق فصائلها ، وتأملت أن الصياغة كانت كاملة لم تترك سنا ولا ظفراً ، ولم تضع حاسة في غير موضعها ، ولم تنس تزويد كل حاسة بما يلزم لها ، ولم تغفل أمر التناسب الجارى بين اليد واليد ، والرجل والرجل والأصابع بعضها مع بعض ، فقد صار ما لزم تماويه متساويا ، وما لزم اختلافه طولا أو سمنا مختلفا طولا وسمنا ، وقد تمت الأعضاء الداخلية جميعها والأجهزة قاطبة والمسالك التي تتجه هنا وهناك .

كل ذلك قد لوحظ ؛ وقد تم ، وقد وضع حيث ينبغي أن يوضع ، وقد صار شكله على النهج السائر في غير فرق - فماذا ترى من مقدرة وإبداع ؟ .

هذا - وإن هناك فروقا دقيقة بين فصائل الجنس الواحد في منتهى البساطة

ومع ذلك تراها لا تنسى ؛ ولا يغفل أمرها كذلك الفرق البسيط بين إناث البعوض وذكراتها (١) ، وكهذا الفرق بين الفراشة النهارية والفراشة (٢) الليلية فما هذه الدقة ، وما هذا الانتباه ، وما هذه اليقظة كلها .

وإن فعل تلك القرة العظيمة ليعجبك ويدهشك إذا تأملتته ، وكأنه يحاورك ويحول بينك وبين كل تأويل خاطيء في فهمه وتعليقه ، فأنت إذ ترى أفراد فصائل الأنواع تجري في تشككها ؛ على نظام واحد ، يسكاد يتجه خيالك أن هناك قوالب ، تخرج هذه الأشياء ، وتسكاد ترى أن ما أمامك بالعمل الآلى أشبه ، ولسكن ما يكاد هذا الخاطر يخامرك حتى تراه قد تبدد وتلاشى .

ذلك أن أفراد النوع البشرى بينهم الاختلاف كل الاختلاف ، فكل شكله وصورة وجهه بل ولونه وريحه أيضا ، وفروق كثيرة يعددها العلم ولما يستوعبها بعد ، حتى إن خطوط الأبهام عند كل فرد لا تتفق مع ما عند بقية الأفراد ، على كثرة ما برز إلى هذا العالم ، وبرز من ملايين ملايين هذا النوع ، فما أوسع الحيلة ، وما أوفى الاقتدار وما أعظم اليقظة والانتباه .

وإذا بدأت التفكير من هذه الناحية الاختلافية ؛ وكدت تقول ، إن عملا مرسلًا ما أراه ليس بذى قصد ولا تدبير أرغمك اتفاق ملايين أفراد النوع الواحد في نواح أخرى تدرج تحت مميزات النوع ومشخصاته فتعود تعترف بما أنكرته وتراجع نفسك فيما كان منها - ألما ترى في حديث الطبيعة إرشاداً وعلماً ؟ .

(١) القران في النهارية دقيقتان ينتهيان بعقدتين - ولكنهما عند الليلة أغاظ وطرهما مدب

(٢) تعرف أنثى البعوض بتجويز بسيط في الجناح ونقط دقيقة وللذكر شارب بلا حظ من

وإذا أردت التوفيق بين هذا الاختلاف ، وذاك الاتفاق على نحو من التعليل الصائب الرشيد ، فقد وقفت على فن عال من المصلحة والحكمة والعناية بهذا السكون ومن فيه ، وما فيه - فتبارك الله أحسن الخالقين .

إننا نعلم أن الجيل الجديد أصله إما بذرة نباتية ، أو بيضة مثلاً ، أو جرثومة منوية ، ولو كان العلم الذي لا يفتر عن البحث والتنقيب ، ومحاولة الوقوف على كل سر ، وإرادة فض كل ختم ، وإزالة كل حجاب ، لو كان هذا العلم وهو يطل على مكنون هذه الأصول يريد اكتشافها ، قد رأى صورة مصغرة للجيل الجديد ، تامة الخلقة ، جاهزة التشكيل . إذاً لكان الأمر جدياً ، ولـكان أقل مما هو أهمية وخطراً ، ولـسكن لا ويا للعجب ! . إن هذه الصورة تنشأ بإنشاء ، ويجرى بناؤها من جديد ، تجد العامل البنائي الدائب ، ذى الفطنة والذكاء ، يقوم ببناء الصورة المزمعة ، نباتية أو حيوانية ، من وحدات أولية حية تسمى الخلايا ، هى بلبينات البناء أشبه ، وهى من الصغر بحيث الملايين منها تحمل على سن إبرة ، وهى تستمد كثرتها اللازمة للبناء من الانقسام ، فالخلية تنقسم فتصير خليتين ، والخلية تنقسمان فتصيران أربعة ، ويوضع الأساس البنائي ، من الخلية الأولى ، وما يتكاثر يأخذ مكانه بجوار صاحبه وهكذا .

فكأن العامل البنائي تعدأفراده بالملايين ، وكأن بين الجميع تفاهم واتصال ففكرى ، فإذا وصلت خلية إلى طرف الصورة التى يجرى بناؤها كفت عن العمل ، كأنها تعلم أن الامتداد ينبغى ألا يزيد عما هو . وإذا وصل البناء إلى

فجوة يذبحى أن 'تتخطى لأنها مسلك مثلاً ، تركت المكان خالياً لا يملأ ، وإذا كان مكانا لعصب أو ظفر أو عظم أو جلد تلونت الخلية وتسكيفة حتى تصير من المادة اللازمة . ووضعت ما يلزم هو بالذات دون سواه ولا تزال تبني من جنسه حتى يتم المدى المراد لا تزيد ولا تنقص عنه . وبذلك تتم الصورة المزمع تصورها على النحو الذى يجب أن تشكل عليه . فتكون ورقة القطن كقافية ، وورقة النخلة ريشية ، وورقة اللبخ شفعية وورقة الفلفل (المستكى) وترية وورقة الكافور خنجرية وهكذا .

وتكون الاوراق بها المسالك والأعصاب ، على النظام الذى لكل هو نفسه لا يختلف . وإذا كان البناء فى الجذر أو الساق أو الثمر كانت الخلايا من نفس النوع الذى يلزم ، وكان تراصها وتجمعها بحيث تكون الصورة التى تلزم هى نفسها التى تكون بدون خلف وبدون سهو أو خطأ .

هذا هو العمل السكونى الدائب ومنه ترى ما فيه من نظام وعقل وتدير ويقظة واقتدار .

أليس من يعنى عنه هو أعمى قلباً وقالباً ، ومن يقل مع ذلك ، وبالرغم من كل ذلك بالصدفة وما إليها ، هو مجنون لا أكثر ولا أقل - لعمر الحق ليس من وصف يناسبه إلا هو .

واقدر أشار القرآن الكريم إلى هذا الدليل الصارخ الذى يشير إلى وجود الخالق سبحانه فى غير ريب ، ويدل على آثار صنعه وتديره واقتداره فقال : (سبح اسم ربك الاعلى الذى خلق فسوى) ، وقال : (يا أيها الانسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك) .

فالتسوية هنا تعديل الصورة واستكمالها حتى تكون ملائمة لحال خاصة ، أو مشابهة لنظام مقرر سبق .

٣- دليل الضبط والتقدير الكونى

من الامور المقررة فى العلوم الطبيعية ، والتي صارت فى نظر العلماء الطبيعيين من الصحة بحيث لا ينبغي أن يمارى فيها ، ما يأتى :

١ - إن العناصر المادية التى يتألف منها كل ما فى الكون مكون كل منها من جواهر فردية غير متلاصقة متساوية حجماً ووزناً .

٢ - إن بين هذه الجواهر من كل ناحية فراغاً يسمى (المسام) متساوياً بمعنى أن الفراغ الذى بين هذا الجوهر والذى يليه ، هو قدر الفراغ الذى بين ذاك الجوهر والذى يليه وهكذا - إلى آخر جوهر يكون .

٣ - اختلاف الوزن الجوهري فى كل عنصر عنه فى أى عنصر آخر ، وعلى ذلك فالوزن الجوهري للحديد ، غيره للنجاس ، غيره للذهب ، غيره للاكسجين ، غيره للزئبق وهكذا .

لا أستطيع أن أتصور أن ذلك يأتى مصادفة أبداً ولا بد لى يتم من ملاحظة وتقدير وقصد حتما حتى يكون - لا بد من ملاحظة وتقدير عند تكوين الجواهر الثانى حتى يكون كالجواهر الاول وحتى يشيع هذا التقدير فى جميع الجواهر التى إن تعدها بالملايين يجهدك العدة حتى تضنى - ثم لا تكون قد فعلت شيئاً يذكر - وإلا فكيف جاء هذا التساوى بينها حجماً ووزناً ؟ .

إننى إذا دخلت مكانا ما فوجدت قطعاً من السكر مثلاً أو الصابون متساوية (١) فى الحجم بدرجة لا أضبط منها ، وكنت إذ أزن أى قطعة أجد وزنها مثل باقى القطع فى غير اختلال ، فأتى لا أستطيع أن أتصور أنها جاءت هكذا مصادفة قطعت كيفما اتفق فكان الحجم متساوياً بين ملايين ملايين القطع وكذلك كان الوزن أيضاً .

ذكروا أن شخصاً تراهن مع آخر على أمر قد قرّراه ، وكان جعل الرهان قاسياً جداً ، هو اقتطاع رطل من جسمه إن خسر الرهان ، وشاء الله وأخفق صاحبنا ؛ فتعسّين عليه بذل ذلك الأمر الذى لا يُبذل ، ولكن غريمه كان من القوة والجاه بحيث لو رام انتزاع روحه لا يدفع ، فلم يكن أمام صاحبنا إلا الضراعة والاستعطاف ؛ فلم يُغن ذلك عنه ، وأبى غريمه إلا أن يأخذ ما اتفقا عليه ! فاستمهل إلى الغد حتى يرتب شأنه لجواز أن تكون القاضية فأمهله .

فلجأ إلى رجل من العقلاء الأكياس ذوى السطوة يستشير ، ويلتمس عنده الحيلة للخلاص ، فقال له : ما عليك - سأكون معك عند تنفيذ الرهان وثق أنك لن تصاب بسوء .

وجاء الموعد وتقدم ذلك الواسطة الرحيم للكلام فقال : إننى جئت

(١) ان التساوى النسبي بين قطع الصابون التى تراها ، وقطع السكر ، هو أمر متعمد ومعمول حسابه ، وجاء نتيجة تدبير . ان الفضل فيه للعجينة الأولية ذات القوام الخاص . ذى المقادير المقدرة المضبوطة ، وللقوالب المحدودة المتساوية التى تسكب فيها فتأتى القطع متساوية - فلا شيء هنا جاءت المصادفة به .

بغير يـمك لتأخذ حـقـك منه ، ولسـكن على شرط أن تأخذـه دفعة واحدة ، فحسبه
شقاء ما سـيلاقى ، وأقسم بالله والحضور شهود على قسمي ، والجميع يعلمون أني
قادر على أن أبرّ به ، لئن أخذت أكثر من حـقـك لأخذن من جسمك بقدر
الزيادة ؛ ولئن أخذت أقل من حـقـك لأكلن من جسمك حتى يكمل ؛
وأسقط في يد ذلك الغاشم الظالم ، وعلم أنه واقع لا محالة ؛ لأن اقتطاع قطعة
ذات قدر محدود ، دفعة واحدة وبدون تعقيب ، ليس بما يمكن ، فراجع ،
ثم تنازل وأثر الخلاص .

وسواء أكانت هذه القصة حقيقية أو خيالية ، فالعبرة فيها ظاهرة وهي
تتصل بموضوعنا .

هـب أن هذه الجواهر مـكوـنة من أشياء أصغر منها أو مقطعة من
هيكل عمومي كبير . فالتقدير والملاحظة لا بد منهما في الحـالين ، لا بد من
ملاحظة الاقتصار على الأجزاء المطلوبة التي تكون القدر المراد ، لا تزيد
عليه ، ولا بد من ملاحظة استيفاء الأجزاء كلها حتى لا يكون الجوهر ناقصاً
عن سواه ، ثم السير على هذا النحو في التقدير والملاحظة طيلة ما كانت عملية
تكوين الجواهر جارية ، وذلك أمر يعسر استيعابه ، وقل مثل ذلك في
الاحتمال الثاني .

ولعل قائلاً يقول : لم لا تكون هذه الجواهر هي هكذا بهذا الحجم
والوزن بحيث لا يتصور أن تكون بغير هذه الحالة ، لأنها لم تكن بغيرها
ولن تكون وأن هذا الوصف لها ، والتقدير في الحجم والوزن هو وصفها
الطبيعي الذي لا يتخلف . ؟

نقول إن ذلك كان يمكن أن يقال قبل تبين تحال المادة وتلاشيها ، وقبل أن يتبين أمر تحويل العناصر بعضها إلى بعض ، وفكرة أن الجواهر متحوّلة عن الإيدروجين ، فكأن الإيدروجين كان أصلها جميعاً وجواهره أساساً لجواهرها قاطبة ، فتضاعفت الجواهر قليلا حتى صارت هليوماً مثلاً ، وصار هذا التقدير ، ولو حظ دائماً في تكوين جواهر الهيليوم قاطبة ، ثم تضاعفت الجواهر أكثر حتى صارت ليثيوماً ، واستمر هذا التقدير بهذه النسبة في عموم العنصر الجديد وهكذا ، وقل مثل ذلك في تكوين العناصر الأخرى : ذهباً وحديداً ، ورصاصاً وهلم جرأ .

ثم إن تساوى المسام بين كل الجواهر في عموم النوع هو أمر يدعو إلى الاعتبار والعجب ، ويحتم الاعتراف بالقصد الذى دل عليه الفعل ، لأن هذا النظام والضبط لا يتأتى إلا مقصوداً ، ويحتم علينا الاعتراف باليقظة والانتباه التى صاحبت الفعل حتى جاء هكذا منتظماً مضبوطاً : المسافات المسامية بين الجواهر متساوية دائماً ومقدرة تقديراً واحداً دائماً ، والنظام سائر شامل فلا خلف ولا فوضى .

إن نظام المسام هذا ، والجواهر المسادية بينها هو كما إذ تطل على ساحة واسعة قد رُصّت في أنحائها كرات على أبعاد متساوية ، بحيث كان البعد بين هذه الكرة والى على يمينها ، مثل البعد الذى على يسارها تماماً وبمنتهى الدقة والضبط ؛ وهو مثل البعد الذى فى شرقها ، وهو كذلك مثل البعد الذى فى غربها ، وهذا النظام وهذا التقدير جار دائماً بين الكرات المترابطة كلها وهى آلاف مؤلفة وملايين وبلايين البلايين إلخ ما فى طاقة الحاسب من قدرة عددية على الشمول والاستيعاب

إن الاعتراف بذلك بديهي يحس الانسان بصحته في الحال ، فمحاولة الشرح فيه أكثر يعتبر عبثا .

ثم من جهة أخرى - فما دامت هذه الأوزان العنصرية مختلفة بعضها عن بعض في عموم العناصر التي عرفت حتى اليوم بحيث لا نجد عنصراً قد صارت أوزانه مثل ما كان لعنصر آخر - فذلك أمر يحتاج إلى يقظة وانتباه كذلك لأن المدبر وقد أثر الخلف بينها سيراعى أن تكون الأوزان الجديدة مختلفة عما صار لغيرها ، وذلك يقتضى أن يلاحظ ما فات دائماً ، ويعي أقداره ليخالفها باستمرار ، وعند كل عنصر جديد ، وإلا لوقع الاتفاق الذي لا يريد .

فقد بان لك أنه ما من شيء في هذه الدنيا إلا وهو يحمل في صميمه وكيانه الحجة على بارئه ، وينادى به سبحانه بشكل ظاهر وبجائته المجردة بقطع النظر عن وظيفته أو عمله السكوني .

هو يدل على الخالق ويحمل الحجة على وجوده صغر أو كبر ، وجل أو هان حتى حبة الرمل ، ونباتة الحجر ورذاذ الماء ، والغبار المحمولة على جناح الريح ، والحصاة الملقاة في مدارج الطريق - تدل كل هذه الاشياء عليه ، وتنطق بدليها واضحا جلليا كما تدل عليه عجائب السموات العلا .

ولقد صار لنا بفضل هذا التقدير الاولى العجيب في مواد السكون من المنافع **الكثير** .

صرنا بفضل هذا التوافق البديع الجاري في عموم النوع - أننا إذ ندرس
أى جزء من أجزاء العنصر نـسـكـون كـأنـا قد درسنا العنصر جميعه ، ونعطى
أحكاما لما غاب عنا منه قياسا على ما شاهدناه فيما أمامنا - فما نخطئ ، وانفتح
الباب أمام الذهن لاستنتاجات بعيدة المدى - فنستطيع ، وقد عرفنا حجم
الدرهم مثلا ، أن نعرف حجم الاقّة وحجم القنطار والقناطير ، وهكذا إلى
أبعد غاية .

وبفضل الاختلاف الذى بين كل نوع وآخر ، صارت لنا مقاييس نعرف
بها سمات الاشياء نلجأ إليها عند الاشتباه كما فعل (أرشميدس) .
واتسعت أمام الإنسان وجوه الانتفاع بهذه الاشياء أكثر وأكثر -
فأحيانا يحتاج الإنسان إلى ما كان أكثر ثقلا من المواد أو ما كان أكثر خفة
منها فيجد من ذلك ما يريد .

واستطاع أن يعرف الاوزان النوعية لكل منها ، ويقارن بينها ويتخذ لنفسه
من ذلك ضوابط وقواعد بعيدة المدى ، عظيمة القيمة ، واستطاعنا أن نعرف
للأشياء أقداراً نحدد بها ونعينها ، ونستطيع التعبير عنها ، فيأخذ البعض عن
البعض ما توصل إليه من نتائج البحث ، بحالة مضبوطة ، لا يتطرق الخلل إليها .
صرنا نعرف كيف نركب الادوية والاصباغ والادهان والروائح وهكذا
نعرف لا نفسنا نظاما في ذلك نقيده فلا نغساه ، ونرشد إليه من يريد فيعرفه
هو نفسه بدون خطأ

إنه لما كان لا يمكن أن يسير الإنسان على هدى في تقدير الاشياء ،
وتحديد أقدارها ، والانتقال من هذه الاقدار إلى مضاعفاتها أو أجزاءها بحسب

ما تتطلب مصلحته - إنه لما كان ذلك لا يتأتى إلا إذا كان لمادّة هذه الأشياء وحدات أولية متساوية - فقد تعارف الناس واصطلحوا على وحدات أولية في الأمور المالية كالجنيه مثلاً ، والزمنية كالساعة ، وبفضل هذا التقدير المبدئي المتعارف ، المعروفة قيمته للجميع بدون خلاف ، فقد استقام الحساب وانفتح الباب أمام الحاسب في تقدير الأجور وتعيين الحقوق ، ومعرفة القيم المالية للمعامل في غير اشتباه أو خطأ ؛ وكذلك عرفت الشهور والسنون والقرون والدقائق والثواني ، وناهيك بفضل كل ذلك على البشر .

إن الإنسان لا يستطيع أن يتصور أى حال من الفوضى كان يصير إليها أمر الناس لو لم تكن عندهم هذه الضوابط المالية والزمنية ، وكل هذا الفضل الذى لا يُحَدّده ، إنما جاء بفضل التقدير الأولى للساعة مثلاً والجنيه وقل مثل ذلك فى الآلة واللاتر والمتر والارديب وهكذا .

ثم هذه المقاييس كلها ما كانت لتعمل ، ولا تستطيع أن تعمل لو لم يكن المجال الذى ستعمل فيه منتظماً من الأول ومتناسباً ومتسقاً بحيث يكون أوله كآخره بدون خلاف .

ثم هى نفسها لها مراجع أولية من عمل القوة الأزلية القادرة ، يرجع إليها الناس عند الاشتباه ، ليصححوا على أمرها المضبوط ما قد يقع فى مقاييسهم من خلل - أوليس الماء المقطر مثلاً أساساً للأوزان النوعية . ؟

ولقد صدق الذى قال : إنه لو لا انتظام أمور الكون ما أمكن وضع النظريات والقواعد .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الدليل فيما أشار إليه من الأدلة الكثيرة التي تنبه الذهن إلى تدبير العلي الحكيم ؛ وتقديره ؛ وعلو إفضاله ورحمته فقال :
(والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون)
أي مضبوط مقدر ، مضبوط مقدر في بنائه الهندسي العجيب ، مضبوط مقدر في تركيبه العنصري الدقيق ، مضبوط مقدر في جميع سماته وخصائصه بحيث يسير النبات على النهج المقرر لنوعه ، لا يحيد عنه أبداً ، مضبوط مقدر في مقدار كميته التي ظهر للوجود بها حتى جاء وفق الحاجة التي سيستخدمها لا فاضلا عنها ولا مقصراً وعلى هذا النحو في التقدير - الذي تُراعى فيه الحاجة التي سيستخدمها الشيء فيأتى بقدرها - الإشارة في آيات أخرى كقوله تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وقوله : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض وإننا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب . . الخ

نعم من يتدبر يجد في العطاء بعض الزيادة والفضل كما نرى في الأنهار ولها بواق تعود إلى البحر - ولسكنها الزيادة المطمئنة وبقدر ما تطمئن فقط لا تزيد على ذلك ولو لاها لانزعج الناس وتدافعوا في طلب الماء بل وتلاحوا وتقاتلوا ومن الضبط والتقدير نوع وجد لنترتب عليه هو نفسه مصلحة كما نرى الساعة وقد ربط الناس مصالحهم على سيرها - لا شيء إلا لضبط سيرها وتقدير حركتها فلم تسكن بالتي تسرع أو تبطل عما هي وإلى هذا النوع الإشارة بقوله تعالى : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » .

٤ - دليل الانسحاب

من الحقائق المقررة أن الانسان لا يعلم شيئاً من غير تعليم ، ولا يسير على هدى في أمر جديد لاعمد له به إلا بقائد يقوده ويسدد خطاه ، ويهديه سواء السبيل .

إن الطفل يخرج إلى الوجود لا يعلم شيئاً ، فيأخذ أهله وذروه بيده يصّرونه ويرشدونه - فيقرّلون له هذا يؤكل ، وهذا لا يؤكل وخذ ذاك ودع هذا فانه لا يليق وهكذا .

بل إنه هو نفسه ليراه في حاجة إلى مثال يحذيه ، وقدوة يقتدى بها فتري عينه معقودة بمن حوله ؛ يعمل ما يعملون ، وينصرف عما عنه ينصرفون ، ويتكلم بلغتهم ، ويتعود عاداتهم ، وهلم جرا .

فاذا شب الطفل عن الطوق ، وأراد أن يحوب آفاقاً جديدة في الحياة كزراعة أو تجارة أو صناعة فلا بد له من مرشد يريه الصواب والخطأ ، ويفيض عليه مما تعلمه من قبله ، ليستطيع أن يحصل على الخير الذي يبغيه ، ومن غير ذلك لا يحصل على ذلك الخير أبداً بل إن اخفاقه وخساره يكون محققاً . ثم إنه هو نفسه لأعقل من أن يسير في طريق مجهول وحده يتخبط ويتعثر لذلك تراه يطلب المعلم ويلتمس القائد ويتطلع هنا وهناك يبحث عن مثال يحذيه ويكثر من التسأل ليهتدى .

نعم إن الانسان قد يتلقى العلم والمعرفة من الامور نفسها ، فان الطفل إذا

غفل عنه ذروه ، ثم أقدم على النار فلمسها فإن هذا اللمس نفسه يعطيه درسا لا ينساه فيظل ذا كرا للذع النار دائما ؛ وبفضل هذه الذكري المؤلمة تراه يتحاشاها ويتبعد عنها .

والزارع والصانع إذا تمكن كل منهما من موضوعه وصار على بينة من أمره يستطيع أن يكتسب علماً جديداً من نفس المهنة التي يزاوها ، فيخالف المؤلف عامداً في قليل من الأمر لا يضيره أن يخسره ؛ وينتظر النتيجة ؛ فإن وجد خيراً أكثر مما اعتاد ؛ جرى عليه . وإن وجد سوءاً كان عليها به وبشرعه ومداه ، - وحسبه المعرفة كمباً . وهذا هو سبيل الابتكار وباب التزيد من المعرفة والعلم .

الإنسان إذا لا يسير على بينة من الأمر إلا بتعليم من الغير أو بإرشاد من التجربة .

إذا تقرر ذلك فأمر الإنسان عجيب :

يخرج الطفل من بطن أمه لا يعلم عن الدنيا شيئاً ، ولولا ضغط الهواء وحركة الحجاب الحاجز التي لا يد له فيها لما عرف كيف يتنفس ولمات لتوّه - واسكنك تراه - وبالله العجب - إذا لذعه الجوع يبكي وليس في بسكائه شيء . ذو بال - فإن هو إلا تعبير عن ألمه الذي أحسه من لذع الجوع .

إنما العجب في أن أمه إذا وضعت في فمها ثديها تراه يلتقمه ؛ وتراه يشفط بما فيه وتراه يزرد اللبن - كيف تعلم ذلك ؟ لا تدري

لعمري أن عملية الشفط هذه مخالفة لراحته ، ومعطلة لحركة التنفس التي لا بد منها ، والتي يتضايق إذا انقطعت عنه ، ريثما يشفط ، واسكنك تراه

يتحمل ذلك ويعمل هذا العمل ، وتراه يعرف كيف يعمل .

لو كان اللب ينزل في فمه من نفسه بمجرد وضع الشد في له ، لكان الامر نوعا ! وقلنا طفل امتلا فمه باللب فكاد يتعطل تنفسه الذي لا بد منه ، والذي لزاما عليه أن يتنفسه ، فتحتم عليه أن يزدرده ليخلي السبيل للتنفس أو ليتفرغ له . ولكن لا . وهذا هو موضع الاستغراب والدهشة ، وهذا ما يشير في نفوسنا العظة والاعتبار ويجعلنا نعتقد أن وراء الأمر سرأ .

ثم إنك ترى أن ما عمله هذا الطفل الموفق هو كل ما يعمل كل أطفال الدنيا في كل أدوار الزمن - ذلك إلهام ولا شك !

هو تعليم وإرشاد وتسييد من مصدر غيبي - وإلا فكيف عمل الطفل ؟

وترى الصبي إذ يشب عن الطوق ويأخذ في النضوج يتطلع إلى الاتي ، يميل إليها وينجذب نحوها بحالة جدية لها عليه سلطان ، فيتسامل ما هذا الذي به فلا يعدم جوابا . يجد الجواب من نفسه : إنها جميلة الوجه أو هيفاء القوام أو خفيفة الروح - وهذا خطأ ، فقد كانت وحالتها كما هي من قبل أن ينضج - فما باله لم يعرفها التفاتا ؟ ولماذا لم تكن محاسنها مما يشيره ويتبعثه ؟ - لاشأن له بالفلسفة والغوص وراء الغرض ، هو لا يريد إلا أن يطيل النظر إليها فيطيله ، ولا يريد إلا الحديث إليها فيحدثها - وما أشد حيرته إذ يرى الأمور قد أخلقت ظنه .

لقد كان يظن أن حاجته تنقضي بمجرد النظر والحديث - ولكن كلا - لقد تفتحت أمامه آفاق من الرغبة ، لاتسد حاجته إليها ، ولزاما عليه أن يستوفيه - هو يريد الاقتراب منها ، بل يريد الالتصاق بها ، وهنا يعلم أنه

الحب ، ويصف هذه الرغبات المحتشدة في نفسه نحوها ، بهذا الوصف الموجز الجامع .

يقوم صاحبنا الى نفسه ليفسك في شأنه ، ويهيء الوسائل التي تجعله يقضى مأربه من تلك التي ملكت نفسه وهيمنت على فؤاده - إما بطريق شرعى أو غير شرعى - لا يعينى - وإنما الذى أريده أنه يراه ملزماً ومسوقاً أن يفعل ذلك - ولا يستطيع الا أن يفعله - وكل ما يظن أنه مطلقاً لرغبته غير الامر الاخير المعروف ، إنما هو أوهام لا أساس لها من الصحة ، إنما هو استدراج لا أكثر ولا أقل ، وأطوار لا بد أن يستوفى قبل العمل الاخير .

يمضى الفتى في هذا الطريق الجديد عليه ، المجهول له بجهلته ، مسوقاً لا يستطيع أن يتخلف ؛ مسدداً لا يضل ولا ينحرف حتى يقوم بالشأن الاخير كما ينبغي .

والعجيب أن أنشأه تقوم هي الأخرى بدورها الذى ينبغي أن تقوم به وتعرف ماذا يريد بها فيه ؛ وتعمله موفقة هي الأخرى ، ومسوقة هي الأخرى إليه ماذا ترى ؟ - ألسنا أمام سلطان غيبى قاهر ، وتعليم لا شك فيه ! تالله إن ذلك أمر لم يخرج عن إرادته ملك ولا سوقة ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا حضرى ولا بدوى ، وُربّ كثيرين ما كانوا يريدون الزواج ، وقرروا ألا يطلبوه ، وأن تكون حياتهم خلواً منه - ولكن غلبت إرادتهم أخيراً ، ونفذت مشيئة القوة الأزلية فيهم ، بالرغم عنهم ، ولقد كان الانسان فى أشد حالاته جهالة وضلالة - فى العصر الحجري وما ولىه من الظلمات ، يفعل هذا الامر بالحالة التي يعملها بها أعلم العلماء بنصها وفصلها ويشمر الثمرات الاخيرة

بعينها في غير ما نقص ، لان المرشد هو هو ، والقائد لم يتغير عند الجميع ، فلا بد أن تكون الخطة واحدة عند الجميع .

السائق ظاهر إذا ، والدليل لا شك فيه ، وكلا السائق والدليل يعملان لغاية عمرانية لا شك فيها ، هي إيجاد النسل وعمارة الدنيا وتلك الغاية لعمرى لا يد لنا فيها ، ولا تتعلق بها مشيئتنا ، ولا تؤثر فيها إيجاباً ولا سلباً ، فرب مر يد للنسل لا يصل إليه ، ورب كاره له متهرب منه يأتيه بالرغم عنه .

هل بعد ذلك شك في وجود الله ؟ هل يرتاب أحد بعد ذلك في وجود تقدير علوى ومشيئة أزلية ، قد رسيقت المخلوقات لتنفيذها ، وأرشدت في مجاهل السبل حتى نفذتها - وقد نفذتها فعلاً إن طوعاً وإن كرهاً ؟ ثم لعمرى لقد هيئت المسالك لهذه الغاية ، وأعدت الأسباب بحالة ظاهرة ملموسة لا يرتاب أحد فيها .

فأعضاء التناسل عند الذكر والأنثى تراها متوافقة متلائمة معمول في تهيئتها وتشكيلها حسب المهمة التي ستقوم بها ، والنتيجة التي ستترتب عليها - وما سيتبع ذلك من الاحداث المستقبلية حتى آخر حلقة من حلقاتها وهذا الميل الجنسى ، والتجارب العاطفية المتبادل بين الطرفين إن هر إلا وسيلة للتلاقى وإتمام الغاية ، ثم هذا التجاذب البادى بين الطرفين وجلبية الحب الظاهرة - إن هي لعمرى إلا صدئى - لما يجرى في داخلهما من تجاذب آخر واقع بين جرثومة الذكر المنوية وبويضة الأنثى .

إن المنى إذا اندفق ، خرجت منه الجرثومة التي كتب لها الفوز ، تمضى مسرعة لغايتها ، سابقة للملايين أخرى من الجراثيم المنوية قد عجزت عن أن تبلغ

شأوها ، ولا تزال هذه الجرثومة السابقة ، ماضية في سبيلها ، متجهة في وجهتها
لا تنحرف عنها ، باحثة عن غرضها لا تشغل عنه ، هو اللحاق ببويضة
للأنثى تكون هناك في جهازها ، واقفة تنتظر ضيفها ، كأنهما على موعد ،
ولا تزال تنتظره حتى تلقاه ، وبقدرة الخالق جل شأنه تعثر الجرثومة بتلك
البويضة ، تهتدي إليها برائحته خاصة لها كأنها تعرفها بها .

فاذا أحست البويضة بقدوم حبيبها الذي طال انتظارها له تهيأت لمقدمه
على النحو الآتي :-

تعتمد إلى كروموسوماتها الثمانية والأربعين فتتخلّص عن نصفها ، وتعتمد
الجرثومة كذلك إلى كروموسوماتها فتعمل بها مثل ما فعلت البويضة . وحينئذ
تتلاقيا فتندججا فيتألف منهما خلية واحدة ذات ثمان وأربعين كروموسوماً وهو
العدد المقرر لكل الخلايا الحية ، فكأن البويضة ما تجردت وانتقصت إلا
لعلمها أنها ستة تكامل من هذا الزائر الذي سيكملها ، والذي كانت تنتظره لهذا
الغرض ، وظلت متكاملة لا تبغى انتقاصا حتى جاء وحينئذ فعلت ، فليت شعري
هل بعد ذلك إلهام ، وهل بعد ذلك إرشاد ، وهل بعد ذلك تسديد .

ذلك ما يجري في داخلنا لآنحس به ، فهل رأيت كيف مسخرنا لإتمامه نحن
جميعاً ذكرانا وإناثاً ؟ وإذا تم هذا الزواج بين الجرثومة والبويضة ، وتألفت
الخلية الجديدة منهما يسكون المخلوق الجديد قد بدأ ، فتأخذ هذه الخلية في
الانقسام ، فتقسم وتنقسم ، ويتألف من هذا الانقسام خلايا حية لا عداد لها
هي لبنات البناء في ذلك المخلوق العتيد ، ولا يزال الأمر هكذا حتى يتكامل
وينزل إلى هذا الوجود .

هل لنا في هذا الأمر شيء ؟ بل هل لنا حتى في الأدوار الأولى التي
باشرواها ؟ كلا ، فزباً مريد للجماع لا يطيقه ، ورب صادف عنه يتحتم عليه
أن يأتيه .

وإذا نزل هذا المخلوق إلى الوجود - تجلت المشيئة الازلية مرة أخرى
وظهر لنا أننا مستخرون كذلك لخدمتها إن طوعا وإن كرهاً .
إن الطفل ينزل إلى الوجود ضعيفاً ، يحتاج إلى الرعاية ، فهل تتركه تلك
المشيئة الصمدانية الرحيمة لشأنه فيموت ؟ فتكون قد استولدت للبوت ،
وأقامت البناء لهدم ؟ كلا .

إنها وضعت في قلب الأبوين من الحنان والعطف ، ما يجعلهما يقومان
بكفالة الطفل كأحسن ما تكون الكفالة ، ويحتملان مشاقها وصعوباتها
برغبة وافتتان .

وإنك إن تجلس لتبحث ماذا يعني الام من طفلها ، وما بالها تحمله ولا
تتعب ، وتسهر من أجله ولا تضجر ، وتغفل شؤون نفسها لتعني بشأنه هو ،
وتضحى بكل مرتخص وغال في سبيل رعايته وإسعاده وراحته فانك لا تجد
تأويلاً لذلك إلا أنها مسخرة ولا بد أن تعمل ، ومأمورة ولا بد أن تطيع .
وإذا بحثت أمر هذا الوالد الفقير السكادح ، الذي قد عاد من عمله تعباً
ناصباً ما يسكاد يتماسك ضعفاً وإعياء - فمذ قد رأى صغاره - وهو يعلم أنهم
سيتأخذون معظم الاجر الذي تعب في تحصيله ، بل ولولا هم ماتعب هذا التعب
ولا شق كل هذا الشقاء - ما باله وقد زأهم - وشأنهم هو هذا الشأن - قد خف

تعبه واستبشرت نفسه ، وأخذ يقبلهم كأنهم قطعة من نفسه ، ويحتضنهم كأن
في احتضانهم برد فؤاده - ما بال هذا الامر هو هكذا - اللهم لانفسير لذلك
إلا أن الله غالب على أمره ؛ وأنه تعالى يسوق البشرية إلى تنفيذ مشيئته مقتضين .
لا أدري كيف جحد الجاحدون أمر هذه المشيئة الظاهرة ذات القصد
الاكيد ، والغاية المبيتة المحدودة ، ثم ما لها من سلطان يعمل لها ، وهداية ترشد
وتسدد الخطأ وتهدى السبيل ؟ وبالتالي كيف جحدوا صاحب هذه المشيئة
وغفلوا عن عنايته البادية ، وتديره الاكيد ؛ وما أعده من الوسائل لتتم المشيئة
والاسباب التي تجعل أمرها متحققاً ؟ .

أتراهم ينسبونهم للغريزة ، والطبيعة البشرية ؟ فالغريزة تسوق الانسان
حتمًا حتى تشبع ، وهي لا تشبع إلا بالاستفراغ ، ثم الاحساس نفسه هادٍ
يهدى صاحبه إلى الطريق الأليق ، الذي به يتم الاستفراغ ومن غيره لا يتم ؟
لعمري لو كانت هذه وجهتهم في التعاليل فما أعظم ما في نظرهم من قصور .
لو كان امتلاء الفنى بمادته المنوية يحتم عليه أن يلمس السبيل لاستفراغها كما
يفعل من حصر بالبول - لكان ينبغى أن يستريح ، ولا يصيبه أى ضرر إذا
تم له الاستفراغ على أى وجه ولو كان على الارض مثلاً .
ولسكن كلا . . .

إنه إذا استفرغ تلك المادة بغير الطريق المقرر المعروف - بأن كان
بالاستعناء مثلاً - تسوء حالته وتركبه الامراض وتكون النتيجة سيئة -
كما أثبتت التجارب ذلك ، وقال به علماء التناسل مجمعين .

وإذا لاعب الاني حتى استفرغ مادته بغير الإيلاج واستمر تسوء حالته

كذلك ، ولو أوج ثم استفرغ خارجا تسوء الحالة أيضا - فإذا بقي من دليل على أن قصد الطبيعة - كما يعبرون - أن يسكون الاستفراغ في أنثى وفي المكان المخصص منها ؟ ثم لماذا تشترك الانثى في الأمر لو كانت المسألة مسألة حصر بالمني كما تكون حصرا بالبول . ؟

ثم لعمري إن تلك التهيئة والاعداد في أعضاء كل من الذكر والانثى . والملاءمة في تفصيل الأعضاء حتى تناسب وتتوافق عند الطرفين .

ثم هذه الرغبة الملحة التي تحتم على كل جانب أن يبحث عن رفيقه . ثم هذا العمل الداخلي فيهما والتزاوج الجرثومي الذي يتم نتيجة لذلك - كل هذا يجعل القصد ظاهرا لا تنال منه تلك الأوهام ، والأمر واضحا متحققا بعيدا عن كل احتمال ، وتعجبني كلمة ذلك الباحث الذي قال : لو قلنا إن الكائن البشري الذكر قد تسكون بطريق من المصادفة فوق مستوى عقولنا فما ينبغي أن تعمل المصادفة له مخلوقا آخر أنثويا ، تكون أعضاؤه مفصلة داخليا وخارجيا حسب ما يتطلب ؛ وحسب ما تبتغي نفسيته وأعضاؤه ثم ما ينبغي أن يستخرج الطرفان لقضاء غرض لا يفسدان فيه يتحتم عليهما أن يقوموا به ، ثم ما ينبغي أن يتحملا المؤونات الأخيرة فيه ، ذات التكاليف الباهظة والمشاق التي لا تطاق ويتحملاها بصبر ورضى ، بل بسرور واغتياب كأن نظام السكرامية والحب قد انقلب .

نعم إنها الغريزة قد دفعت كلا الطرفين لعمل والإحساس قد هداهما لإحكام العمل ، ولكن الغريزة والإحساس ما وضعوا إلا ليفعلوا لهما ذلك فإذا في ذلك يريب !

ألسنا نعرف أن صانع الساعة يضع لها قطعة زهركية لتحركها وكل
مخترع آلة يضع لها من الوسائل ما به تعمل عملها - وما يضير الآلة أن يكون
بها ذلك ، وما يغض من شأن صانعها أنه قد فعل ، بل يزيد جلالا وشرفا .

* * * *

وإذا اتجهنا بموضوعنا جهة الحيوانات والطيور والحشرات نجد الإلهام
أظهر والأمر أعجب .

إن أحد هذه الكائنات يخرج إلى الوجود ، وبدون أى تقليد أو توجيه ،
تراه يعرف ما يأكله نوعه فيأكله ، ويعرف ما يصدف عنه فيصدف عنه ،
وتراه يتبع عادات فصيلته كلها في غير خلف ، فإن كان من نوع يحتضن بيضه
تراه يحتضن بيضه ، وإن كان من نوع يتركه ، تراه يتركه ، وإن كان من نوع يعيش
مجتمعا تراه لا يعيش إلا مجتمعا ، وإن كان مما يؤثر الأفراد تراه يؤثر الأفراد .
وإنك لو أدركت أيا من هذه شئت لأول عهده بالحياة ، ثم رايته بعيدا
عن أى شئ من نوعه يمكن أن يقلده ، فانه يتبع نظام فصيلته بحذافيره ويعمل
عاداته كلها في غير خلف - فليت شعري من أنباه أن أباه ذيب ! وقد يكون من
هذه العادات ، ما يقضى به الحزم لأمور مستقبله ، لم يعرفها ذلك الوليد بعد ،
ولا مرت به ، ولا أرشد إلى ما يلزم عمله استعدادا لها - ومع ذلك تراه يعملها
من نفسه ، ومن غير محاكاة أو تقليد ، ولا ندري لماذا ! ولا ندري كيف علم .
إن النمل يدخر من قوته في الصيف ، ليسكفيه في الشتاء حيث يستكن
لشدة البرد ، ولا يستطيع الخروج ، فإن تأخذ صغار النمل عقب خروجها من
بيضها ، وتبعدها عن محيطها ، فإنك تراها تدخر في الصيف كما يفعل نوعها

لفصل الشتاء ، الذى لم تسكن قد عرفته بعد .

بل قد يكون من هذه العادات ما يتطلب نظاما هندسيا خاصا أو هيئة مقررّة معروفة ، كما نرى فى مساكن بيوت النحل ذات الفتحات السداسية البديعة التى أثارت إعجاب الفنيين بدقتها ونظامها ؛ وكما نرى فى نسيج العنكبوت ذى الهيئة الخاصة المعروفة ، ومع ذلك تراك لو أخذت صغار النحل ؛ وصغار العنكبوت ، وربيتها بعيداً عن بيئتها ، وحرمتها من كل مثال تحتذيه ، أو قدوة تقتدى بها ، تراها قد فعلت فعل آبائها وبنت مسكنها كما يبينه نوعها تماما وبدون أى فرق .

بل مالنا نطلب إليك أن تدرك الصغار ، وتنتظر النتيجة ، وأمامنا من الأنواع ما لم ير أصلا له طول حياته - يمكن أن يتعلم منه ، ومع ذلك نراه يتبع النظام السائر فى فصيلته فى غير خلاف .

تكلم الاستاذ (ميلان ادوارد) فى جامعة السربون بفرنسا عن نوع من هذه الحيوانات يسمى (السيلوكوب) فقال : إن هذه الحيوانات التى تراها طائرة فى الربيع ، تعيش منفردة ، وتموت بعد أن تبويض مباشرة ، فلم ير صغارها أمهاتها ، ولا تعيش حتى ترى أولادها التى تكون على حالة ديدان لا أرجل لها ولا تستطيع حماية نفسها من أية عادية ، ولا الحصول على غذائها ، ومع ذلك حياتها تقتضى أن تعيش مدة سنة من الزمان فى مسكن مقفل وهدوء تام وإلا هلكت ، فترى الام متى حان وقت بيضها تعتمد إلى قطعه من الخشب فتحفر فيها سردابا طويلا ، فاذا أتمته على ما ينبغى ، أخذت فى جلب ذخيرة تسكني صغيرها سنة ، وتلك الذخيرة هى طلع الأزهار وبعض الأوراق

السكرية ففحشوها في قاع السرداب ، ثم تضع بيضة ، وتأتى بنشارة الخشب
تكوّن منها عجينة تجعلها سقفا على تلك البيضة ، ثم تأتى بذخيرة جديدة تضعها
فوق ذلك السقف ، ثم تضع بيضة أخرى وهكذا ، فتبنى بيتا مكونا من جملة
أدوار ، ثم تترك السكل وتموت ، ثم قال : يجب أن يدهش الإنسان لما يرى
حيال هذه المشاهدات الناطقة المتكررة رجالا يدعون لك أن كل هذه العجائب
الكونية ليست إلا نتائج الاتفاق (الصدفة) أو عبارة أخرى نتائج الخواص
العامة للمادة وأثر تلك الطبيعة التي تُكوّن مادة الخشب ومادة الاحجار ، إن
هذه الفروض الباطلة ، بل هذه الاضاليل التي يشترونها باسم العلم الحسى :
قد دحضها العلم الصحيح ، فإن الطبيعى لا يستطيع أن يعتقدها أبداً ، وإذا أطل
الإنسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة يسمع بغاية الجلاء
والوضوح صوت العناية الإلهية ترشد مخلوقاتها الى أصول أعمالها (١) .

والغريب - والموضوع كله غرابة إلا أن يفهم - أن هذه الكائنات الملهمة
تعالج شؤونها ، وتسير في عملها وفق حقائق علمية أكيدة كأنها علمية بها .

فترى أنثى البعوض ؛ وهى تمتص دم الإنسان تثقب الجسم ثم تضع في
الثقب بعضاً من لعابها فيهبج الدم فيقترب منها فتأخذ حاجتها منه .

ثم للآباب أيضاً مكيلة يتجمد الدم اذا لامسه الهواء - فيظل سائلا كما تهوى .
والزنبور وهو يعد غذاءه لصغاره المستقبلين يقهر الجدجد ثم يلدغه حيث
ينبغي فيبقى حياً فاقدًا وعيه كأنه لحم محفوظ . ولو أنه لدغه في مكان آخر أو

(١) من كتاب (على اطلال المذهب المادى) جزء أول للاستاذ الكبير العلامة محمد فريد

حقنه بكمية أكثر مما ينبغي لمات الجدد وترتب على ذلك موت صغاره - فان
لحمه ميتاً يقتلها .

هذا هو الالهام الجارى فهل علمت ! - ألا تراه يدل بغايته على قصده .
وبأهميته على رحمته ؛ وبسداده على تسديده ، وبتحيته على تصميمه وبكمال
الرضى به على سمو السياسة له .

ثم ألا تراه وقد حمل ملايين أفراد النوع فى مشارق الأرض ومغاربها
على اتباع نهج واحد وخطة مقررّة أنه هو نفسه واحد فى غرضه وهيمته
ونظامه - والا لتوزعت أعمال الأفراد بدءاً ، وتفرقت طرائق قداً .

ألا حسب هذا الاتفاق من دليل على وجود الالهام ، وعلى وجود صاحب
الالهام يُضاف الى ما سبق مما قلناه .

وقد أشار القرآن الكريم الى هذا الالهام مستدلاً به على وجود الله فقال :

(سُبْحِ اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى)

وأشار الى تهية الأمور وتمهيد السبل أمام الالهام ليجرى فى مجراه فقال :

(مِنْ نطفة خلقه فقدّره ثم السَّيْلَ يسره)

وأشار الى الاتفاق البادى فى أعمال عموم الأفراد فى النوع الواحد كنتيجة

للإلهام وكدليل على وحدّ مصدّره فقال :

(وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما

يعرشون ، ثم كلّ من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها
شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) .

أى أن اتخذى فاتخذت فكان ما اتخذته . هو ما فعله النحل عموماً نتيجة
للإلهام المتحد ، ذلك ما يستخلص من قوله : وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى
ثم قوله : سبل ربك ذللاً : يشير الى تهية المسالك لها لتمضى لا تجد عقبة .

٥ - دليل الارتقاء الكونى

يبدى الفلاح بذوره المتنوعة فى الأرض ، فتنبت وتنمو شيئاً فشيئاً حتى
تتكامل ، وتستوى على سوقها ، وتنضج ثمارها كما نعلم ، وكما شاهدنا ذلك مراراً .
وإننا حين نختبر هذه الثمار ، نراها مختلفة أشد الاختلاف طعماً ولونا
ورائحة وفائدة وأهمية - القمح غير الذرة غير البرتقال ، غير قصب السكر ،
غير البرسيم غير الحنظل وهكذا - كيف ذلك لعمرى ؟
لقد وضعت كل هذه البذور فى تربة واحدة ، وسقيت بماء واحد ، وكان
الجو الذى يحويها جميعاً واحداً ، والشمس التى تنضجها كلها واحدة ، ولو أننا
وضعنا كلا مكان الآخر ما تغير الحال .

ولقد جاء نتاج الحنظل كالحنظل ، والبرتقال كالبرتقال ، والقمح مثل القمح
تماماً ، والبرسيم مثل البرسيم فى غير خلاف .

عجيب والله أمر هذه البذور ! أكل منها قد حفظ درساً لا ينساه فصيح
يؤدى عمله - الذى يؤديه نوعه - لا يخطئ فيه ، ولا ينشغل عنه فى أى
بيئة ، وفى أى وسط ، وفى الشرق أو فى الغرب ، وفى أنحاء الحقل أو ساحة
الدار ؟ .

لقد عملت هذه البذور عملاً لا شك فيه ، وما هذه الخيوط الجذرية الرفيعة المتفرقة في الأرض ، القابضة على أديمها ، وذلك الساق الاسطوانى الطويل الاجوف ، والورق الذى يكسوه ، ثم تلك السنبلة البديعة المنتظمة ، ذات السهام المشددة ، المتجهة نحو السماء ، ثم ذلك الحبّ السكثير المتراص ، ذو الأغلفة التى تكسوه - إلا من نتاج حبة القمح البسيطة هذه ، التى تضعها فى يدك لاتشعر بها ، وإن تسقط منك لا تلتقى لها بالاً - وكيف أنتجت كل ذلك ؟ هذا عجيب ! ومن أين جاءتها مواد البناء التى أقامت منها هذا الهيكل الذى يفوق حجمها مئات المرات بل آلافها - هذا مدهش ! .
وإن تسأل العلم فى ذلك فانه يقول لك :-

إننا حين نضع حبة القمح فى الأرض ، فإن الجنين المستكن فى جوفها يستيقظ بسبب رطوبة الأرض المسقاة ، وتنبه فيه شعلة الحياة التى كانت هاجمة ، فيقوم يطلب الغذاء كما يطلبه كل كائن حي آخر ، ولكنه لا يتعب كثيراً فى البحث والتقصى ، لأن الغذاء قد وُضع من حوله ، وهى له ليجده حين يقوم ووضعه له من النوع الذى يستطيع الاغتذاء به فى حالة الطفرلة التى هو عليها . هذا الغذاء هو تلك المادة البيضاء التى تملأ غلاف الحبة ، وتسمى الدقيق ، فإذا استنفدها ، ويكون ذلك بعد أسبوع أو نحوه ، يسكون الجنين قد نما نوعاً وظهرت بواذر أوراقه ، واتجهت إلى أعلى ، وامتد جذره إلى أسفل ، باحثاً عن أديم الأرض ، وليس فى قولنا باحثاً شيئاً من المجاز - فهو يبحث بحشاً حقيقياً لا شك فيه ، إن الحبة إذا وضعت مقلوبة بحيث كان الجذر حين نموه

يتجه إلى أعلى بحكم الوضع - فانه لا يلبث أن ينثنى وينعطف ليـسكون إلى الأرض التي يطلبها - كأنما قد علم أنه كان أولاً يتجه اتجاهاً لا يؤدي إلى الغاية فغير اتجاهه ليصل إليها .

وهكذا يتجه الجذر إلى أديم الأرض حتماً وينغرس في مغرسه ، ليلتقط الغذاء اللازم له ، وتتجه كذلك الاجزاء العليا للنبتة إلى وجه الأرض وتمتد في جـو السماء ، إلى المدى الذي قدر لنوعها أن تمتد إليه .

- وتستخلص كذلك من جو السماء ، بعض ما يلزم لها ، بل معظم ما يلزم لها ، ومن هذين ، الميدانين : السفلى والعالى تلتقط النبتة مواد البناء التي منها تسكون الهيكل الذي نراه ماثلاً أمامنا ، منغرساً أصله في الأرض ، ذاهباً أكثر في السماء ، وتسكون النتيجة شجرة القمح التي نراها ، مخالفة لكل شيء إلا القمح ، ومتفقة مع القمح في كل شيء ، وإن تحكّم الكيمياء في الموضوع لا تجد خلفاً . ولقد سارت الحبة مع النظام المقرر لنوعها في غير خلف ، وتتبعته نهجه خطوة خطوة بغاية السداد والإتقان ، ولقد استخلصت موادها الخاصة بنوعها من المصدر الذي يستخلص منه الحرّيف والحامض ، والمر والقاتل ، والحلو والمز - ومع ذلك لم يشمته عليها أمر ولم تعمل غير ما ينبغي أن يعمل ؛ وغير ما عمله آلاف الاجيال التي تقدمتها من نوعها - فماذا ترى من حكمة وإبداع ؟ إنه لو كلف عديد من نوابغ الكيمياء في العالم وجهزوا بالمعامل والخابر وأدق الموازين وأقوى المجاهر ، ليجاروا حبة القمح فيما تعمله من استخلاص هذا الذي استخلصته في جذرها وساقتها وسبيلها من أديم الأرض ، ومن جو السماء - إنني إن قلت إنهم يعجزون - فإن العلم - ولما يستوعب بعد كل مقدوره - قد يخلف ظني

لذلك أقول : إنهم إن استطاعوا اليوم - أو استطاعوه فيها بعد اليوم - فهم أيّاً كان الأمر يعترفون في غير تردد بما يتطلبه ذلك من جهد ووقت وتفكير ونظام في سير العمل ينبغي ألا يختلف ، وخطة مقررة في التركيب يفسدها حتى السهو والخطأ ، وكفى بذلك شاهد على ما يتطلبه عمل الحبة من قصد وتدبير وحكمة هي فوق المستوى .

وطالما قلت إن ما شأنه ألا يتم إلا بعقل وتدبير وحكمة - فهو لا يتم إلا بها ؛ وينبغي أن نعرف أن هذه الصفات قد صاحبت كل عمل شأنه ذلك على أي وجه كان - وإلا فكيف نتج ؟ .

ثم في الموضوع نقطة تدعو إلى الاعتبار والعجب ، فإن ما أنتجته حبة القمح هذه وما أنتجته أخواتها ؛ والنتيجة واحدة عند الجميع ، يكون غذاء لنا وأمر التغذية لا يتأتى على أي وجه ، بل هو من التعقيد بمكان فإن احتياجات الجسم التي يسدها الغذاء هي متنوعة ومتفاوتة ومتنوع كذلك ما يسدها ومتفاوت ، فاستجماع الحبة لهذه الأنواع لا تترك شيئاً ، ومراعاتها لنسبة التنويع حتى لا يكون نوع أكثر مما يلزم ولا أقل مما يلزم ، هو أمر لا يتأتى اعتباراً أبداً هو مقصود حتماً ونحن مقصودون به .

أقول كلمتي هذه ، لا مجازفاً بها ، بل واثقاً مطمئن النفس - فإن لا أستطيع أن أتصور أن خياطاً يعيث بمقصه في القماش يجيله كيفما اتفق ، ثم يجمع بالابرة والخيط أطراف القطع التي نتجت عن العيث غير المقصود به أمر ، فينتج عن ذلك جوائتي (لباس اليد) بأصابعه الخمسة المفصلة على حسب ما للإنسان ، ومراعى فيها الأشكال المختلفة لأصابعه ، ومواضعها المقررة المعروفة

ثم ما بين بعضها بعضا من اختلاف في الحجم واختلاف في الطول وهلم جرا .
لا أستطيع أن أتصور أنه كان يعبت لمجرد العبث ، ويوجه مقصده إلى غير
غاية ، فجاءت النتيجة متفقة مع احتياجات يدي المتعددة التي لم تكن في حسابه
أبدأ - ولذلك قلت كلمتي .

إن علماء التغذية يدركون ما في أمرها من تعقيد ، وما تتطلبه من دراسة
مستفيضة . حتى تستوعب مسائلها ، ثم ما يحتاجه تحضيرها من عناية تفوق
الوصف ، وتقدير لا يقوم به غير الميزان - وكل ذلك لا تأتي به المصادفة أبداً .
ولقد جاء عمل الحبة خالصاً لغرضها ، مؤدياً له ، ومضبوطاً مقدراً بحيث
التصرف فيه يفسده ! حتى دلت البحوث الحديثة في مسائل الطب أن كثيراً
من الأمراض التي تصيبنا مرجعها نقص العناصر الغذائية ونحن السبب .
فقد عمدنا إلى الحبوب فبالغنا في نخلها زيادة في التآثق وإمعاناً في طلب اللذة
فترتب على ذلك نقص بعض العناصر الهامة التي ما كان يجيشها عبثاً ولا لغواً
بل لغرض أضعناه بإخراجها فركبتنا الأمراض ، وتنبه هولما يلزم وقرر أنه ،
ينبغي ألا نبالغ في نخل الحبوب ، وأشار بالفيتامينات وغيرها .

وهنا شبهتان قد تلمان بالبال تناهضان هذه النقطة :

الأولى - إن المواد العضوية مكونة من عناصر معدودة محدودة متوافقة
تقريباً - فما جاء به القمح كان متوافقاً مع احتياجات الإنسان - لا لأن
الإنسان كان مقصوداً ومقصودة تغذيته ! بل لتشابه التكوين العنصري
الذي عليه النبات والإنسان وهذه شبهة ما أوهاما . فإن متوج النبات فيه
الصالح - وغير الصالح - فيه المغذي والقاتل والمسكر والمنوم وهكذا .

وبين هذه الأشياء الخلاف كل الخلاف - مع أنها من عناصر واحدة ، كما تذكر ، إن أمر التركيب عجيب ، وإن اختلاف جزئية واحدة في النظام يتبعه خلف أى خلف كما تقول الكيمياء بل وكما رأيت فيما ذكر من هذه الأشياء .

الثانية - إن هذا الغذاء الذى تذكر ، لم يعمل به النبات لك أيها الانسان بل هو أنتجه لجنيته المستكن فى الحبة ، وكل حبة فيها جنين وفيها غذاؤه الذى يحتاج إليه لدى الانبات ، ولـكنك قد جرّت عليه واستحللته ، وجئت الآن تقول إنه لى بدليل أنه يناسبنى - وهذه فرية .

والجواب أنه لو كانت هذه للجنين لأن الطبيعة - كما تعبرون - تقصد أن تنبت كل الأجنة - لضائق الدنيا فى مدى ثلاثة أجيال ، ولما وجد فى الأرض موضع ذرة - فى أى جهة يُستنبت الجيل القادم وهو يحتاج لعدة أرضين - أترأه خلق لما لا نعلم ؟

إن ذلك مخالف لخلق الطبيعة وتقديرها العجيب ، وحكمها البالغة الشاؤ البعيد الذى ليس وراءه مرمى .

إنما نرى الأزهار لا تبسّم الا وقت ما تعلم أن ذلك الوقت هو وقت مظنة اللقاح ؛ حتى إذا انقضى ذلك الوقت الذى يرجى اللقاح فيه أغمضت جفنها وضمت أثوابها ، واستغرقت فى سبات عميق ، حتى يعود الوقت المذكور فتنهياً له من جديد ، ثم ترى النبات بمجرد حصول اللقاح يمنع الغذاء عن الزهرة لتذبل وتموت ، فما فى وجودها من فائدة بعد ذلك ، وترى الأزهار لا تنفتح إلا إذا كانت تلقح من الخارج - ولا تتزين باللون البهيج إلا اذا كان تلقيحها بواسطة

حشرة ، وتكون زيفتها وفق الحشرة الخاصة بها - ويضيق المقام إن استرسلنا في سرد الأمثلة .

نعم إن القذفة المنوية فيها الملايين من الجراثيم المنوية ، والبويضة يكفيها جرثومة للتلقح فهل ذلك يقدح في حكمة القوة العلية وتقديرها ؟ كلا . إن هذه الكثرة ليُنتقى أحسنها ، وأكثرها نشاطا وسبقا ، ولأن البويضة من الدقة بحيث لا ترى وهذه الجراثيم في مثل هذه الدقة وأكثر - فهذه الكثرة تجعل العشور بالبويضة مضمونا - إن لم تصل هذه ، وصلت تلك . وقل مثل ذلك في طلع الأشجار التي تلقح بواسطة الهواء مثل التوت .

هذه الحبوب لغدائنا وإلا فأين غذاؤنا ؟ أيعنى بنا أطفالا فينزل لنا اللبن من أندام أمهاتنا صالحا مناسبا ، لا ينزل إلا معنا حتى إذا شبعنا نترك ! وكيف والأسنان المهيأة لمضغ غذاء جديدة قد نتأت استعداداً له ، والغدد الجديدة المهيأة لهضم عناصر التغذية الجديدة التي صارت حاجتنا إليها منذ الآن قد وجدت فعلا ، وكل احتياجات جسمنا موجودة في تلك الحبوب بتقدير عجيب ودقة تفوق الوصف بحيث تعمل فيها يفسدها ، ثم ليس شأن النبات كله أن تكون بذوره هكذا توافقنا حتى نرتاب - والكثرة لا معنى لها كما قلنا - فماذا بقي !

أما وجود الجنين في كل حبة فذلك احتياط ليأخذ الإنسان ماشاء من الحبوب ليأكله ويبقى للإنبات ما يهوى فيراه صالحا مهيأ - وإلا فكيف عنتا في فرز ما هيء للإنبات وما هيء للأكل .

أذكر أننا في عملية الاحصاء الرسمي الذي تجريه الحكومة المصرية كل عشر سنوات استلم كل منا سنة ١٩٤٧ دفترين أول وثان ، والعجيب أن كل دفتر كان يحمل رقم (١) و (٢) - لماذا ؟

تفادى الواضع بعمله هذا ارتباك العداد إن هو أخطأ ، فقد يسهو فيبدأ بالثاني قبل الأول ، ولكن إذا ذلك حصل الآن فما عليه ، إن كل دفتر من الدفترين يصلح أن يكون الأول كما يصلح أن يكون الثاني ، وما لنا وذلك - أنظر الى الصورة التي عليها الكائنات الحية تجد بعضها رزقا للبعض الآخر - هذا هو الأمر الواقع . وخير دليل على وجهة الأمور ما تنجه إليه الأمور فعلا .

إن كل نوع من الحيوانات يتناسل لينخلد نوعه ، لا يعنيه غير ذلك ، ولا يفهم من عمله غير ذلك ، ولو كانت الأمور تجري حسب هذه الصور القرينة المظنونة فكان النسل للنسل وكفى والاستيلاد للكثرة فقط ، وذهبت أفواه الجميع بعضها عن بعض أو أكلوا من الطين مثلاً إذا لصاقت الدنيا في مدى شهور ثم هلكوا من كثرة الزحام حتماً ، وهذا الخرق ليس من مثله هنا .

ولما كان أمر التغذية دقيقاً كما ترى وكان لا يتم ولا يتأتى إلا نتيجة لتدبير وقصد وحكمة ، ما من ذلك بد . فقد استدل القرآن الكريم بأمرها على وجود الله فقال : قل من يرزقكم من السماء والأرض الخ : فوجه نظر الانسان إلى ذلك المصدر المجهول الذي دلت الآثار على وجوده ، وإن لم يدرك - وهو وإن لم يدرك لا يحدد وجوده لا يستطيع .

وإنها لعجيبة أن يعلن القرآن هذه الحقيقة العلمية الفارعة - حقيقة أن
الرزق مصدره السماء كما مصدره الأرض ، ويقول بذلك في عصور الظلمات
والجهالة ، وفي بيئة الأمية ، وعلى لسان واحد بمن فيها .
ألا تراه وحياً حتماً ولا يتأتى أن يكون غير ذلك ؟

ثم إن الانتقاء السكوني العجيب لست تراه في عمل النبات فقط ، بل تراه
كذلك في ثدي الأم ، وكل ذاتِ ضرع ، فينزل اللبن منها خالصاً لا يشتمل
على سواه مغذياً للطفل لا يحتاج معه إلى غيره ، سهلاً سائغاً للشاربين .
ومن أين استخلص هذا اللبن ألا تعلم ؟ لشدة ما تطلبه الأم من عناية
وتحضير ، إن أوقية اللبن قد استخلصت من ثلاثمائة (١) أوقية من الدم فهل
علمت المهمة وقد انتقى من بين الفرث والاقذار فهل علمت الاقتدار ؟
وقد جاء مناسباً لتغذية الطفل بحيث لا يقوم مقامه لبن آخر لحيوان آخر
كما لا يقوم لبن الطفل بتغذية أيٍّ من هذه الحيوانات كان . أي أن كل نوع
مهيأ لغرضه الخاص لا يشاركه فيه أي نوع آخر . والعلماء قد عرفوا الفروق
الدقيقة التي بين هذه الالبان المختلفة وقدروها بالموازين الدقيقة وعرفوا نسبها
وهم كذلك يجدون كل نوع من أنواع اللبن يجرى في تركيبه على النسق الذي
لفصيلته ، محافظاً على النسبة المقررة المعروفة التي له مستوفياً لجميع الخصائص
فلا تقصير ولا فضول - فهل علمت مافي الأمر من عناية واهتمام وبقظة تفوق
الوصف وحكمة تستفرغ المعجب .

(١) مجلة المختار موضوع : لبن الأم حق طبيعى للطفل

وفى إبان الأوبئة إذا هوجم الجسم بالجراثيم المرضية الزاحفة فمعجز عن صد هجماتها المتتابعة ، فأعيا حراسه الأمر فسقطوا فى الميدان ، إزاء ذلك لا يستسلم الجسم ويلقى سلاحه كلا ، بل يعمد إلى حرب كىماوية عجيبة كأعجب ما تكون الحرب الكىماوية .

هى حرب علمية بأوفى ما فى كلمة العلم من دقة ، وما فى مسائلها من استغلاق . يعمد إلى انتقاء مركب كىماوى يفسد على الجراثيم عملها ، ويحتمى به من شرها وهذا المركب الكىماوى الذى يعمد الجسم إلى انتقائه مختلف باختلاف الجراثيم ، ومناسب للحرب كل منها تماماً ، وبدون أى خلف ، ولقد استفاد الأطباء من هذا العمل الذى يعمل به الجسم فى هذه المعركة التى هى مسألة حياة أو موت ، وأخذوا يحللون المواد التى ينتقها الجسم ليعرفوها ثم ليركبوها مثلها ويعاونوا الجسم فيما هو بسبيله من القضاء على هذا العدو المبين .

وترى فى الجسم عامل انتقائى عجيب آخر يعمل على تخليص الجسم مما به من مواد ضارة وسموم قاتلة كما نراه يفعل فى إفراز البول من الدم بواسطة الكلى ، وذلك أمر لا يقوم به غير المعامل المجهزة أعظم تجهيز والكىماويون الممتازون ثم قلنا يحارون الجسم فى دقته وصوابه وحذقه واقتداره .

فأنت ترى أن هذا العامل الانتقائى الرحيم قد فعل الأعاجيب حقاً وقدّم أوفى خير ومصلحة ، يستخلص لنا الغذاء الصالح من التربة ومن الهواء

تارة ، ويستخلصه تارة أخرى من الدم من بين الفرث والخبث والسموم والأقذار ، ويستخلص وقت ما يلزم مركبات طبيعية عجيبة صالحة للغرض الذى أدرت له ، كما يستخلص من الدم البول وهكذا - فهل رأيت أعجب من ذلك وأقدر من ذلك ، وأحذق من ذلك .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الدليل فقال :

« وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » .

وقال (قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله)

٦ - دليل العمل الفنى

من الأمور ما يدل بمجرد ظهوره وتحققه للعيان على أنه وليد عقل حتماً إذا كان لا يتأتى إلا نتيجة لتفكير وتدبر .

فالمثلث المتساوى الأضلاع مثلاً لا يمكن أن ينسب إلى المصادفة أبداً لأنه تكون من خطوط مستقيمة ، وناهيك بما يتطلبه رسم الخطوط المستقيمة من يقظة وانتباه ، بل واستعانة بأداة تعين على ذلك غالباً ، وكانت فيه الأضلاع متساوية ، وناهيك بما يتطلبه ذلك من ضبط وتقدير ، وقل مثل ذلك فى المستطيل ، وقل مثل ذلك فى كل شكل هندسى بديع .

إذا تقرر ذلك فمنح إذ ننظر فى ثنايا الجسم البشرى وفى غيره من أجسام الحيوارات والنباتات بل والجمادات أيضاً - نجد صنائع فنية ، يدل وجودها على أنها وليدة عقل وتدبير ، وحذق حتماً ، ويوحى بأن المصادفة ليس لها

مجال في الموضوع - إذ المصادفة لا تنهض بذلك ولا تستطيع .
وما دعاني إلى التنازل بالتعبير إلى ذلك المستوى إلا هيكل الضلالة ولون
الشبهة - وإلا فما سأذكره لا يجملُ عن متناول المصادفة فحسب ، بل يسو
على كل تدبير وفطنة وحذق يمكن أن يكون لعباقرة الدنيا - فما بالك
بالمصادفة البسيطة التي يحيلها تدبير صبي وقصد غلام .

إن الجسم البشري - وكل جسم حيواني آخر أو نباتي ، مثله في ذلك -
مؤلف من خلايا فردية حية - من مجموعها يتكون كل هيكل بما فيه من عظم
والحم وعصب الخ ؛ بحيث لو انحلت هذه الخلايا لتفرق الجسم بدءاً - ثم
لظلت كل خلية من خلايا الجسم حية - لو واثتها الظروف المناسبة - تقوم
بأعمال الحياة كلها من هضم وتمثيل وهكذا - أي أن كل خلية منها كائن برأسه
وإن تُشرح أيا منها شئت تجد عجباً أي عجب .

أولاً - هذه الخلايا (ميكروسكوبية) أي لا ترى بالنظر المجرد ، وعلى
ذلك فأصغر شيء يمكن أن تراه ، هو أصغر منها بدرجات ودرجات - ومع
ذلك فهي على شكل حجرة داخلها أخرى وهذا هو بدء الصعوبة ، وهذا هو
بدء العجب .

تصور إبرة صغيرة في يدك ، أخذت تتأمل طرفها الدقيق في عناية
واهتمام ، ثم بدا لك أن تقطع أقل جزء ، يمكن أن يُقطع من هذا الطرف
الدقيق ففعلت وأخذت هذه الطعنة الصغيرة ، ووضعتها فوق كفك فبدت لك
كالسكرة ، ثم تصرر أن أحداً من الناس قال : أيمن أن تجوف هذه السكرة
المعدنية التي لا تكاد ترى - حتى تكون فارغة ، ثم يقام في رحابها حجرة

أخرى ، مجوفة هي الأخرى ، ثم يقام في داخل الحجرة الأخرى شبكة تمتد بين جدرانها ١ - ماذا بالله ترى في هذا السؤال ؟ ألا تراه عملاً يعز على أوفر حيلة ، وأبرع فطنة وكياسة ؟ ومع ذلك كانت هذه الاستحالة في هذه الكرة المعدنية التي تعتبر ضخمة وهائلة بالنسبة لشيء ميكروسكوبي دقيق ١ - فما بالك بالخلية وفيها هذا العجب ١

تركب الخلية من غلاف داخله مادة سائلة نوعاً تسمى (البروتوبلازما) وعند ما يتصور الإنسان تفاهة هذه الخلية ثم يتصور سائلاً فيها فإنه يسكاد يضحك - إذ ما عسى أن يكون فراغها حتى يتسع لسائل ١ وما عسى أن يكون قدره - ولكن مع ذلك فهو مركب من عناصر عدة ، فيه الماء والزال والدهن والسكر والفشا والأملاح - كل من هذه اشترك في تركيب السائل بنسبة مقررة لا يعدوها .

يا للعجب ١ إن كمية السائل برمتها تسكاد لتفاهتها لا تتصور - فما عسى أن يكون قدر كل جزء من هذه الأجزاء المشتركة على حدة ١ ثم ما عسى أن تكون هذه المقدرة الذي تراعى النسبة التي يجب أن تراعى عند الأخذ من كل يقدر ١ ولكن دعنى لأتمم .

في ناحية من نواحي هذه الخلية (ومثل هذه الدقائق تكون تحت الميكروسكوب رحاباً) نجد النواة كرية الشكل في الغالب ، محاطة بغشاء دقيق وفي داخلها خيوط (كروماتينية) تكون شكلاً شبكياً ، هذه الشبكة الدقيقة مكونة من وحدات تسمى (السكروموسومات) محدودة العدد في كل نوع من أنواع الحيوانات بحيث إذا كان عددها في الإنسان ٤٨ فإن هذا العدد

يكون هو هو في خلايا الجسم البشرى وهى ملايين الملايين .
يا حيرة الذهن ، وبأما أشد عجز التصور عن متابعة هذه الدقائق ، إننا
اندهشنا حينما تصورنا فضل تصور أن تكون هذه السكر المعدنية السابقة
التي فرضناها قد جُوفت حتى صارت كغرفة صغيرة ثم أقيم في داخلها حجرة
أخرى مجوفة هي الأخرى .

اندهشنا جداً ، ووضعنا يدينا على رؤوسنا لنمسك عقولنا - فإذا بالخلية
التي هي أقل من ذلك حجماً بدرجات قد جوفت فعلاً ، ثم امتلأ معظمها بعدد
عديد من المواد - امتلأت بماء وزلال ودهن وسكر ونشا وأملاح وإذا
قلنا ماء فأننا نعنى مادة قوامها أكسيجين وأدروجين وللزلال عناصره التي
تكونه ، وقل مثل ذلك في الدهن ، والسكر والنشا والأملاح ، أى أن
عالمنا من المواد قد حواه هذا الفراغ ، الذى لا نستطيع أن نتصور فضل
تصور كيف هو يكون فراغاً ، فإذا به فراغٌ ينظم ، ويُدبر أمره ، حتى يتسع
لعدد من المواد عديد تشترك فيه بحساب ، ثم يُراعى أن تظل فيه فراغات في
أكثر من موضع ، تظل فارغة لأن الأمر يستدعى ذلك .

ثم يعمل حساب النواة فيقام هيكلها في ناحية ، وتجوّف هي الأخرى ،
ثم تمتد في داخلها شبكة ، وإذا قلنا شبكة فأننا نعنى أن هيكلها الممتد يشتمل
على فراغات بين خيوطها .

ثم هذه الشبكة كما قرر العلم - ليست كيفما اتفق كلا ، بل هي مكونة
من وحدات معدودة محدودة ومقدرة بحساب لا يتغير ، وإذا تصورنا أن
العدد هو ٨٤ فأننا ندع التفكير لئلا يذهل العقل ونقول : حقاً إن الله على كل
شئ قدير .

والأغرب من كل سبق تلك الوظيفة العملية التي تُنجزها تلك الخلية الميكروسكوبية التي تكاد لتفاهتها لا تتصور .

لأنها تقوم بعمليات كيمياوية عجيبة متنوعة لا تستطيع أن تجارها فيها كل نوابغ الكيمياء في العالم بمجهزين بكل ما يلزم لعملهم من موازين ومخابر ، ومجاهر ومراجع علمية وغير ذلك ، وإليك ما قاله في هذا الشأن العالم العالى والفيلسوف النابغة الأستاذ (غوستاف لوبون) في كتابه الآراء والمعتقدات ص ٤٩ قال : تأتي البنية الذرية التي تصنع الخلايا بأعمال نظامية لا تقدر على الإتيان بمثلها ، ولا يمثل هو دونها في مختبراتنا ، فهي تقدر على تحليل أمثنا الأجسام وأصلها كالسكر وورد وسوديوم واستخراج الأزوت من الأملاح الأمونياكية والفوسفور من الفوسفات الخ ، تدير هذه الأفعال الغريبة المتجهة نحو أحد المقاصد قوى مجهولة تسير كأنها ذات ذكاء أرفع من ذكائنا ، وما تُنجزه القوى المذكورة في أدوار الحياة من عمل فأسنى جداً مما تقدر أرقى العلوم على فعله ، وسيعتبر العالم الذى يستطيع أن يحلل بذكائه وسعة عقله ما تقدر خلايا أحقر الموجودات على تحليله كإله لسموّه على باقى البشر .

يا للعجب ! لكان هذه الخلية تقوم بمفردها ، وعلى تفاهة أمرها وبدون استعانة بمخبر أو ميزان أو مجهر ، بما لا تستطيعه كل الوسائل العلمية والحدق البشرى حتى اليوم مستعينا بكل آلة وأداة ، بل وأكثر من ذلك ؛ فعملها من سمو بحالة لا يقدر العارفون لأنفسهم أن سيصلوا إليها فى يوم مآ ، وبديهي العجز فى إدراك المبادئ التي يجرى العمل على مقتضاها - فما بالك ، إذا كان تصرفها هنا فى مادة لا يتصور العقل مدى دقتها وصغرها ، وتقوم بعملها من

غير استعانة بشيء - حقاً لا يقدر على ذلك إلا الإله الأعظم - ولو غاب
الكيميائى العامل المدير لوقفت حركة المعمل على الأثر .

ثم نظام التوزيع الذى يكفل لسكل خلية من هذه الخلايا حاجتها من
الغذاء والأكسجين ، هو عمل يحتاج إلى قصد أى قصد وتدير عظيم .

أوليس الزارع وهو يخطط حقلة ويهيئ النظام لريته يحتاج إلى يقظة وتفكير
وقد بر حتى يضمن بعمله أن يصل الماء إلى كل جهة من جهات الحقل وألا يسد طريق
الماء إلى جهة طريقه إلى جهة أخرى ؟ أوليس نظام الري فى مملكة يحتاج إلى
مهندسين بارعين متخصصين يقدرون كمية الماء المقررة للسكان ، ويعملون
الحيلة للحصول عليها من النهر الذى رزقوه ثم يوصلونها إلى كل جهات المملكة
وأبعد أبصارها ؟ ثم هم يبذلون فى سبيل ذلك من الجهد والتفكير وتقلب
الرأى ما لا مزيد على ذلك ، ويطلق عليهم اسم فنيين ممتازين لما يتطلبه عملهم
من حذق وعمل ودراية وشمول ؟ فماذا بالله ترى فى توزيع الغذاء والأكسجين
على هذه الخلايا وعددها فى الجسم البشرى الواحد مثل سكان الدنيا كلها
عشرات آلاف من المرات على الأقل ، وهى مع ذلك مكدسة ومتراكبة ،
ولا ندرى كيف على ذلك يصلها نصيبها .

إن فلة بسيطة من اللحم يبلغ سمكها عدة . متيمترات فيها من الخلايا
ما يفوق عدد سكان أوروبا كلها ومع ذلك فهم كما تراها متراكبة متراسة
لا يحس الإنسان فيها أى فراغ - . ولكن مع ذلك قد عملت فيها الهندسة
البديعة الحارقة بحيث الغذاء والأكسجين يصل إلى أدخل خلية فيها بل وعملت
الحيلة لكي تنزاح عنها الأوساخ التى تفرزها باستمرار ، بحيث لا يبقى منها

بشيء يضرّ بها بحال ، بل وُعمِلت لها المواصلة الشعورية بمرکز الإيقاظ في الجسم بحيث إذا آذاها أى شيء يصل خبرها إليه ليُعمل لها الإسعاف اللازم - فيا للعجب حقاً إن العلم لا يكاد ينتهى إذا حارل الكلام على كل هذا الإبداع العجيب !

وإذا كان بناء الكائنات الحية يشتمل على كل هاتيك العجائب ، وكل هذا العمل البديع - فإن الجمادات هي الأخرى ، يحوى بناءؤها إبداعاً كهذا الإبداع ، وعملاً فائقاً يشهد بكل معاني التدبير والمقدرة مما يدل على أنه مامن شيء في الوجود إلا وهو يتّسم بِسَمَةِ العليّ القدير سبحانه ، ويشهد بوجوده ويسبح بحمده .

والموضوع يطول أكثر مما طال - لو أردنا الكلام على الوحدات البلورية التي تُتكوّن بناء تلك الأجسام الجامدة من معادن وغيرها ، وتفصيل النظام البديع الجارى في تماسك اللبنة البلورية بأخواتها حتى يتم البناء - إن ذلك شيء يدهش حقاً ويروق للغاية .

ويكفى أن أقول إن هذه البلورات هي أشكال هندسية لكل ما يعرف في الهندسة من ضبط وتقدير - فيها بلورات هي مكعبات حقة وبلورات على نسق المنشور القائم ذى القاعدة المربعة أو المستطيلة ، وبلورات على نسق المنشور ذى الأوجه المعينية أو القاعدة المعينية ، أو المتوازية الأضلاع .

وتتفرع من هذه الأمثلة التي مرّت تفرعات شتى وتصرفات بعيدة المدى ، وكلها هندسى بديع ، لا يأتى بمثله المهندس الصانع إلا ببذل جهد ، وتفرغ حقيق وإعمال بال ، ثم لا بد أن يستعين بالأدوات الهندسية والا فلا يصل .

ثم إن كل نوع من أنواع الكائنات الجملدية المتبلورة له شكل مقرر لا يعدوه ، بحيث يصح الاعتماد على هذا الشكل نفسه في تعيين نوع الكائن الجملدى إن اشتبه علينا أمره .

أما ترتيب وضع البلورات مع جاراتها وتماسكها بأخواتها ، فمن أعجب ما نرى ! أولا لكل نوع من الأنواع الجملدية نظام خاص في وضع البلورات ، لا يتفق مع نظام أى نوع آخر .

فمثلا القصدير الأبيض اللامع تجده بلوراته مرتبة كل ثلاث تكون خطاً أفقياً ، يتصل به آخر قائماً رأسياً ، فيتكون من كل تسع بلورات مربع حقيقى وحداته إطارات ، تمثل دوائر هندسية صحيحة كأن قد وضعها أعظم رياضى بأثبت فرجون كما هو تعبير مجلة جمعية المعلمين المجلد الثانى السنة الثامنة . وعلى هذا النحو البديع ، يمضى النظام فى تماسك البلورات فى عموم النوع ، ولكل نوع نظام آخر بديع مثله ، إن لم يسكن أبدع وأروع .

والغريب أننا نسلط الحرارة على هذه الأجسام الجملدية ، معدنية كانت أو غيرها حتى تنفك وحداتها ، وينهدم بناء لبناتها وتسيل سيلا ، يموج بعضه فى بعض ويختلط أسفله بعاليه ، ثم نترك السائل حتى يبرد ويتجمد ، فإذا بالبلورات قد بنيت من جديد على النسق الأول من غير خلف ، ورتبت أوضاعها ، وأخذت نظامها السابق كما كان .

هذا لعمرى عجيب - وأعجب منه من يراه ويطلب بعده على الله برهانا ! ماذا يقول الملاحدون فى ذلك ؟ لا شئ ! إنهم يرونه عجيبا ولا شك ولكنهم

يكتفون في أمره بتلك الكامة التقليدية الساذجة فيقولون : إنها خصائص المادة .
خصائص المادة ؟ - هذا حسن ! فهل هذه المادة على ذلك عاقلة تفكر
وتقدر ؛ وتعلم ما هي مقبلة عليه فتعمله - وتعرف كيف تعمله ؟

ذلك ما لا يجرمون على القول به ؛ ولو قالوا لكذبوا أنفسهم ، إذاً كيف
تم ذلك وهو لا يتم إلا بعقل وتدبير ويقظة وانتباه ؟

دعا ذلك الكثير من الباحثين أن يقولوا إن عقلاً يكمن وراء الأشياء ،
ينبغي أن نسلم به وإن لم نره ، ولحمري إن مقالته أولئك العلماء هو ما تضطر
الأمور كل باحث أن يقوله إلا أن يتعاضى ويغمض عينيه ؛ ويؤثر البلاء
ويلغى التفكير ، هذا - وإذا كان بناء الكائنات الكونية كلها حيوانيتها ونباتيتها
وجماديتها^(١) بمثل هذا التقدير والإعجاب ، فإن وراء هذا البناء الذى ذكر ، بناء
آخر أوّلى أكثر من ذلك عجباً .

إن وراء هذا البناء الذى ذكر بناء أدق منه ، ليس ذلك المذكور بالفسفة
له إلا بناء إجمالى أخير ، أوليست أحجار البناء التى تقدم للنساء ، قد جهزت
أولاً ، وكونت قبلاً من فئات التراب مثلاً - فكذلك هذا .

وتعود للإنسان حيرته مرة أخرى ، ويوافيه عجبه أكثر وأكثر ، حينما
يجد الأمور تسكفه أن يتصور ، أن وراء الخلية ونواتها وشبكاتها شيء آخر
أدق وأدق ، بحيث لا تكون هذه الأشياء التى مرت إلا عمل إجمالى وتكوين
كلّ كبير .

(١) بعض الجمادات كالشمع لا يتبلور وهو قلة يستدل فيها من بنائها الذرى

ولكن يجب أن يتدبر الإنسان أن العقل وهو ينظر في عمل الخالق ذى العظمة المطلقة ، والمقدرة اللانهاية ، ينبغي ألا يصطبب معه مآلوفاته المحدودة وجولات حيلته وممكناته القصيرة — وما يفعل الإنسان ، لعمرى ، وذلك هو كلام العلماء المؤيد بالحجة التى لا تدفع .

إن التكوين المبدئى للسكانات جميعاً يكون من ذرات ولدى تصور نوعا مدى دقة هذه الذرات أقول لك : إن الخلية التى أدهشتنا بدقتها هكذا - الذرة أصغر منها بألاف ملايين المرات ، ذلك كلام العلماء فى كتبهم فى الخلية (١) ويحاولون تصوير ذلك لك فيقولون : إن قطرة الماء بها من الذرات أكثر مما فى ماء المحيط من قطرات الماء (٢) يا معجائب الدنيا التى لا تنتهى !

هذا المحيط الذى إن يتدفق فيه نهر النيل لا يظهر ، ويبدو مأؤه الأصلى من بعد ذلك وكأنه مازاد ، إن يتجزأ مأؤه قطرات ، لكان عددها أقل مما فى القطرة الواحدة من الذرات ؟ هذا فى الواقع شيء يبهر الذهن ويجعله يرتد قليلا - إن الإنسان لو وقف أمام رياح واحد من رياحات النيل الكثيرة المتعددة وراقب ماء المرغد المزبد ساعة من نهار ، ثم ألقى النظر على ماعساه يكون قد مر به من الماء ثم ماعسى أن تسكون قطراته المائية فانه يندهل من مجرد تصور ذلك - فما بالك والماء يتدفق هكذا فى الرياح ليل نهار وأسابع وشهوراً ، ثم هو بحملته ليس إلا قليلا من ماء النيل الذى هو كله ليس بجانب المحيط شيئاً يذكر . ولكن هكذا يقول العلماء - يقولون : إن قطرة الماء التى تتحدث من أصبعك

(١) فى ص ١١ من كتاب الآراء العلمية الحديثة ما يقيد ذلك

(٢) كتاب العلم والعمران للاستاذ فؤاد صروف

ثم تتدلى لتبهجك ببريقها لحظة قبل أن تمضى ، فيها من الذرات بقدر ما فى ماء المحيط من قطرات الماء وأكثر .

وكما قلت لك : إن عظمة الله يضل العقل فى تيهها البعيد : ولا يستطيع أن أن يتصور لمداها مدى .

هذه الهبة البسيطة التى قد عجز الذهن البشرى ثم عجز عن أن يتصور فضل تصور مدى دقتها ، والتى يطلق عليها لفظ الذرة ، فهل تظن أنها شىء بسيط مُصمت منزو لا يشتمل على شىء ؟ كلا ثم كلا كما يقول العلم وهذا هو أعجب وأغرب وأبدع ما كلف الذهن البشرى أن يتصوره .

إن الذرات بداخلها عدد عظيم من الكهارب تجرى بسرعة مذهشة فى مدارات متتالية ، حلقة داخل حلقة ، وأكثر من ذلك فهذه الحلقات المترابكة المتداخلة ، تدور حول نواة فى أعماق الذرة ، وبعد ذلك كله فعظم الذرة فراغ يراه العلماء نسبياً كالغراغ الذى بين الأجرام السماوية .

ويحاولون تصوير ذلك لك فيقولون : لو ألغيت الفراغات الذرية بأن ضغطت الذرات مثلاً حتى تلاصقت أجزاؤها ، لكان الفيل الذى عمل به ذلك يصير ميكروسكوبياً ثم ما خف من وزنه الأصيل شىء .

ثم المدارات التى تدور أرتال الكهارب فى أفلاكها منتظمة ، والسرعة التى تسير بها هذه الكهارب هى فوق سرعتها مقدرة محدودة لا تزيد ولا تنقص ثم هى مختلفة فى سرعتها باختلاف نوع الذرة الذى تنسب إليه ، وأود أن أبين لك مدى السرعة بمثال أو اثنين لتزداد عجباً ودهشاً .

ولعمري لقد توارد علينا العجب حتى ما عدنا نعجب .

إن سرعة السكهارب في ذرة الأودروجين - وهي أخف الذرات وكهاربها أبطؤها هي ٢١٠٠ كيلو متراً الثانية ، وسرعة السكهارب في ذرة الايرانيوم هي ١٩٠ ألف كيلو متراً في الثانية - فهل علمت .

وقد أشار القرآن الكريم إلى النظام البديع البادى في تصوير الأشياء من أقرب طريق فقال : والنخل باسقات لها طالع نضيد ، أى منضد ومنظم ومتمتال صفأ يتلوه صف - وهل ذلك يتأتى من غير تدبير وإدراك ؟ كلا !

وعلى ضوء هذه الاشارة البديعة السهلة المقدور تدبرها للعلماء والجهلاء عموماً ، نستطيع أن نجد الكثير مما ينحو هذا المنحى ويقنع أوفى اقتناع ، بوجود الصانع العظيم الذى نظم ، ودبر للنظام حتى تم ، نجده في ترتيب وضع الحبوب ولباب الثمار وأجزاء الأزهار وهكذا ، من يتدبر يجد نظاماً حقاً يروق ويبهج ويوحى بأن ليس للمصادفة به يدان أبداً .

تعليمات على هذه الأدلة

١ - على هذا النحو الذى مرَّ بك في سياق هذه الأدلة ، ترى حركة كونية عاقلة ، لا سبيل إلى نسبتها إلى المصادفة ، لأن القصد فيها ظاهر ، والتدبير أكيد ولا سبيل إلى نسبتها إلى الطبيعة ، لأن النتائج الرحيمة التى تفتج عنها ، والتدبير الحكيم الذى يمهدها النتائج حتى تم - كل ذلك لا ينفع الاتحاد بنافعة - ولو قلنا معه بالطبيعة جدلاً .

إن المهندس الميكانيكى الذى ركب أجزاء الآلة العاملة ذات الغرض الأكيد

ليس من سبيل إلى إنكار أمره ، وإغفال تدبيره ، بحجة أن آله الفضل فيها للحديد وهو لم يخلقه ، وإصلاية الحديد وهو لم يحدثها ، وأنه لو لا النار التي ألانت الحديد بقوتها الذاتية ما استطاع أن يفعل شيئاً .

لأسبيل إلى أن يعرف أحد بهذه الحجة ، لأن تدبيره ظاهر بالرغم من كل ذلك ، وأثره لا ريب فيه .

هو الذى أختار الحديد لأنه رآه يقوم بغرضه ، واستخدم النار لتلينه ، لأنه عرف أنها تفعل ذلك ، وشكل الحديد حسب ما يتفق مع غرضه المزمع ، ثم ركب الادوات السكثيرة المتنوعة ، التي سيتم الغرض بها فتم بها فعلاً . فما في وجود المهندس ريب ، ولا في وجود تدبيره أى شك - وكذلك هنا -

فلو كانت الشمس هكذا بضوئها وحرارتها (١) والأرض هكذا تنبت لأن البذر والماء يحصل لهما ذلك في جوف التربة ، وقال مثل هذا القول عن الهواء وما يتبعه لكان في الجمع بين هذه الأشياء إلى محيطنا ، وتقدير أمرها بحيث يناسبنا ، ثم جعلنا بحيث نستطيع الاستفادة منها : فمما لك ليمر الغذاء منها والهواء ، وغرائز تجعلنا نحس ما يلزم ونطلبه ، ونعرف كيف نحصل عليه - أقول كل ذلك يشهد بتدبير المدبر ، وإفضال المنعم المتفضل ، الذى دلت آثاره الرحيمة عليه .

على أن هذا الذى يقول بالطبيعة لو (تباله) وأطلق كلمته على جميع العملية ، وجعل الأعمال التدبيرية وما فيها من قصد وحكمة وتعقل - جعل كل ذلك للطبيعة

(١) ميمر بك ونحن نناقش شبهات الملحدين أن العلم أثبت بما لا يقبل النقص أن خصائص المواد مستعددة - وأنها لم تسكن لها قبلاً - لأنها كلها على اختلافها من أصل واحد .

فقال كليته وأطبق عينيه واجترأ على ذلك مادام هو حر في تفكيره يتجه به حيث شاء - فما أراه ينكر أن هذه الطبيعة المزعومة هي إذاً على هذا التقدير عاقلة ومدبرة ، وقاصدة للفعل ، وقد عرفت كيف تتم غرضها .

وهي فوق ذلك رحيمة قد فعلت لنا وفعلت لنا - لاسميل إلى نكران ذلك لأن الأمر يحتم القول به - ثم ليتدبر قوله الذي حتمت عليه الأمور أن يقوله ! إن هذه الصفات التي نسبها للطبيعة هي صفات الخالق الذي ننشد ، ويكون الفرق بين قولنا وقوله هو فرق في التسمية ، هو يسمى الفاعل طبيعة ، ونحن نسميه الها وجميع الصفات التي نبعت بها هدفتنا واحدة لدينا جميعا . هي صفات قصد وحكمة وتعقل وتدير . وأزيد أنا على ذلك - لكي يكون التعبير صحيحاً مطابقاً للقضية التي أمامنا - أن هذه الذات الفاعلة مطلقة غير محدودة . يمكن ولا جهة مادومت أراها وقد هيأت لنا النعم ، قد فعلت في ذاتنا الوسيلة للانتفاع بهذه النعم ، وقد شمل تدبيرها علوى السكائنات وسفليها وقربها وبعيدها ، وما تراه العين وما لا تراه .

٢- هذه الأدلة يمكن الاستدلال من أى شيء كان حيوانى أو نباتى ، أو حجر أو مدر على أنه من صنع الله ومن تدبيره ، يحمل سمته ، وينطق باقتداره ، ويشهد بوجوده من نفسه ، وبدون حاجة إلى التطلع إلى أصله أو فصله .

وأعجب للباحث الذى يريد أن يستدل على وجود الله فيترك ما حوله ويتخلى نفسه وينتقل إلى آية جده ، ويمضى في السلسلة يبحث عن الاصل الأول ، كما أنه لم يجد شيئاً يستدل منه ؛ وكأنه وهو يضع يده على هؤلاء الافراد ، ثم ينقلها إلى من يليهم متجداً ، انما كانوا في نظره أحجاراً من الطوب ، لا تحمل

أى معنى ، ولا تتمتع بأى أثر من آثار صنع الله يمكن أن يستدل به عليه ، بل لعمري ما عاد الحجر - خلوا من كل معنى كما كنا نفهم فيه .

ويظل صاحبنا هائما على وجهه ، حتى يقف عند آدم أبى البشر ؛ فيقول له رجال التطور إليك - إنه نهاية سلسلة وبدء أخرى أطول منها تشمل كثيرا من الحيوانات ، بل والنبات كذلك . فيقف حائرا باهتا لا يدري ماذا يفعل ، تقيمه الوساوس وتثقله ولا يعرف إلى الهدى من سبيل .

٣- إنك إن تبحث عن وجهة المؤمنين بالله من العلماء الكرونيين ، الذين نقبوا فى الآفاق ، وغاصوا وراء الأسباب والعلل ، واستخرجوا لنا التواميس العامة التى تعمل فى السكون دائبة ، لوجدت وجهتهم هى تلك الوجهة التى اتجهنا إليها هى نفسها بدور - خلف - تشهد بذلك أقوالهم التى قالوها وأعلنوها على الملأ .

قال نيوتن وقد سأله الناس أن يأتيتهم بدليل على وجود الله (١) : لا تشكوا فى الخلق ، فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى قاعدة الوجود ، لأن ضرورة عمياء متجانسة فى كل مكان وفى كل زمان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع فى الكائنات ولا هذا الوجود كله ، بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والامكنة بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أولى له حكمة وإرادة .

إلى أن قال :

كيف تكونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ، ولأى المقاصد

(١) دائرة معارف القرن العشرين للعلامة الاستاذ محمد فريد وجدى بك

وضعت أجزاؤها المختلفة ؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الإبصار ونواميده ؟ والأذن بدون إلمام بقوانين الصوت . . الخ
وقال فولتير : (إنى إذا رأيت ساعة يشير عقربها إلى الأوقات المختلفة أستنتج من ذلك بأن لابد من أن يكون عقل قد رتب لوالب هذه الآلة حتى استطاع العقرب أن يدل على الساعات دلالة حقيقية .

وكذلك أرانى إذا تأملت فى الجسم الإنسانى أستنتج أن لابد من أن يكون عقل قد نظم أجزائه وأجهزته ، وجعله قابلاً لأن يغتذى فى الرحم تسعة أشهر متوالية ، وأنه قدمتع بأعين لينظر بها وبأيد يتناول بها الخ .)
وقال الفيلسوف (لينيه) الفزيولوجى الفرنسى : (إن الله الأزلى الكبير العالم بكل شيء ، قد تجلى لى ببديع صنائعه حتى صرت مدهوشاً مبهوراً .
فأى قدرة وأى حكمة وأى إبداع ، أودعه مصنوعات يده سوداء فى أصغر الأشياء أو أكبرها .

إن المنافع التى نستمدّها من هذه الكائنات تشهد بعظيم رحمة الله الذى صنّحها لنا ، كما أن جمالها وتناسقها ينبئ بوسع حكمته ، وكذلك حفظها من التلاشى ، وتجديدها يقر بجلاله وعظمته .)

وكان أحد العلماء يقول : ما شُرحت حيواناً إلا وازددت إيماناً بالله تعالى
٤ - والقرآن الكريم قد نحا هذا النحو ذاته فى إيراد الأدلة التى تثبت بها للبشر وجود الله تعالى وقد علمت أننا كنا نأتى عقب كل دليل بالآيات القرآنية التى تتضمن هذا الدليل ، ثم ليس ماذكر من الأدلة ، هو كل ماذكر

في القرآن - كلا ، ففيه سواها أدلة كثيرة متنوعة بحيث يتطلب استيعابها غرضاً بذاته بل قوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم) هو دليل أى دليل في هذا الشأن ، وقد أشرنا إليه بعض الشيء في التمهيد الذي مهدنا به لأدلتنا بعنوان (أدلة وجود الإله المنعم) .

وفي قوله تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض) دليل كذلك على وجود الله نبيهنا إليه في موضوع (الانتقاء السكوني) حيث قلنا هنالك أن الآية تشير إلى عملية تحضير الغذاء ، حيث النبات يستخلصه من أعاليه وأسفله والحقيقة أن القرآن لا يقف على أمر يستدل به على وجود الله ، إلا إذا كان إتمامه يتطلب عقلاً وحكمة ، وتديراً وإنعاماً ، فلتأت النتيجة على أى وجه يكون - فما دامت تتطلب ذلك - فقد ثبت أمر الله . ثم في قوله تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) دليل قوى على وجود الله ، يصح أن نطلق عليه اسم - دليل التوافق - وناهيك بما يتطلبه التوافق بين شيئين ليكون صحيحاً من عناية وتدير ورؤية ، لا تجعل للمصادفة موضع ، والحقيقة أن التوافق البادى - عضوياً ونفسياً - في الناحية الجنسية بين إناث الخيوانات وذكراتها هو التوافق العجيب التام الذى يستأهل الاعتبار، ويحتم الاعتراف بالفاعل المدبر الرحيم ، خصوصاً إذا تدبرنا ما يعنيه هذا التوافق من مصالح عمرانية وغايات لا غنى عنها أبداً .

وفي قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم الخليل (وإذا مرضت فهو يشفين) يستدل بذلك إبراهيم على وجود ربه ، أقول : في تلك الآية دليل أى دليل على ذلك .

إن هذا الدليل لا يُقدره قدره ، ويُبدى الرأى فى قيمته العلمية ، ومدى مافيه من صواب غير الأطباء ، فهم رجال هذا الأمر ، الذين ينزلون من الجسم منزلة الحماية له ، ويعملون على تطهيره مما علق به من الأمراض - فهم يستطيعون أن يحكموا - إن كانوا وهم بسبيل ذلك من طب الإنسان - قد وجدوا يداً غير أيديهم تعمل لذلك أم لا - والعجيب أنهم لا يعترفون بهذه اليد فحسب ؛ بل يقولون إن مانعمله - إن هو إلا تابع للطبيب الداخلى المستور ، الذى لا تجاريه فى حذقه وفطنته ، وبصره بفضة كل أطباء الدنيا .

قال (پراسلس) الشهير فى هذا الشأن : (إن فى جسم الإنسان صيدلية خفية وطبيباً متوارياً عن العيون ، يصنع الأدوية ويصفها ويستعملها بحسب ما تقتضى الحال ، ولو لم يخلق الله تلك الصيدلية ، وهذا الطبيب ، لما أجدت مساعى جميع الأطباء) .

ووصف الدكتور (يونيه) هذه العوامل الوقائية والشفائية فى الجسم فقال : (تعلم أحسن من أى عالم من علماء وظائف الأعضاء أو من أى طبيب ما ذا يلائم العضو الضعيف من دواء ، وليس شأن العلم الراقى سوى تحريكها عند فتورها)

بل لقد دهش الدكتور (والتر كانن) العالم الفسيولوجى من استكمال أسباب وقاية الإنسان من كل طارئ حتى تسام : كيف يمرض الجسم مع كل ذلك ؟ .

إننا نعلم الآن كيف يحمى الجسم نفسه من الميكروبات ويحاربها حرباً كيمائياً لا أعجب منها ، ونعلم كيف هو يعمل بمهارة فائقة على جبر العظام

المكسورة ورقق الجروح ، بل وكيف يسد النقص الذى حدث فى الجسم
بسبب حادث لتظل أعمال الحياة تجرى له كما كانت .

إن إحدى السكيتين إذا استوصلت بسبب مآ ، نمت الثانية وزادت من
إفرازها ، لتؤدى للجسم الافرازات التى كانت تؤديها السكيتان معاً .

وقد أفاض الدكتور (الكسيس كاريل) الجراح العالم وحائز جائزة
(نوبل) فى كتابه (الانسان ذلك المجهول) ، الذى لخصه المختار عدد فبراير
سنة ١٩٤٥ أفاض فى شرح الوسائل العجيبة التى يقوم بها الجسم إزاء ما يصيب
أعضائه من كسر أو جرح ؛ ثم قال : (إن علينا بهذه الخطوات التى يتخذها
الجسم نحو الشفاء ، هو الذى خلق الجراحة الحديثة ، ولو لم يكن من الجسم
هذا السعى فى سبيل البرء لما استطاع الجراحون أن يعالجوا الجروح ، إذ لا
سلطان لهم على أسباب الشفاء ، وإنما يقتصرون على توجيه هذه الأسباب التى
تعمل عملها من تلقاء نفسها) .

فقد ظهر لك أن فى الجسم عناية إلهية كريمة تعمل على شفاؤه بعد أن
يمرض ، كما يقول القرآن الكريم بل وما الأطباء العلاجيون الذين نستند عليهم
إلا متعلقون بأذيالها وسائرون وراء خطوها كما قالوا هنا بأنفسهم ، وأنه لولا
هى ترشدكم وتهديهم ، أو تهى لهم السبيل هنالك لينجع دواؤهم ما فعلوا
شيئاً ، وأساليب العلاج التى تتطلب تمييز العلة وتعيينها ، ثم ابتداع العلاج
الذى يناسبها هو بالذات لا تخطئ .

هذه الأساليب تتطلب عقلاً حتماً وكل ما فى العقل من معانى الإدراك
والتمييز والفتنة والذكاء ، وتتطلب تدبيراً أكيداً ، وما يقوم عليه التدبير فى

مثل هذه الشئون من حكمة ، وقوة حيلة ووفرة علم - أى أن الأمر لا مصادقة فيه ، ذلك ما توحى الأحوال به ؛ ومن ثم صح أن يكون دليلاً .

ولما كانت هذه الأدلة علمية لا يعرفها إلا العليم بمجريات الأمور في الكون ، وفنّية جاءت لتتقى من مزائق ، وتعصم من شبهات فقد اتخذها القرآن دليلاً على الوحي وصديق الرسول الكريم (ص) حيث قال : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته)

ه - والدين الإسلامى ، وقد بنى عقائده على مثل هذه الأدلة القوية الحصينة - فقد ضمن لنفسه البقاء فى الأذهان .

أين ذلك مما كانت ترتكبه الأديان السابقة من خطأ ، حين كانت تعتمد إلى من تريد ، فتتوسل إلى بث أصولها فى قلوبهم بالتلقين والايحاء ليس إلا . لا عجب أن كانت سرعان ما تنهار ، لأن المنطق لما لم يكن حاكماً فى الموضوع - فقد كانت الأوهام تتسرب إلى العقيدة - والعقل مهما طال غفلته ، فلا بد أن يصحو - والجهل مهما امتد رواقه فلا بد أن ينقشع - وإذا ذاك يتلف الذهن فيراه يعكف على ما لا ينبغى ، فينفر نفوراً يأتى على العقيدة من أساسها .

ولذلك قال (غوستاف لوبون) « الآلهة ليسوا خالدين بسبب أن فيهم مثل مولوخ » وقال : (إن قدرة الديانات على تغيير روح الأمم ؛ قدرة فانية ، فقلها تدوم المعتقدات على قوتها الأولى زمنياً يكفى لتغيير الخلق تغييراً تاماً سببه أن قوة الأحلام لا تلبث أن تفترب ، ويرجع المأخوذ بسكرتها إلى اليقظة) .

وقد أعذر الدين الاسلامي بإيراد هذه الأدلة ، وبتحجيمه على من يريد
أن يقتنع أولا ، ويتدبر ما هو مقبل عليه لا يُقلد في ذلك أحداً ، لذلك تراه
وقد جعل الدخول فيه اختياريا بقوله (لا إكراه في الدين) قد جعل الردة
جريمة جزاؤها القتل .

٦ - والأدلة البرهانية ليست وسيلة لتكوين عقيدة فعالة ، تحرك الارادة
وتلهب الوجدان حتى ينقلب الدين إلى عمل - كلا : إنما هي تكون أكثر
ما تكون كمصفاة أو حارس يمنع الأوهام أن تدخل إلى القلب كما قلنا .
أما وسائل العقيدة الفعالة فهي العبادات ، وقد علمت اهتمام الدين الاسلامي
بها ، والذكر وقد جعل الله له الشأن الأكبر حتى قال القرآن : (إن الصلاة
تهي عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر)

وكثرة التأمل والتفكير في مصنوعات الله تعالى ليشمل الانسان النعم
المتراصة الواصلة إليه ، فتنبج في نفسه عاطفة الشكران والحب .
لا يستغنى تكوين العقيدة الصحيحة الفعالة عن أي من الأمرين كان ،
فعقيدة لم يؤيدها البرهان ، ولم يحرس العقل قيامها وبناءها - فيها الدخيل حتما
وعقيدة قامت على البرهان ولم تتول الوسائل الفنية لإثارتها والنفخ فيها -
تظل هاجمة .

أما تراك أمام دين عجيب قد فصل على علم - إنه سماوى لا أستطيع أن
أقول غير ذلك - وحجتي واضحة لا يمارى فيها .
فالبشرية لا تعرف الهدى إلا بعد الوقوع في الضلال ، ولا تدرك أن
النار تلذع من غير أن تكون قد لدعتها فعلا - ذلك ما نعرفه من تاريخ

اكتشافاتها وعلومها وثقافتها - وكل ما وصلوا إليه من ابتداع وفن .
فما بال الأمل يأتى بدين مفصل على أسس علمية ، لا علم له بها من
الأول ، وفيه وقايات واحتياطات لأمر لم يعرف بعد ما هي وكيف تكون
وعلى أى وجه تكون - إن ذلك لا يتأتى مطلقاً .

هل يمكن أن أكون واحماً ؟

أعرف أنى أعتقد بوجود الله استناداً على هذه الأدلة اعتقاداً جازماً
لا يشككنى فى ذلك مشكك ، ولقد اطلعت على كل ما نالته يدي من شبهات
الملحدون وقرأتها بتدبر واهتمام شأن من يعنيه الأمر أوفى عناية ، بل شأن من
وهب حياته لبحث هذه الحقيقة ومعرفة أمرها ، وغاية البحث فيها على أى
وجه كان .

ومع ذلك كنت أضحك من سخف هذه الشبهات ، وأرى بعيني رأسى
غفلة أولئك السادة العلماء الذين أوردوها ؛ على ضخامة الألقاب التى يحملونها
والشهرة الواسعة التى لهم فى هذه الدنيا - وليسكنى كنت أعود إلى نفسى من
حين إلى حين فأسألكم : هل يمكن أن أكون واحماً ؟

إن العقل البشرى الذى به نعيش ، وعلى سنن منطقته نحكم ، وباستدلالة
نقتنع - له ماض مريب واحمر تاه .

عند ما ترامت لنا أخبار الراديو ، وشرحت لنا مهمته ، وذكروا لنا أنه
سيؤدى عمله ، ولا وصلة تكون بين محطة الإرسال والسماع - كذبنا جمد

ما نستطيع ، وقلنا محال أن يكون ، وكنا نبني حكمنا طبعاً على أمور نظنها صحيحة ، ولا نشك فيها ، ثم لم نلبث أن وجدنا فكرة الراديو قد تحققت فعلاً بالرغم عنا ، وبالرغم من تفكيرنا وحكمنا .

وحينما بشر العلماء بالتلفازة - قلنا أما هذه فلا يمكن أن تتحقق - وماذا تعمل التلفازة في الحواجز الكثيرة القائمة بين المرسل والمستقبل تمنع الرؤية ؟ ولكن سرعان ما ظهر أن ذلك التفكير كان ضلالاً في ضلال - وإذا بالتلفازة تكون ، وتأخذ مكانها في الوجود كحقيقة واقعة .

ولقد فعل من كانوا قبلنا مثل ذلك بالتليفون والتلغراف - فأخلفت الأيام ظنهم ، وأظهرت لهم أنهم في تفكيرهم كانوا خاطئين . ولقد جاءت الفلسفة الحسية ؛ وأساليب البحث الحديثة تحتم علينا أن نتبع نهجها ، وترينا التركة المثقلة بالأوهام التي ورثناها عن الماضين ؛ فوجدنا كلامها حقاً ، وتنفسنا تنفس الراحة والأمان ، وظننا ألا خوف علينا من الضلال بعد اليوم - ولكن كلا .

ما هي إلا خطوات ، وإذا بنا نهوى ، بل ويهوى منا أكثرنا تحفظاً واحتياطاً - هم الماديون أنفسهم - الذين يقولون لا نحكم إلا بما نلمس ونسمع ونرى - قالوا بالتولد الذاتي ، وبنوا حكمهم هذا على أمور شاهدها طبعاً ، ولكن سرعان ما ظهر أنها كانت أوهاماً في أوهام .

ومضى العلم التجريبي يختبر المسألة في مخبره ؛ ويكررها خشية الضلال ، ثم هو لا يكاد ينطق بالحكم الذي رآه بعينه ويقول : إن المادة لا تزيد ولا تنقص ، ويترك القول ليتلفّت فإذا بالأيام تقول له : إنك مخطئ - إن المادة

تفنى وإنك وإهم ، ولما جاء القول بسكروية الأرض ، عارض في ذلك المعارضون بحجة أن ذلك لا يعقل ، وأنه لو كان الأمر كذلك ، لهُوى من على الجهة المقابلة - فإذا بكل ذلك ضلال ، الأرض كروية بالرغم عنهم ، ومن على الجهة المقابلة يظل عليها ولا يهوى ، ونحن نكون حيث هم في كل يوم مرة ؛ وليس فينا من يهوى أبداً .

ولقد عارض في حركة الأرض اليومية من قبلنا ، (أفلاطون) نفسه و (ارخميدس) وهما ما نعلم عبقرية ونبوغاً - فاعجب لذلك ما شئت .
وبالله إذا كان ذلك شأن العقل ، وتلك أخطاء تفكيره - لم يسلم منها لا العاديون ولا العبقريون - فكيف نثق به ، ونطمئن إلى ما يقرره في العقائد أو سواها ؟

ولقد عاش العالم قرونًا وأحقاباً ، على فكرة أن العناصر التي يتكوّن من مجموعها كل ما في الكون أربعة : ماء وتراب وهواء ونار ، فجاء العلم الحديث فرفض لهم ذلك بجرّة قلم ، وبرهن على فساده فأكبرناه جهده ما نقدر ، واطمأننا إلى كنفه ، وإذا به هو نفسه يخطئ خطأ السابقين حين قال : إن المينيزيا عنصر ، والجير الحى عنصر ، وكذا الماء واستمر على ذلك لم يتخلص نهائياً من هذا الثالوث المركب من الوهم ، إلا في القرن الثامن عشر ، حيث حلل (كفنندش) الماء آخر هذه الأشياء إلى عنصريه .

ولما جاء (لا فوازييه) فتنبه إلى تلك الغلطة المزمنة ، التي مرت بأكبر الأدمغة طيلة القرون المتلاحمة - غلطة أن الماء يتحول إلى طين ففندها - ثم

عاد فأبطل فكرة (الفلجستون) المضحكة في عملية الاحتراق ، وكانت قد شاعت كذلك وأزمنت ! علقنا الآمال الكبار ، بذلك العبقرى رجل العصر الذى ساقه الزمن ، وقلنا أما هذا فلن يضل من عجز ، ولن تفته فائنة ولكن كلا إن عقله لم يجوز أن تنزل الأحجار من السماء وهو حقيقة فكذب من قال بذلك وعارضه ، فبرهن بعمله هذا على أن عقله لم يكن معصوماً من الخطأ ، وأن الوهم يجوز عليه كما جاز على سواه .

الواقع أن الأمر مفرع جداً ، ومروع للغاية - ولا ندري إذاً أنى يكون لنا الأمل فى الهدى ، والسلامة من الضلال .

أقول :- إن السبب فى خطأ تلك الأحكام التى مرت وغيرها - هو جهل الإنسان بخصائص الأمور التى يحكم عليها ، أو فهمها على غير ما هى عليه فى الواقع - فمثلاً فى الراديو إننا كذبنا وحكمنا باستحالته ، لأننا كنا نفهم أن الصوت يتلاشى بانقضاء صاصله عن أذن قائله ، أو استقباله به الرياح وتدبير إن كان سيكون له بقاء بعد ذلك - فأنى يصل إلى جهاز الراديو الذى هو هنالك فى أطراف الأرض ينتظره ؟

هذا هو مساق حكمنا - ولكن لو كنا فهمنا الأمر على حقيقته فعلينا أن الصوت لا يتلاشى ، ولا تبعثره الرياح المتلاطمة ، بل يظل يسرى فى مسراه فى مستوى خاص من سطح الأرض حتى يعم الدنيا كلها ، وأنه على ذلك سيصطدم حتماً بجهاز الراديو الذى ينتظره فى أى من جهات الأرض كان - لعلمنا أن أنسكارنا السابق لم يسكن له من داع .

والذين قالوا بسقوط من على الجهة المقابلة من الأرض - حكمهم هذا

ترتب على خطأ فهمهم في الثقل فظنوه ذاتياً في الأجسام ، ولو علموا أنه أثر من آثار جاذبية الأرض ، وأنها كما تجذب من وما - عندنا - فهي كذلك تجذب من وما - في أى جهة من جهاتها يكون - لعلوا في الحال أن هذا القول الذى قالوه لا معنى له - ولفهموا - كما أرتهم الأمور - أن من على الجهة المقابلة لا يهوى ولا يمكن أن يهوى .

(ولا فوازيه) إنما أنكر سقوط أحجار من السماء لأنه لم يشاهد ذلك واستبعد أن تأتى الأحجار من السماء ، قائلاً حسب فهمه ، ومن أين تأتى الأحجار من السماء ؛ وكتب إلى الجمعية العلمية بحثاً مسهباً يثبت لها فيه استحالة ذلك مطمئناً إلى ما فعل ، ولو أنه علم أن هذه نيازك لا يخلو الجو منها لعلم الأمر على حقيقته وجوز حصولها ولما أنكر .

والذين قالوا بالتولد الذاتى إنما قالوا به لأن الأمور نفسها كانت توحى بهذا القول ، كانوا يأخذون المادة بعد أن يبحثوها جداً ويفتشوها للغاية ، حتى يعلموا خلوها من ديدان وحشرات ، مستعينين على ذلك بكل وسيلة ثم يضعونها بعد ذلك فى إناء محكم ؛ يحكمون غطاءه ما شاموا بل ويحمونه بالقصدير والنار ، ويتركونه مدة ثم يفتحون ، فإذا بالمادة تشتمل على ما لا يحصى من حيوانات تدب ديبباً ؛ وتلوى تلوى ، وإن لونها ليشابه المادة تماماً ، وإذا فصلوها ثم وزنوا المادة وحدها ، وجدوها قد نقصت بقدر هذه الحشرات فهل بعد ذلك كان العقل يقول بغير ما قالوا ؟

والخطأ جاءهم من أنهم لم يفهموا أن هذه الديدان إنما كانت لها بذور من الأول فى الهواء الذى كان مع المادة داخل الإناء ، فأغلقوا الإناء والهواء فيه

بذوره فأفرخت ، فصار مارأوا ، ولما كانت هذه الحشرات ستترى من نفس المادة ، وتبنى بناءها من أديمها ؛ كان طبيعياً أن يكون لونها كلونها ، وأن تنقص بقدر حجمها - فالأمر كما قلت نقص علم بالموضوع .

وقس على الراديو التلفازة والتليفون والتلغراف ، وقس على خطأ القول بالتولد الذاتي الأخطاء التي كانت في القول بالعناصر قديماً وحديثاً .
فالباحثون يرون الظاهرة ، فيقولون بها حسب ما بدا لهم ، وغير ذلك لا يستطيع .

غاية الأمر أن سلسلة هذه الأخطاء ، قد أكتسبت الباحثين بعد نظر أكثر ، وحرماً في التعبير أتم ؛ وإلقاء الحكم على أنه ليس حتماً أن يكون صحيحاً ، بل على اعتبار أنه قابل للتمحيص ، بل والعدول عنه إذا لزم الحال .
كما صاروا أكثر مرونة لقبول الآراء الجديدة مهما وجدوها لا تتفق مع الذوق العقلي لأنهم عرفوا أن الذوق العقلي يرفض الجديد لا لشيء إلا لأنه غير مألوف - وما ألفناه ليس كل شيء .

فالعقل الانساني لم يخطئ الخطأ بمعناه كما إذ تطلب إلى الكاتب أن يكتب اسم محمد فكتب أحمد ؟ كلا

هو بنى أحكامه على أمس فاسدة قدمتها أنت إليه - فما ذنبه ؟ الذنب ذنبك أنت ولا حرج عليه ولا مظنة في حكمه ولا شبهة - ألا ترى لو كانت الأمور على حسب ما فهم الخاطئون لما كانت الأحكام فاسدة مطلقاً ! .

لو كان الثقل ذاتياً في الأجسام كما فهم معارضو كروية الأرض لهوى حقاً من على الجانب الآخر كما قرر العقل ، ولو كان الصوت يتلاشى في غمار

الغضاء كما كنا نفهم ، ونحن نعارض فكرة الراديو ، لكان الراديو لا يكون كما قال .

نعم الاعتذار عن العقل لا يؤخر شيئاً في المسألة ولا يقدم ، ومخاوفنا لا تزال كما هي سواء أكانت الأخطاء مرجعها إلى العقل أو إلى نقص العلم - النتيجة واحدة في الحالين ، وهي الخوف والقلق ، والاشفاق والحيرة ، بل إن نقص العلم لا حيلة لأحد فيه - فطيلة ما بقينا على سطح الأرض ففي كل يوم نكشف جهلاً ونصلح فاسداً .

أى أننا اليوم على جهل لا يصلحه إلا الغد ، ذلك هو الحال وسيستد ما امتد الزمن .

فهل من باب للفرج نستطيع أن نلجأ إليه ، يؤمن مخاوفنا ويجعلنا نطمئن إلى صحة الأحكام التي تصدرها ، آمنين حقاً أن نكون قد وقعنا في مثل تلك الأوهام التي مرت - والتي قلت إن مشارها نقص العلم - ونقص العلم ليس مما يثقي ؟

أقول : نعم الباب موجود ، وهو مأمون العاقبة جداً ، ومطمئن للغاية وبالرغم من نقص العلم الذي يلزم كل كائن حي على وجه الأرض من يوم أن يحيا إلى يوم أن يموت ، فذلك الباب مع ذلك ، وبالرغم من كل ذلك ، ليس بالذي يشكك أو يريب .

ذلك أن تلك الأخطاء التي مرت نجدها - لو تدبرنا - أخطاء لفظية ولم تكن أخطاء عملية بحال .

فأولئك الذين قالوا إن العناصر أربعة - نعم هم قالوا هذا القول وأخطأوا

في قوله ، ولكنهم لم يخطئوا في شيء بعد ذلك .

كانوا مع خطئهم في الفهم السابق ، مصيبين في كل شيء يعملونه بهـ هذه الأشياء ، كانوا يستعملون الماء في الشرب ، يعتقدون أنه يطهى غلة الصادى ، ويغسلون به الملابس ، يرون أنه ينظفها ، ويسقون به الزرع يعتقدون أنه يحييها ، ولم يكن الماء بالذى يخلف ظنهم في شيء من ذلك .

وقل مثل ذلك في التراب والوجوه التى يستعمل فيها ، وقل مثل ذلك في الهواء والنار - فماذا يضير الفهم السابق ، والكلام السابق ؟

الوجود لا يبالى بالكلام ، ليسكن الكلام ما يكون - حق لو قالوا عن الأبيض أسود ، ما بالى الوجود بذلك ، فهو أعقل من أن يحاسب على الكلام ؛ أو يقيم له وزنا .

ولكن حينما ينقلب الأمر إلى عمل - ترى الوجود لا يسكت على ذلك أبداً .

فمثلا لو أنهم ظنوا أن كل سائل ماء ؛ حتى السم ، ثم بدأوا يستعملون هذا السم المائع ، فيما يستعمل الظمآن الماء فيه ، فسرعان ما تعطى الأمور هذا المخطئ درساً لا ينساه ، إن أراد الله وسلم . وتعطى من حضره ؛ وكل من سمع به مثل هذا الدرس ؛ وبظل هذا الحادث حياً في الأذهان يتناقضه الخلف عن السلف ، ويندفع لفهمه ودراسته والعبرة به كل من سمع به .

وكانوا يرون أن الماء يتحول إلى طين ! ابروا ما شاءوا - يتركهم الوجود ليفهموا الأمور كما يفهمونها ؛ ولكن إذا أخطأوا عملياً كان في ذلك العظة البالغة . هبهم ظنوا أن التراب يغذى الأحياء كما يغذى الزرع ، واستعملوا التراب

في ذلك . أفما تراهم يفتبهون في الحال ، ويعلمون خطأهم في التو والساعة ، أو في نفس اليوم على الأكثر ؟

هذه ناحية مطمئنة - فكل شيء عملي - ظهرت صحته عملياً - لن تكون في صحته شبهة ولا ريبه ، وسواء أكننا في العصر الحجري ، أو في العصر الذري ، فالحال هو هو - الأمور العملية لا تخدع أيأ من الطرفين كان ، ولا تخابى فريقاً على حساب الفريق الآخر مطلقاً - ولعل هذا النوع من التسديد هو باب من أبواب الفرقان السكوني العظيم .

الناحية المطمئنة الثانية ؛ هي ثبات النواميس واطرادها - فما ثبتت صحته في وقت يظل صحيحاً على طول المدى لا يتخلف ، ولا يعود فينكص فإذا كان (ابقراط) قد اكتشف علاجاً لمرض ، وهو ما نعلم - بعداً منا وتغلغلا في القدم - فإننا لو استعملناه نجد مثل النتيجة التي رآها هي هي بدون فرق ، وبدون خلاف أبداً .

وإنك لتجد أساليب العلاج تتطور ويدخل عليها التحسين ، ولكن هل معنى ذلك أن الأساليب القديمة التي ظهرت صحتها عملياً حينذاك - قد صارت الآن فاسدة ؟ كلا .

وإنما التطور والتحسين ، إنما هو في الحصول على نتيجة أحسن ، أو الوصول إلى العلاج من طريق أقرب ، أو بكلفة أقل ، أو بحالة لا تترك أثراً ينبغي ألا يكون مثلاً وهكذا - وهذا هو السبب في مداومة البحث للترقى بالعلاج ، والعدول عن أساليب قديمة إلى أخرى جديدة .

على هذا الأساس ، وهو كافينا فيما نحن بسبيله من إثبات الألوهية والاستدلال

عليها - نقول : إن الأمر قد وضح ، والطريق قد استبان ، وصرنا في أمانة مطلقة ، وعلى حظ كبير من الثقة والاطمئنان .

إننا نستدل على الألوهية من هذا الطريق العمل نفسه ، شهدنا التدبير في العمل السكوني فحكمنا بالمدير ، وأدركنا التقدير في العطاء فأدركنا حكمته ، ووجدنا الرحمة فيما وصل إلينا منه فشهدنا بانعامه وعنايته وقصده الكريم - هل ذلك مما يحتمل خداعا ، أو يجوز أن يكون سواه ؟ كلا !

إن البشرية ما حذقت شيئا حذقتها لآثار العقل وآثار الجنون ، ومعرفة نتائج التدبير والفوضى ، والتمييز بين الصواب في العمل والخطأ فيه ، فذلك هو الأساس الذي تقوم عليه حياتها ، وتتوحد عليه صلاتها ببعضها ببعض ، وتجرى عليه شئونها وأعمالها ، سواء أكانوا جهالا أو علماء ، وأغبياء أم أذكيا . وإن أيّا منا يكون : صغيراً أو كبيراً ، عالماً أو جاهلاً ، ليأتيه المجنون فيدرك جنونه بمجرد الحديث معه ، أو بمجرد مراقبة عمله ، يدرك ذلك إدراكاً صحيحاً لا شبهة فيه ولا ظنة ، وكل من رآه يدرك ذلك في الحال من أول إنسان في البلد إلى آخر إنسان فيها ، ليس فيهم من يخيل عليه الأمر أبداً - فماذا بعد ذلك نبغي ؟

وقد قلنا إن الأمور ثابتة ، وحافضة لحالاتها وأصولها التي تجري عليها ، ما بقيت السماء والأرض ، فما أدركنا الآن ، أنه نتيجة لتدبير وعقل وحكمة وإدراك ، ولا ينأى حدوثه من غير ذلك أبداً - يظل هكذا في كل زمن مضى وفي كل زمن يأتي ، لا بد لكي يكون من افتقاره إلى فاعل متصف بهذه الصفات لا يخالف الأيام ظن الإنسان في هذا الأمر أبداً .

صفات الله تعالى

هى ما ذكره الله تعالى فى القرآن الكريم ، واستنبطه المجتهدون من علماء المسلمين من الوجود والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس والوحدانية والقدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام الخ .
تلك هى الصفات الكريمة التى يطالبنا الشرع الشريف أن نعتقد بها لله ويلزمنا ألا نستبدل بها سواها ، وألا ننقص منها أو نزيد عليها شيئاً ، اللهم إلا اعتقاداً إجمالياً بأن لله كمالات مطلقة أكثر مما تعنيه هذه الكلمات ، لا تحد بحدودها ولا تقع تحت حصرها .

ونحن إذعانا للشرع الشريف ، واتباعاً لتوجيه القرآن الكريم ، وتأيداً للعلماء المجتهدين ، نقر لله تعالى بهذه الصفات هى نفسها لا منقصة منها ، ولا مزيد عليها ، ولا مستبدلين بها سواها .

وقد قلنا سابقاً : إنه ما ألقأنا إلى تلك الصفات التى ذكرناها تحت عنوان (تحديد سمات الألوهية) والتى تبدو كثيراً فى تعبيرنا من العقل والإدراك والقصد الخ ، إلا شبهات الملحدين ونوع تلك الشبهات ، فاضطررنا إلى البحث عن صفات نتم عنها مصنوعات الكون تكون قاضية على هذه الشبهات ؛ ومريحة لها ، ومخلصة لنا من أوهامها - فعلنا ذلك ؛ وسنفعله كلما وقفنا من تلك الشبهات موقفنا آخر ، على أن يكون اعتقادنا بعد أن نفرغ هى ، تلك الصفات الشرعية المذكورة لا نستبدل بها سواها مطلقاً .

فتكون لنا مندوحة عن اعتقاد العقل والإدراك صفة الإنعام ، وعن
القصد صفة الإرادة وهكذا .

وقد قلنا إن صفة المنعم تؤدي أداء صفة العاقل وما يتبع العقل من إدراك
وفطنة ، لأن المنعم قد عرف ما يلزم ، ومدى ما يلزم ، فقدمه وذلك ما يشهد
بعقله وإدراكه حتماً - انطوت هذه الصفات التي استلزمها الحادث تحت كلمة
المنعم التي اختارها الشرع الشريف فهي أولى بالاختيار .

والصفات السكرية التي قامت الدلائل العقلية على نسبتها لله تعالى تكون
ثابتة له ، وسواء اعتقدناها أم لم نعتقدها ، فهي ثابتة ، ولا يتأتى نفيها بحال .
لا يتأتى أن يكون القائم على النظام الكوفاي العجيب المتناسق أكثر من
واحد ، ولا يتأتى أن يكون من خلق الخلق ، غير عليم بما خلق ، وإنما قد
طربنا باعتقادها ، والأمور نفسها كانت توحى بذلك وتحتمه ، لأن الإنسان
كثيراً ما يغفل عن نتيجة كانت تستنتج من مقدماتها ، لا شيء إلا لغفلة الإنسان .
ولأن خيراً كثيراً يترتب على هذا الاعتقاد يحدث في حياة الإنسان
لا تقوم للإنسان قائمة بدونه ، ولا يكون للدين أى أثر في نفسه بسواه .
إليك مثلاً اعتقاد الإنسان برقابة الخالق عليه وعلمه بظاهرة وباطنه
وسره وجهره .

لهذا الاعتقاد أثره العظيم في حياة الإنسان ، فهو إذ يعلم أن الله يعلم كل
خير يفعله الإنسان ، وسيكافئه عليه أحوج ما يكون إلى ذلك ، وستكون
المكافأة أضعافاً مضاعفة .

وباعتقاده أن كل شر يقتضيه، يسيء إلى سواه ، أو يضر به هو نفسه
فسيجازى على ذلك أسوأ الجزاء ، وسيعذب العذاب الأليم .
طبيعى اعتقاد كهذا يجعل الانسان أنشط إلى الخير، وأبعد عن السوء ، لقد
أجمع الساسة على أن الانسان لا يُساس إلا بالرغبة والرغبة ، وملاك الرغبة
والرغبة هو العلم الذى يجعل أثرهما نافذاً ، وإلا فما خوف الانسان من الأسد
القوى الفاتك ، إذا صار أصم وأعمى ، وما قيمة عمل لك تزارله تبغى أجره
من جهة لا تعلم هى ماذا فعلت ؟

ومن ثم ترى القرآن الكريم يأتى عقب الترغيب والترهيب بما يفيد أن
الانسان معلوم عنه كل شيء ؛ ومحصى عليه كل شيء ؛ قال تعالى (واتقوا الله
ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم) وقال (فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا
عليهم وكفى بالله حسيباً) وقال (وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون
خبيراً) .

وعلى هذا الأساس ، قام أمر الدنيا لا يعطى العامل إلا جزاء على عمل ،
ومن يهمل يحرم بقدر إهماله ، ومن يسيء يعاقب بقدر إساءته ، ولكن ما الذى
يجعل هذا التشريع فعالاً يحدث أثره فى نفس العامل ويجعله يعمل حسابه
ويستجيب له ؟ .

هو اعتقاد العامل بأنه مراقب ، بواسطة التفتيش الذى لا يخلو منه أى
عمل ، ومحصى عليه كل شيء ، تسجل عليه أخطاؤه ، كما تحفظ له حسناته ،
وعلى ذلك فكل ما وعد به أو أوعده به سينفذ فعلاً .

وباعتقاد الانسان فى قدرة الله ، التى لا يحد مداها تراه مؤملاً فى الخير

والرجاء إلى غير حد أيضاً ، وسنتكلم على ثمرات الاعتقاد بالتوحيد عقب الكلام عليه ، وهكذا لكل صفة آثارها وأهميتها ، تراها إما لرفع شبهات وضلالات ، قد يتعرض لها المتدين في فهم الذات الإلهية أو لشد أزوال المتدين وإحياء أمله ، أو لقمعه عن المنكرات وهكذا .

ولقد علق (غوستان لوبون) أهمية كبرى على نوع الصفات التي يعتقدها المتدين في إلهه المعبود ، واعتبرها إما وسيلة لرفعته ، وعظيم شأنه في الحياة ، أو سبباً لكمونه وانحطاطه فيها ، واستشهد على صحة نظريته ، هذه بالمسلمين والبوذيين قال : (إن الآلهة التي تغالت في التسامح واللين لا تشد عزائم عبادها ومن أجل ذلك ساد أتباع محمد بتشده ، وامتد سلطانهم على قسم كبير من الدنيا زمناً طويلاً ، ولا تزال لهم خشية في النفوس ، وأما أتباع (بوذا) الهادي فأنهم لم يأتوا عملاً باقياً وقد نسيهم التاريخ) .

التوحيد

إذا دخلت على آلة ميكانيكية ، وأخذت تتأمل حركاتها ، واتجاهات أدواتها — فما أعجب ما ترى ، إنك واجد شيئاً غريباً حقاً ، مدهشاً للغاية ، ففنون من الحركة وأفانين من الاتجاهات ، لا تدري كيف تتلام ، هنا حركات تدور أفقياً ، وأخرى تتجه رأسياً ، وغيرها تبدو راقصة وهكذا ، ثم فيها حركات مسرعة لا يسكاد يلاحقها الفكر ، وغيرها تبدو بطيئة يتركها الانسان — إذ يتابعها — مللاً من بطئها — وغير ذلك كثير .

إنك لو حاولت أن تترقى بين هذه الحركات ، وتعين الوظيفة العملية لكل منها فلن تسلم من الزلل . إذ سر ذلك للبيكانيسكيين المتخصصين وحدهم .
ولسكنك على جهلك هذا تستطيع أن تقرر حكماً صائباً يشهد بصحته المهندسون جميعاً . أتدرى كيف ذلك يكون ؟

اترك هذه الحركات جميعاً وارقب الغاية الأخيرة للآلة وقل مثلاً : إن غرض هذه الأدوات المتعددة ، واتجاهاتها المتباينة ، هو إدارة الطاحونة مثلاً أو الطلمبة ، إن كانت الآلة معدة لطحن الحبوب أو رفع الماء .
أفتظن أحداً يستطيع أن يخططك في هذا الحكم ؟ طبعاً لا .
إذا فاتبعني لئراقب الكائنات على هذا الأساس المضمونة صحته .

لنترك إذا شروق الشمس وغروبها ، ولنترك إقبال الرياح وإدبارها وصعود القمر ثم انحداره ، ولنترك الحرارة وهي تبخر الماء ، والبرودة وهي تعيده مطراً . ولنترك الضوء إذ يسطع على النبات فيفعل فعله فيه - لنترك كل ذلك جميعه ولنرفع رؤوسنا فوق هذه الاحداث وسواها لنرقب النتيجة
إنك تراها هكذا :

ينمض النبات فيزبن الارض بنضرتة ، ويهيج الجو بروائه ، حتى إذا استوى على سوقه وتكامل نضجه ، صار طعاماً شهيأ للحيوانات ، يأخذ كل منها ما يناسبه فيراه صالحاً تماماً لتغذيته - فما تزال الحيوانات تأكل فتتمو ، ثم تأكل فتتمو حتى ينتهى أجلها المكتوب ، وتموت ، وتترامى على الارض أكباداً من اللحم فاذا بجيش لجب من البيكتريا ينتظر ساعتها ليحيط بها من كل جانب ، فيفكك أجزائها ويحلل تماسكها ويعيدها كأصلها عناصر جمادية كأن لم يكن لها

بالحالة الحيوانية عهد، فما يسر هذه النتيجة المحزنة غير النبات . إذ هي بصورتها هذه قد صارت له غذاء ؛ ولولاها لما كانت تصلح له غذاء أبداً . فيقوم الجيل الجديد من النبات ، وحق له أن يقوم ؛ فقد تهيأت له أسباب الحياة وسبل العيش . فما يكاد يتكامل حتى يجد الحيوان الجديد ينتظره وهكذا .

فما ترقب إذ ترقب إلا أن الكائنات قد استحالت إلى سلسلة دائرة ذات حلقات ثلاث ؛ يفضى كل منها إلى الذى يليه ، ثم تعود الدورة ثم تعود وهكذا ما بقيت السموات والارض .

النبات إذا يصير حيوانا ، والحيوان يستحيل جمادا . ثم يعود الجماد نباتا وهكذا دواليك .

وهذا هو الغرض من الحركات السكونية المتعددة واتجاهاتها المتنوعة قد تضامت أخيراً وتلاقت فى النهاية كما تلاقت حركات أدوات الآلة وهى اشتتات عند غرض الآلة الأخير الذى تعمل له . إلا أن فى الأمر نقطة تستدعى النظر فتهيئة النبات ليسكون غذاء للحيوان ، لا يأتى كيفما اتفق ، لابد من مراعاة لون الحاجة عند الحيوان وتهيئة النبات بحسبها كما يراعى ذلك من شاء أن يقدم غذاء لآى كائن حى ، فيعرف نوعه وما يمكن أن يغتذيه ثم يفعل - وكذلك الحال عندما تعمل البيكتريا فى إعادة الكائنات الحية جمادا يمكن أن يغتذيه النبات . وهنا نقطة أخرى تستدعى كذلك التعمق فى التفكير أكثر :

فالنبات السكى يهيء غذاء صالحا للحيوان ، لابد أن يجد ما يكون هو فى نفسه صالحا للتقديم - وإلا فما حيلة الطاهى الذى شاء تغذية زائره إلا أن المطبخ كان خاليا بما يلزم لزائره .

والبيكتريا حين تنهال على الحيوان لتفككه وتحل عناصره ليكون للنبات غذاء لا بد أن تكون الحيوانات هي نفسها مشتملة على كل العناصر اللازمة وإلا لعجزت البيكتريا غير ملومة .

فالمسألة كما إذا شاء شخص أن يجعل قطعة من القماش قبعة وقتاً ، ثم يفكها لتكون منديلاً ، ثم يضمها لتكون حزاماً ، لا بد من شاء هذا التشكيل في قماشته ، أن تكون هي نفسها صالحة لهذا التنويع وإلا لعجزت القطعة أن تتشكل هكذا .

وعلى ذلك فهو من الأول ؛ سينتار قطعة يحورها بطريقة فنية بارعة ، كي إذ تضم أطرافها من هنا تكون قبعة ، ثم إذ تنبسط تكون منديلاً ، ولها صورة المنديل ، ثم تضم أطرافها بشكل آخر فتصير حزاماً .
فصاحب هذه المشيئة المتنوعة ، لا بد أن يراعى كل هذه الأطوار ، ويعمل حسابها كلها ، من الأول عند التحوير لتتم مشيئته كما أراد .
وكذلك حركة الوجود ، يدل تلاقيها ، ثم تناسقهما عند التلاقي ، على أنها نتيجة لمشية واحدة ، ذات ابتداء واحد ، وتدبير واحد ، وإلا ما كانت تكون هكذا أبداً .

واترك هذا الأفق الأرضي المحدود ، وانظر إلى أعلى - إنه لا سبيل لك إلى أن تمثل ما هنا لك - إذا فاهرع إلى رجال الفلك والمراسد والتلسكوب واسمع إلى ما يقولونه عن المجموعة الشمسية ، والمجموعات الأخرى ، حتي حدود المجرة ثم ما يلي ذلك من مجرات ومجرات .

لقد قالوا إن التناسق في حركات كل هذه الأجرام بديع ؛ والتوافق بحكم للغاية .

ومن ثم ترى (السير جيمس جينز) العالم الانجليزى يقول عن الكون بأجمعه (إنه فكرة عظيمة) .

وأصبح ذلك في حكم المقرر المفروغ منه حتى أشار إليه ؛ (بنجر) الملاحد نفسه حيث قال (لم يشاهد أبداً في أى مكان ، حتى في أبعد مدى من الفضاء ندركه بالتلسكوب حادثة شاذة عن النظام) .

أليس ذلك يدل على أن نظام الكون يهيم عليه تدبير واحد ، وإرادة واحدة ، وإلا لاختلفت حركته ، وفسد نظامه ، ولذلك قال القرآن الكريم (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) أى السموات والأرض وأستطيع أن أصور لك هذا الفساد ، وكيف يكون بأمور مما حولنا :- هبك في متجر لك شريك فيه ، متمرد عليك ، يتصرف كما تنصرف لأنه - كما يقول لك دائماً يملك فيه مثل ما تملك فيه ، ولا يستشيرك قبل أن يتصرف ، لأنه حر ، كما يجيبك إذ تسأله - فلبسته على علاقته ؛ ومضيت معه تظن أن الحال يمكن مع هذا الخلف أن يسير - أفما تراك إن تتعاقد على بيع سلعة في المتجر ، قد يكون سبقك إلى بيعها ، فما عمالك فاعلامع من تعاقدت معه ؟ وليس في المتجر سواها . وإن اتكلت عليه في البيع وواتتك فرصة صالحة ، أفما تراه ، قد يكون انكسر عليك هو الآخر ، فتضيع الفرصة النادرة ، فيخسرها المتجر ولا عوض لعمري إن ذلك لا يطاق - ففيه مسؤوليات خطيرة ، وخسارات محققة ولا يستقيم معه حال .

وافرض بيتاً لم يخصص أمر الصرف فيه ، واستحضر اللازم لشخص بعينه ممن فيه ، أفما ترى أن هذا قد يأتي بلوازم العشاء مثلاً ، في حين أن غيره كذلك قد يكون جاء بها ، إن لم يكن كل منهم قد فعل ، ولا عجب فالعشاء شيء لازم كل منهم يفكر فيه ، ولا يمكن أن يغفله ، فانظر ما أنفق من نفقات بدون داع . وفي اليوم التالي إن استمر الحال فاما أن يتكرر الحادث هو نفسه ، أو يتشكل كل منهم على صاحبه ، فيأتي وقت العشاء ولا عشاء ذلك ما يكون حتماً

ولذلك ترى الناس سواء أ كانوا جهالاً أو علماء ، لا يلقون الأمر على عواهنه هكذا ، حتى يدب الفساد إليه .

ونستطيع أن نسلک إلى إثبات التوحيد طريقاً آخر ، غير طريق الحركة العمالية في السكون فنقول :

وجه نظرك إلى بناء أى شيء في السكون تصل إليه يدك من معدن أو حجر أو رمال أو ماء أو هواء أو نبت أو حيوان - وجه نظرك إلى أى شيء مادي في الوجود يكون ؛ وتأمل في نظام بنائه : إنك واجده في الجميع هو هو لاخلاف فيه أبداً كل شيء مادي في الوجود أساس بنائه الذرات تتجمع لتكون جزيئات تخليقات حية إن كان نباتاً أو حيواناً - أو بلورات إن كان جماداً جامداً ثم المسام المضبوطة وهكذا

إذا فالمنظم واحد لا شك في ذلك ؛ والجميع خريجة يد صناع واحدة ، ولماذا لا ، والخطوة العملية في الجميع لا تتغير

إن الباحثين يستدلون بأن الفنون المصرية مثلاً نقلت إلى الاغريق لوجود المشابهة بين الفنين وكذلك يقولون بالفن الروماني مأخوذ عن الفن الاغريقي لهذا السبب

إذاً فعلى هذا الاساس وبناء عليه نقول ان الباني لكل هاتيك الاشياء التي لا تحصى هو واحد لم يتغير . وإلا لاختلف النظام في شيء عن شيء وما دامت الاجرام السماوية من شمس ومجرات هي هكذا بهذا النظام البنائي نفسه لم تخرج عنه ولم تختلف . فبقوة الابداع الخالقة قد شملت الجميع ولا شك . نستدل بوحدة النظام في الجميع ، على أنه تعالى وقد خلق ما هنا قد خلق ما هنالك كذلك ولا ريب

وقد اشار القرآن الكريم إلى هذا الدليل هو نفسه فقال : (وخلق كل شيء فقدره تقديراً)

ولذلك علق على هذا الدليل مستنكراً عملهم فقال : « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، أى وما كان لقومهم التعدد من داع ، وقد ظهرت أمارات التوحيد ، على ذلك فإن زرقب الحركات الكونية ، نراها تضام وتلاقى عند غرض واحد ، يحدوها التوافق ، وذلك دليل لا يمكن أن يتطرق إليه الشك على أن المهيمن على الكون واحد .

وإن تنأمل في النظام البنائي في عموم أنحاء الكون نراه كذلك واحداً ، مما يدل على أن الباني لم يختلف ؛

ثمرات عقيدة التوهم

١ - تصور ذلك الانسان القديم ، وقد كان يرى الوهمية مسخرات الكائنات من حوله وهي تعمل في الوجود ، يظنها لها إرادة واختيار ، كما للآلهة إرادة واختيار، هبه قد نزل به ضرر كمرض يملأ إهابه ، أو آفة تفسد عليه غلة حقله ، أو غير ذلك من النكبات والأرزاء ، ما ذا تراه فاعلا إزامها ؟ لا شيء ! .

إن الآلهة تفعل وليس من حق إنسان أن يسائلها لم تفعل ، وليس من الممكن أن يرد الانسان إرادتها عليها ، ويخلص من ضرر تريده له اللهم إلا ان تكون هي تريد ذلك - فكان يعتمد في هذه النكبات الى الطقوس الدينية يزاولها ليرضاها ، ويستغفرها ذنبه ، الذي قد يكون اجترحه من حيث لا يعلم وهذا هو كل ما لديه من الحيلة في مثل هذه الظروف القاسية

وفي حالة الخير يصل اليه لا يكفيه لا يملك من الحرية أن يبحث عن شيء يستزيد به العطاء ، اللهم إلا باستجداء الآلهة والتعلق لها ، وهذا كل ما لديه من الوسيلة والحيلة

لقد كان يعيش إذا على هامش الحياة ، بل على هامش هامش الحياة ، لا يملك عملا ولا يستطيع تفكيراً قد تعطلت إرادته تماما ، وشلت عن الحركة يده . لم يكن شيء من الأشياء ألزم لذلك الانسان من جائحة تبحتاح أو هامة وتتشله من ضلاله فلم يكن إلا التوحيد الكريم يهدم أمامه عروش الآلهة المزعومة ليستفيق ويريه كيف

هى مسخرة لخدمته - لا هو ليعبدها - ليرفع رأسه . وأن فى يده الزمام لسكل هذه الاشياء ليخلص بها من كل ضرر يناله ، ويحصل على كل خير يطلبه ليهب يبحث عن صولجان سلطته ، التى طالما كان عنها من الغافلين .

ألقى نظرة على إنسان اليوم ، وتدبره وهو يغوص فى أعماق أعماق الوجود بحثاً وتنقيباً ، ويتصرف فى قوى الكائنات حبساً وإطلاقاً ، فسجن الأنهار ، وروّع الأمراض ، وتحكم فى الغلات ، وهيمن على النسل ، وبلغ من أمانيه أن يرد الأعمى بصيراً ، ويعيد الأصم سميعاً ، ويجعل الشيخ شاباً ، والقصير طويلاً ، والهزيل سميناً ، وحاول الخروج من أقطار الأرض ، ونقب جدار القنات ، فوصل إلى الموتى ، يسألهم فيجيبون ، ويستزورهم فيزورون .

إن إنسان اليوم لم يصل إلى كل ما وصل اليه ، إلا بكفره بتلك الآلهة ، وخلع سلطانهما والتمسكن من رقابها ، وأمله فى أن سيبلغ بفضل تسخيرها له أمانيه وذلك كله هو ما أرشده التوحيد اليه

٣ - وكما خلاص الدين الإنسان بالتوحيد من أوهامه ، فى تأليه الكائنات فحرك بذلك فكره وأطلق إرادته ، وبسط على ماحوله سلطانه - كذلك خلاصه به مرة أخرى ، من مساوى الضلال والخيرة ، وتنازع الشهوات والالتفات إلى اعتبارات الناس فى حياته العملية . فأنزل له كتاباً عجيب الشأن حقاً فى الهداية والتسديد ، ألزمه باتباعه لتتحد وجهته ، ويعرف له غاية تركز فيها إرادته ، فيقوى على منازعة ما يتنازعه من كل هاتيك الأمور عن غرضه ، وبذلك لا يكون مطلق العنان ، إن يعرض له أمر يسكون كمن خرج من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق . أو تتحكم

فيه في إرضائه شهواته المردية وغرائزه العمية - فيكون قد اتخذ إلهه هواه .
حقا لا يمثل الفرق بين الحالين حالة من عرف له طريقا واضحا يسلكه
لا يبالى بشيء بعده ، وحالة من أكب على وجهه ومضى ، تتنازعه الشهوات من
كل جانب ، وتتقاذفه اعتبارات الناس لا يدري أيها يرضيه .

أقول لا يمثل الفرق بين الحالين تماما إلا قول الله العلي العظيم :

(ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل
يستويان مثلا) ؟ اللهم لا .

٣ - والبراهين التي جاء بها القرآن هنا لتكشف للناس حقيقة التوحيد
هي أضخم مسألة علمية على الإطلاق ما كانت تعرفها البشرية قاطبة فكيف
بمحمد الأُمي ؟

حقا لو لم يكن في القرآن إلا هذه لكانت بها شاهداً عظيم القيمة في إثبات
أن محمداً يوحى إليه وأن القرآن مصدره السماء .

نعم كان في الناس دين يقول بالتوحيد من قبله ، ولكن هناك فرق بين
القول بالشئ وبين كيف يكون الشئ .

إن أصغر صغير فينا يعرف الآن أن القطار يتحرك بالمسافرين وأن
الراديو ينقل الأصوات من أطراف الأرض ، ولكن الذين يعرفون كيف
يتحرك القطار وكيف ينقل الراديو الأصوات هم العلماء المتخصصون وحدهم .
ولا يتأتى لأحد سماع بأن القطار ينقل المسافرين أن يعرف كيف هو
ينقل المسافرين .

٤ - « يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » أقول لكن نفهم أن

في الشرك هذا الظلم العظيم يجب أن نتدبر موقفنا من العالم ، وما يراد بنا فيه -
إن الله رب العالمين الرحمن الرحيم - الذي جعلنا خللا في الأرض ورفع
بعضنا فوق بعض درجات ليسألونا فيما آتانا - الذي خلق الجن والانس
ليعبدوه ووهبهم السمع والابصار والأفئدة ليشكروه .

إنه جل شأنه قد أوجدنا في ملكه ، وأفاض علينا من إنعامه ، ووهبنا
الحياة والملكات لنستطيع أن نعمل حسب ما أشار علينا وشرع لنا في كتابه .
إن عبداً هذا شأنه يجب أن يدين بالتوحيد له ، يجب ألا يعمل إلا حسب
إرشاد صاحب البيت ، الذي أوجده في بيته ، ووهبه المعدات لكي يعمل له ،
فمن انحرف عن ذلك وأشرك بما أمر به غيره أو اشتغل بالغير عما أمر - فهذا
هو الظلم العظيم .

والحقيقة أن الله لم يأت بهذا الوجه الثاني وهو المروءة المطلق ، والعمل
لغيره كلمة واحدة ، لأن هذا لا يتأتى ، فما يستطيع الانسان أن يتخلص نهائياً
من سلطة الله وتوجيهه ، ومن ثم كان المذنب مذنباً من وجه ، مطيعاً رغم أنفه
من وجه ، قال تعالى : (والله يسجد من في السموات والأرض
طوعاً وكرهاً) . الواقع أن من يشتغل بغير ما أمر الله ، مثله كمثل شخص أحضرته
في بيتك ليعمل لك وقررت له أجراً ، وتعهدت بنفقته ، وأسرجت له المصباح
وأحضرت له الأدوات ، ثم هو كان يعمل لغيرك من مالك . أليس هذا أقبح
الظلم ؟ . وعلى هذا الأساس اعتبرت الدول عمل المواطن الذي تقلب في ثمار
الدولة ونعم بخير الوطن ؛ ثم والى دولة أخرى معادية ، على حساب دولته .
اعتبرته مذنباً قد ارتكب جريمة الخيانة العظمى .

فضل التوحيد فيما يتعلق بالشخصية الإنسانية

في الوجود أفراد حباهم الله بفضله وأوفر لهم من عطائه ، وفي الوجود كذلك نعم لا حد لروعتها وسحرها ، ولا نهاية لخيرها وبركتها .
والإنسان إذ يسرح طرفه في أولئك الأفراد الموهوبين ، ويطيل التأمل والتفكير ، ويقارن بينهم وبين غيرهم من عامة الناس ، بل ويقارن بينهم وبين خاصتهم أيضاً ، إذ هم عباقرة يكاد وجودهم يسكون فلتة ومدهشاً - الإنسان إذ ينظر إلى مثل هؤلاء الأفراد لا يؤمن عليه أن يفتن بمثل هذا الطراز من الناس ، وتغنى فيه شخصيته ، ويتلاشى كيانه ، ويتلاعب به خياله في أمره ، فيظن به الظنون ، وتتنازع الأوهام المضلة المهلكة ، لذلك افتن الناس قديماً بالأبطال فألهوهم ، وتهاوت شخصياتهم في ذواتهم فعبدوهم .

أما عقيدة التوحيد فهي وقاية للإنسان من هذه المزالق أى وقاية ، لم يشهد الوجود أعظم شخصية من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولا أوفر منه في باب القسم عطاء :

أنجريت على يده المعجزات فغاص قدمه في الصخر ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتفل على الجراح فبرئت ، وردَّ العين المقلوعة فأعيدت كما كانت .
وكان أفصح الناس ، وأجمل الناس ، وأعقل الناس ، تكلم بجميع لهجات العرب ولم يخالطهم حتى دهش أصحابه من أمره . فقالوا له : لم ز الذي هو أفصح منك فمن أدبك ؟ قال : (أدبني ربي فأحسن تأديبي) .

هذه الشخصية الفذة تعلق بها أبو بكر ، كأعظم ما يتعلق لإنسان بإمامه ،
ولسكن أتدرى ماذا كان أمره حين مات ؟

قال : إن كان محمد قد مات فإن الله حي لا يموت : (وما محمد إلا رسول
قد خلت من قبله الرسل ...) الخ

على هذا النحو ترى التوحيد وقاية للإنسان من أن ينال الإعجاب من
الشخصية . أو تلعب به الاوهام في التقدير ، فيتهافت على أثر (راحله) كالأ
هالعا ، ينوهم أنه ما عاد يستطيع على قدميه الوقوف .

وكذلك ترى التوحيد أيضا في النظرة العميقة إلى النعم العارمة يسكون وقاية
أيضا للإنسان في هذا الباب .

هل تعلم أوفر خيراً على البشرية من الشمس ، لولاها لماتت الكائنات
الحية من شدة البرد ، وهى السبب في ورود المياه العذبة إلينا من المحيطات
بواسطة التبخير ، ولنورها أثر أى أثر في بناء النبات وهكذا .

نظر أحد العلماء في أوروبا (١) الى هذه النعم الوافرة وهذا الأثر العظيم
الذى لها في حياة الانسان فأشار على الناس بشكرها ، وهذا تفكير يراه
الموحد مضحكا للغاية . لأنها كائن مسخر ليعمل ، ومُدبّر حتى يعمل ؛ فلا
فضل لها في شيء إلا إذا كان للإناث الذى حمل اليك من فضل ، والفضل كل
الفضل لمن صنع .

إذا فمن غير التوحيد يتعرض الانسان للوثنية حتما : إما وثنية تأليه الأبطال

(١) هو الاستاذ (دنن) أحد علماء الكيمياء في جامعة لندن اقترح أن يمد الناس كل سنة
يوما لشكر الشمس . (آفاق العلم الحديث للاستاذ فؤاد صروف) .

أو وئذية تأليه الكائنات ، يكاد ذلك لا يكون سواء ، إن قليلا وإن كثيراً ،
على أن التوحيد في هذا الباب له فضل في تنمية الشخصية البشرية نفسها ، لأن
مواهب الانسان لا تنفتح الا اذا وثق بنفسه واعتقد فيها .

والاعجاب بشيء الى هذا الحد السابق ينال من شخصية المهجوب نفسه ولذلك
يشعر الانسان ببعض الانكماش الروحي إذ يمدح شخصا لدرجة تجعله فذاً
ونادراً لا يلحق ، خصوصاً إذا كان هذا الشخص موجوداً وبجواراً له في
معيشته ، وهذا الشعور نفسه يجعل الانسان يزداد موتاً ويجعل حياته تزداد
ضموماً ، أما بالتوحيد ، وإرجاع الفضل لإرادة علياً واحدة فما أسرع ما يحمل
الانسان هذا الأمر (لوصح) على محمل أن الله يعطي من يشاء كما يشاء ، وينظر
الانسان اليه كما ينظر الى شخص ورث مالا وافراً فلا فضل له فيه ، قال تعالى :
(ولا تمشروا ما فضل الله به بعضكم على بعض) ، ثم هو ليس مسؤولاً إلا أن
يعمل بما وجد ، والعاقبة للمتقوى ، بل والفضل كل الفضل لمن عمل بقليله حتى
يساوى المحظوظ أكثر منه .

إن المثل اذ ذاك يكون كما اذا ساويت في الغلبة بعصاك رجلاً يحارب
معك بسيفه . إن الله رفع بعضنا فوق بعض درجات لئلا منا فيما آتاه
لا يكلف غير ذلك . هذه ثقافات التوحيد وتوجيهات التوحيد الفذة .

ولقد أدرك البشرية اليوم مايجر عليهم هذا التهاافت أمام الموهوبين من
الأذى في الشخصية وجفاف المواهب ، فأخذوا يعارضون هذا الايمان
بالتسكّر لهذه المواهب واعتبارها كأنها غير موجودة أو النيل منها وتهجينها
والعيب واللمز فيها وهكذا .

قال المسيو (بورد) : (توجد غريزة سافلة ثورية عاطلة من الأدب ،
لا غاية لها سوى خفض البشرية إلى الدرك الأسفل - وتعدُّ كل أفضلية
ولو علمية شتيمة للمجتمع)

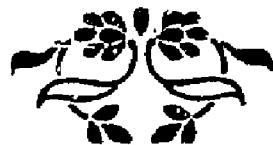
وكما قلت إنهم يلجأون إلى هذه الأمور المخزية للإبقاء على أنفسهم ؛ ولا
يزالون هكذا حتى يعلموا ما يراد بهم في الحياة ، ويرجعوا للعطاء والمنع
للو احد القهار ، ويدركوا أن الله رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات ؛
ليبلو كلاً منهم فيما آتاه ، لا يكلف غير ذلك ، ولا يسأل عن شيء وراء ذلك
وأن أيّاً منهم يعمل عمله مخلصاً فيه ، محسناً له ، فإنه أياً كان عمله الذي يزاوله
سيأخذ في الآخرة أعظم الأجر ، ويرفع إلى أعلى الدرجات : قال تعالى
(ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) .

تصحیح

قال تعالى: (ومن
يطع الله والرسول
فأولئك . . الخ)

لا عجب - وقد كان للتوحيد كل هذه الآثار ، وأكثر منها لم يذكر ، أن
كان أخلد شيء في الرسالات ، قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول
إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) .

(تم القسم الأول ويليه القسم الثاني)



فهرس القسم الاول

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٢	تقديم الكتاب	٤٨	(ب) تزويد السكان الحى
٣	المقدمة		بجميع معدات الحياة
٥	شبهة المصادفة	٥٥	(ح) للإنسان كل ما فى
٦	ماهى المصادفة ؟		الأرض وهو خليفة لله فيها
٨	هل الأمور فى هذا الكون	٦١	دليل المشابهة
	تأتى مصادفة ؟	٦٧	د الضبط والتقدير الكونى
١٤	القوى الطبيعية	٧٥	د الإلهام
١٨	تحديد سمات الألوهية	٨٨	د الانتقام الكونى
٢٦	كيف نبحت عن الله ؟	٩٨	د العمل الفنى
٢٦	قراءة الأفكار وتعيين	١٠٩	تعليقات على هذه الأدلة
	القصد والنية	١١٩	هل يمكن أن أكون
٣٧	فرصة طيبة		واهما ؟
٣٨	أدلة وجود الإله المنعم :-	١٢٩	صفات الله تعالى
٣٩	(١) دليل العناية - تهيئة	١٣٢	التوحيد
	البيئة الصالحة	١٣٩	ثمرات عقيدة التوحيد

الخطأ والصواب

ص	س	خطأ	صواب
٣	١٣	ومحتملاً	ومحماً
٤	١٣	متممة	متمتعة
٤	١٨	لكل	بكل
١٥	١٢	كوباً	كوب
٢١	٥	منها	منهما
٣٠	٤	فحينها	فحينها
٤٩	١١	ما يلزم لحياته لها	ما يلزم لحياته
٧٧	٧	هو كل ما يعمله كل	هو ما يعمله كل
٤٦	الهامش	ص ٢٤٧	ص ٢٤٨
١٠٤	١	بشيء	شيء
١٠٤	١٣	لكل	بكل
١١٣	١١	سرداء	سواء
١٠٦	١٦	وشبكتها شيء آخر	وشبكتها شيئاً آخر
١٠٦	١٧	عمل إجمالي	عملاً إجمالياً
١٠٦	١٨	تكوين كلي كبير	تكويناً كلياً كبيراً



القسم الثاني

لما كان المملحدون قد دأبوا على تضليل الناس
وتشكيكهم في عقائدهم باسم العلم — لم فان مناظرة
كهنه .. تكشف الأمر على وجهه .. تعتبر الآن
الزمن شيء .. المؤلف

شبهات الملحدين

رجل من الملحدين يلاحني - ماذا قال وماذا قلت له ؟

تتمة كتاب (الجائزة) أو (لماذا أؤمن بالله ؟)

مؤلفه

هلال علي هلال

د حقوق الطبع محفوظة ،

ملاحظة

نظراً لضيق الوقت واستعجالاً لطبع الكتاب
في تلك المدة التي لانك سواها اضطررنا إلى طبعه
في مطبعتين ؟

شبهة الأسباب الظاهرة

إنه خير للباحث أن يعرف وجهة خصمه الذي يرى غير مارأى
ويدرس الأسباب التي جعلته يتجه هذا الاتجاه المخالف ويجهد أن يشعر
بشعوره ويحس باحساسه . فالواقع أن هذا الخصم ليس مجنوناً وهو منطقي
يعمل ويتدل ويرى أسباباً تجعله يقول بما قال . فتنى حرص الباحث على
كل ذلك استطاع أن يعرف النقطة التي منها هوى الخصم وتردى فيزداد
ثقة بما عنده ويكرن إن حاججه عليها بملته عارفاً لملاحبها قادراً على أن
يصلح خيأه ويقيم عثاره - إن كنت لاتزال فيه بقية من الخير ؟
و المؤلف

قال صاحبي . وقد جلست اليه ؛ وبعد فما أعجب أمركم معشر المتدينين
وما أكثر إسرافكم في الثقة بما أنتم عليه . بغير موجب ثم أكثر ما تسيئون
إلينا حين ترموننا - سفهاً وحمقاً - بالضلال والجحود والتمرد على خطة -كم
المزعومة وإننا وبعلم الحق ما بنا من جحود ولا تمرد ولم نفعل إلا ما يجب أن
يفعل وما يجب عليكم كل-كم أن تفعلوه لو كنتم عاقلين . أروني أى سبيل
يوصل إلى إلهكم الذى تذكرون نسله معكم بشرط أن تتركوا الخيال
والضلال جانباً وتلزموا جانب الحق الثابت الذى برهنت عليه بحوث العلم
لا تعدوه .

نسمعكم تقولون ؛ إلهنا الذى يأتى بالليل والنهار . فقلنا حميد منهم لأنهم
أتوا إلينا بأثر من آثاره يدل عليه فقد أعذروا وجدوا بمن أتى بالليل والنهار
أن يعبد ولكن وبالأأسف وجدنا العلم يقول بما لا يقبل النقص ؛ إن الليل
والنهار لم يأت بهما أحد وإن هما إلا أثر ضمني نتج عن حركة الأرض
الكروية أمام الشمس المشرقة فعدنا من حيث أتينا وبقيتم على ما أنتم عليه

بالرغم من البرهان القاطع تعبدون شيئاً غير موجود وتنسبون إليه شيئاً لم يفعله والغريب أن الواحد منكم يجلس في دور العلم يتقبل بقبول حسن ما يقول به أستاذه عن الليل والنهار ويجرى له التجربة أمام المصباح ليرى بعينه كيف أن حركة الكرة أمام المصباح ينشأ عنها ظلمة ونور متعاقبين أو ليل ونهار بعبارة أخرى فيعلم ذلك ويطمئن إليه تمام الاطمئنان ولا يجد فيه ما يريبه ثم هو يأتي إلى مصلاه فينسى كل ما كان ويعود إلى ضلاله الأول .

يقول : سبتان من أمات الليل وأحيا النهار .

وكنت وقد رأيت اتجاه الرجل إلى تفسير الليل والنهار قد فهمت غرضه فأذهاني ما أرى وعلمت لون الفكرة التي تسود هذه الأذهان الغريبة ذات النظر القصير وتذكرت في التو والساعة كلمة لطفلي قالها لي مرة حين رأى المطبعة أول مارآها وقد نقشت الصحيفة البيضاء بخط بديع فصار ينظر فيها فرحاً مستغرباً ويقول انظر يا أبي ، إنها تكتب أحسن مما يكتب الإنسان وقد رتبت الحروف كما تفعل ووضعفت الفتحة والكسرة حيث ينبغي أن يكونا ، فأعجبتي ملاحظته وأضحكتني سداجته وكان صغيراً لا يفهم عني إن قلت له إن المطبعة لا تفعل شيئاً والفضل كل الفضل للإنسان فهو الذي قدم لها الحروف ورتب لها الحروف وضبطها وهي بعد ذلك آلة ولم تزد . وكأن الرجل لم يكن يشعر بأنني انصرفت عنه بكلمتي لأرثي له - ومثل هذا الصنف من البشر لا يفهمون مني إلا هيكلتي - فلم يخفف شيئاً من حماسه وظل مندفعاً متدفقاً حتى أيقظني . فقلت : على رسلك حتى أقول . قال بل دعني حتى أتم ومن الواجب أن تنتظر حتى أضرب لك الأمثال وأريك من

طريق البرهان والحجة أن أولئك الذين تسميهم ملحدون هم في الواقع ليسوا كما تفهمون . . . إن المطر . . . قلت قد فهمت تريد أن تقول : إن نشوءه أولا وأخيراً عن حركتي التصعيد والتكشيف الكونية ليس معهما شيء . فانقطع الرجل عن الحديث فجأة وقد تهلل وجهه وعلاه الرضى يظن أن ضيفه قد أهتدى .

فقلت : نعم إن الليل والنهار يأتيان من حركة الأرض أمام الشمس كما تقول ولكن أما سمعت إلى ما يقوله العلم عما كان يحدث لنا معشر الأحياء لو انقطعت تلك الحركة مدة فظل جانب من الأرض في ضوء الشمس باستمرار وظل جانب في الجانب المظلم باستمرار ؟ إنهم يقولون إن أحد الجانبين تنضج الحرارة جلود أحيائه حتى تهلك والآخر يضر البرد بمن فيه حتى يموت وتكون النتيجة فناء من وما في الأرض جميعاً . ولو زالت الشمس من الوجود لمات الجميع على الأثر ولو زادت حركة الأرض أكثر مما هي فصارت أضعافاً أو نقصت عما هي مرات لكان في ذلك الضرر البالغ والنشر المستطير .

إذا تعاقب الليل والنهار نعمة لنا ورحمة ومن غير ذلك نهلك وتقديرهما بقدرهما الذي هما عليه والذي قدرت حركة الأرض لتكون كما هي ليسكونا كما هو أيضاً عمل ضروري رحيم ومن غير ذلك كان يفوت الغرض وتهلك الأحياء وحركة التصعيد والتكشيف الكونية التي تنزل المطر ألا تراها عمل لا بد منه لنحصل على الماء العذب فنحيا ويحيا زرعنا ونأكل من ثماره ونعيش آمنين . إن حاجتنا إلى الماء ليست تعودية بحيث كان يمكن أن نروض

أنفسنا على تركه ونحيا . والماء كما تعلم - ملح أجاج فإذا كان يكون لولم تكن تلك الحركة . كنا لانجد غير ماء المحيط وهو لا يغنى فتموت حتما . ولو كان الماء في المحيط عذبا لفسد وأسن وصار شره وبيل . فلملح ضرورى لبقائه صالحا فلم يبق معدى من استخلاص جزء منه أولا بأول بواسطة تلك الحركة وهذا بديع .

ذلك ما يقوله العلم عن النتائج القيمة التى ترتبت على تلك الأحداث التى رأيتها ووقفت عندها لا تريم مكانك وكان عليك أن تواصل الانصات لتسمع باقى الحديث

وإنك لتجد التدبير للأمر واضحا وجليا والتمهيد للغرض المزمع ظاهرا لا غبار عليه إن أنت ألقىت البال بعض الشيء : إن القارات التى تسكنها الأحياء والتى هى لهم مسرحا ومراحا ومكانا لزروعهم وضروعهم ومتاعهم ومراققتهم هى ربع الأرض فقط فلماذا تشغل المحيطات ثلاثة أرباعها ويكون هذا القدر الفسيح مترعا بالماء ليس إلا ؟ ولكن لتدبر ماذا كان يكون لو تغير الحال فصار الماء مكان اليابس واليابس مكان الماء وذلك كان أوفق للبال ؟ إن الشمس ما كانت تبخر من الماء ما يكفى وعلى ذلك كان هلاك من فى الأرض حتميا أو ما يبقى فيها منهم لا يكاد يذكر . خصوصا إذا أخذنا فى حسابنا العصور الجليدية التى تنتاب الأرض أحيانا فتعطل من الماء أكثره . وإن حركة الأرض تلك التى قلنا إنها بحالتها هذه تناسب الأحياء ولا يناسبها سواها . هذه الحركة نرى للسكواكب السيارة والأجرام السماوية الأخرى حركات أخرى غيرها أسرع منها وأبطأ منها بحالة فيها

الخالف كل الخلف عنها فاختيار هذه الحركة المناسبة لنا بالذات من بين هذه الحركات المتعددة المتنوعة التي لا يناسبنا أيها بحال هو أمر يدعو إلى الاعتبار والعجب هو إذا مثل ما نرى في تلك المناسبة التي وجدها العلماء بين الطفل ونوع اللبن النازل له واختلاف الألبان باختلاف صغار الحيوانات التي سيغذيها وقد وقف العلم على خصائص كل نوع من أنواع هذه الألبان وعرف احتياجات كل نوع من أنواع صغار الحيوان ووجد بغاية الدقة والضبط أن اللبن النازل له هو الذي يسد حاجاته دون سواه . ولعله يلهمك عن متابعة قولي ما سمعته من أقوال زعمائك عن الضرورة والجاذبية ، فالما يتبخر تحت حرارة الشمس مضطراً لا يستطيع غير ذلك والأرض وقفت حيث وقفت بسبب الجاذبية وربما كانت دورتها لها سببها القاطع أيضاً . إن كان هذا يلهمك فاعلم أن كل تدبير نافع تكون نتيجته هكذا . تسلط الأحداث على الغاية لتعمل فيها لا تملك غير ذلك وإلا لما نجح التدبير بحال .

إن طاهى الطعام يضع القدر على الموقد وبعد ذلك تعمل النار في إنضاج الطعام مضطراً ويبقى القدر حيث أوقفه مضطراً لأن التدبير فعل ذلك بحيث من يرى الصورة يعذر النار ويرحم القدر إن بلغ في السذاجة مبلغاً ، وكل الذي رآه ما كان يكون لولا تدبير الطاهى ومصلحته .

ثم انظر إلى ما حولك ترى كل ما يلزم لنا فتمت الهواء مركب التركيب اللازم الذي يفسده أقل تغيير . ولكنك — وبالله عجب — قد ترى من شبهة الأسباب ما يفسد عليك التفكير ويحجب عنك جمال هذه الرحمة تقول إنها الألفة العنصرية تجعل الأكسيجين لا يأتلف مع الأزوت مثلاً إلا

على هذا النحو المقرر المعروف وكان عليك أن تعلم أنها الألفة المهيأة هي الأخرى ليتركب الهواء على نحوها ويبقى بحالته لا يفسد بدليل أنه لا يناسبنا إلا هو وبدليل أننا لا نجد الهواء على مدى فهو محيط بالأرض من أجل من فيها ومن غير هذه الألفة الجامعة المانعة لا ينفعهم الهواء بنافعة . وإن ترقب الأسباب التي تصاحب دخول الهواء في داخلنا تراها ضغط الهواء وحركة الحجاب الحاجز فتقف عند ذلك صامتا ولو كنت حصيفا - واسمح لى أن أقول لك فموضوع المناقشة خطير - لكان عليك أن تعلم أنها الأسباب المهيأة هي الأخرى لهذه الغاية بدليل الأحداث التي تنتظر الهواء في داخلنا ليتها وتنتظره حيث يدخل . وهيئت المسالك له في داخلنا ليصل إلى حيث ينبغي أن يكون .

إن وجود ما ننعم به من أسباب الحياة في دنيانا وتجمعها وتلاقيهم - ما في محيطنا دون سواه هو أمر لا يتأتى اعتباطا . ثم وجرد الوسائل التي تهيم لنا أمر الانتفاع بتلك النعم أو ترتبه حتى لا يطغى أو تقيه حتى لا يفسد ينبغي ألا ننشغل بها عن جمال التقدير وعظيم الرحمة بل نعتبرها هي الأخرى تقديراً من التقدير ورحمة تمت بها الرحمة .

إن منشئنا في هذا الوجود والآتى بنا إلى هذه الأرض التي نسكنها أرادنا لنحيا بدليل هذه الأجهزة التي تعمل دائبة ليلا ونهاراً من أجل حياتنا ولو وقفت لحظة لحصل لنا الهلاك . وهذه الحياة تتطلب الشمس والهواء والماء والزرع وهم جراؤها هو قد جاء بها كلها من أجل ذلك وهو بعد ذلك قد جعل حركة التصعيد والتكثيف لتنظم لنا أمر الماء فإذا يريب وهو قد جعل حركة

الارض الكروية بهذا التقدير المناسب ليتعاقب الليل والنهار فلا تستمر حرارة الشمس علينا فنحترق ولا تنقطع عنا فتموت برداً وقرأ .
إنك ياسيدى فى عصر العلم عصر الاختراع والابتداع وإنشاء الآلات العاملة فإذا بالله ترى حين تجد الحركة النافذة الأخيرة فى الآلة إنما سببها وسنادها من حركات أخرى متتالية ترتكز فى النهاية على الحرارة مثلاً .
أفتقف عند ذلك وتنسى المخترع فتوجه الشكر للآلة أو تأخذ منها وأنت صامت لا تعير المخترع بالآلة لأنك لم تره هذا لعمرى عجيب فكل عمل الآلة من تدبيره وفى أجزائها تتمثل حركة ذهنه وتبدى براعته .

وإذا كان الانسان وهو ذلك المخلوق الضعيف قد استطاع أن يبتدع من الوسائل ما به يسخر الآلات العاملة لتنجز الأعمال بالنيابة عنه ويظل الفضل كل الفضل له فيها وفى كل من انتفع بها وإن غاب - أفنعجب أو نستعجب وقد رأينا العلى الأعلى قد اتخذ حركة الارض لتأتى بالليل والنهار للأحياء وجعل حركة التصعيد والتكثيف لتستخلص الماء لهم كلاً ثم كلاً إن التدبير فى الفعل ظاهر والغرض الأخير أكيد والحكمة لا مرمى بعدها لغاية فقد جعل العطاء على قدر الحاجة لا تقصير ولا فضول ولا يحتمل الأمر أى خلف فى الوسائل ولا أى تغيير .

وهنا كنت رأيت الرجل قد أمال النوم عنقه لا أدري أمن عظم الصدمة التى وجهت إليه عقائده - والعقائد أثمن شئ عند الانسان - أم ماذا كان أمره فتمسكت من جواره ومضيت وقد قررت العودة اليه فى اليوم .
التالى .

عود الى شجرة المصادف

على المناظر ان يخاطب خصمه بلمعته وان يسلم له جديلاً بكل ما لا يراه
ضاراً بهدوه الاخير الذى اقيمت المناظرة من اجله حتى اذا اقام له
الدليل على صحة رأيه واقعه به كان من السهل عليه بعد ذلك ان
يصحح له الاخطاء الشكلية التى يكون قد فهمها على غير وجهها وكان
من السهل على الخصم قبول هذا التصحيح ؟
« المؤلف »

عدت الى الرجل فى اليوم الثانى فوجدته فى مكانه متحفزاً كأنه يترقبنى
وابتدرنى بالكلام قبل أن أجلس قائلاً : إننى سمعت كلام الأئمة فلنعد
إلى العلم نسائله عن نشأة الارض برمتها وأرجو أن تخضع لما يقوله لا تترك
رأسك وبعد ذلك ترى ما قلته بالأئمة إن كان له من الصلحة نصيب —
قلت : قل ..

قال : إن الارض — كما يقول العلم اليوم — قد انفصلت عن الشمس
منذ القدم كما يتفق كثيراً لكل جسم كبير أن تنفصلت منه جزئية أو أكثر
فصارت تهوى فى الفضاء حتى وقفت من الشمس حيث هى بفضل قانون
الجاذبية الغلاب . وظلت دائرة كالأصلها الذى انفصلت منه وقد أثبت
(لابلاس) كيف أن الجزء المنفصل من أصل دائريهوى دائراً كالأصل .
وقد كانت الارض كتلة نارية متأججة فصارت تبرد شيئاً فشيئاً فتقلص
وتسكش وتحدث فى سطحها ارتفاعات وانخفاضات أوجبال وأعماق بعبارة
أخرى . وقد كانت عناصر الارض المتجمعة فيها والتى هى نفسها عناصر
أمها الشمس كانت هذه العناصر بعضها غازياً وبعضها أقرب إلى السبولة

وبعضها متجسداً على حسب كثافته كل عنصر وحالته النوعية فصارت العناصر الغازية تأتلف وتتحد فيتكون الهواء من عناصره والماء من عناصره وهلم جرا ثم صار الماء يهطل أمطاراً على الأرض ثم يعود فيتبخر فيتكاثف في أعالي الجو ويعود فينزل وهكذا دواليك فيساعد ذلك على تبريد الأرض بجانب الفواعل الجوية الأخرى . وقد كانت الأمطار وهي تهطل مدراراً على المرتفعات ثم تتحدر إلى المنخفضات كانت تجرف معها أملاح الأرض فتستقر في المحطات ؛ الأمر الذي جعل مياها بعد ذلك ملوحة .

وقد تكونت بعد ذلك التربة الزراعية من صخور الأرض بفضـل الصقيع وتغيرات الحرارة ؛ وفعل المياه المحملة بثاني أكسيد الكربون . ونشأت النباتات والحيوانات كذلك فيما بعد بفعل أحداث طبيعية كهذه الأحداث ، والعلم جاد في البحث عنها والعشور عليها . فأنت ترى إذاً أن الأرض ما انفصلت لتتكون أرضاً ذلك الوهم الذي لا دليل على صحته بل انفصلت كيفما اتفق فجاءتها الظروف المساعدة فصارت كما هي . ووقفت حيث وقفت لأن ذلك هو الممكن ولا ممكن سواه . ودارت لا لتأني للأحياء بليل ونهار بل لأن أصلها كان دائراً فظلت دائرة — وتكون الماء والهواء لأن عناصرهما كانت فيها ؛ كما هي في أصلها الشمس وتكونت المرتفعات والمنخفضات بفعل التقاص الذي لا بد منه لكل جسم حار قد برد وصار ماء المحيطات ملحاً لا لأن في الأمر عناية احتاطت للماء لكيلا يفسد بل لآئنه وجدها في طريقه سخرها وهو يتحدر وتكونت التربة الزراعية من الصخور الأرضية ، لأن الهواء لم يقد عملت على تكوينها فتكونت

وثبع ذلك نشوء الاحياء نباتية وحيوانية وسيتمف العلم إن عاجلا أو آجلا على الاسباب الطبيعة التي فعلت ذلك . تلك ياسيدى قصة نشوء الارض مستقاة من مصدر العلم الذى لا يرد كلامه فأرني أين المقصد الذى تذكر وأين التدبير حتى تتعب نفسك وتقوم تتسامل عن المنعم لتشكره وتدين بحمده — ألا فأرح نفسك من التعب .

قلت : إننى إن سلمت لك بكل ماقلت — مع احتفاظى بحق الرد على فرية أن العلم قد قرر ذلك وفرغ من إثباته — أقول إننى إن سلمت لك بكل ما فيه على فرض صحته فما أجد فى الأمر شيئا يدعو إلى الريبة الا أن أكون أنا أريد الريبة وأوثرها .

إن سلسلة الحوادث تلك التى ذكرتها لا ينقصها لتكون مدبرة فى نظرك ومقصودة إلا مباشرة الفاعل المادى لها . فلو فرضنا أنك كنت قد راقبت الله سبحانه فرأيت أنه قد أخذ آلة قاطعة ومقياسا دقيقا كما يفعل البشريون ثم صعد إلى الشمس فقدر بمقياسه القدر الذى يريد اقتطاعه ليكون أرضا وأخذ يضرب فى سطح الشمس بآلته ويغرض بها فى أعماقها حتى انفصل عنها القدر الذى يريد ، ثم حمل هذا القدر على عاتقه وهوى به ونظر إلى أعلاه ليعرف البعد الذى صار بينه وبين الشمس فلما وجد أنه قد صار مثل ماينغى ؛ ابتدع الوسيلة التى بها تبقى القطعة الأرضية فى مكانها من الشمس لا تتريمه وتركها فى مكانها لتبرد ؛ كما يفعل ذلك من كان أمامه شيء يحار يريده بارداً ، وانتظار حتى تقاصت الأرض نتيجة للتبريد ؛ وحدثت المرتفعات والأعماق فقام إلى ذرات الأكسجين فأف بينهما وبين الأذروجين

ليتكون الماء وعمد إلى الأكسيجين والازوت ففعل بهما ذلك فتكون
الهواء ؛ وانتظر حتى هطلت الأمطار وانسابت إلى الأعماق فأذاب الملح فيها
وسلط الأحوال الجوية لتفتت الصخور وتحيلها لتتكون التربة ؛ ثم أنشأ
بيديه النباتات والحيوانات فعمرت الأرض ، وصارت كما نراها بمائها
وهوائها وشمسها وقمرها وليلها ونهارها وهلم جرا .

إنه لو كان الأمر جاء على هذا النحو البدائي الممقوت ما أراك أبدأ وما
زادت تلك الصورة التي تؤثرها على الصورة التي تخافها إلا مباشرة الفاعل
المادى للفعل ؛ إلا مباشرته له بجسمه وهيكله ولعمرى ما للجسم والهيكل
من عمل في الأمر الذى أمامنا ولا فى أى فعل آخر ، وما الفعل فى الحقيقة
إلا لقوى العقل وملكات التدبير حتى فى صنائع البشرين أنفسهم وتلك
القوى والملكات لا ترى بحال — فما بالك بالله الذى تنزهت ذاته عن أن تتسم
بسمات البشر !

إنه يريك إذاً على هذا النحو ويمثل هذا التفكير ما تعلمه من أن الكائن
البشرى بدم تكوينه — جراثومة — منوية تقابلت ببويضة . . فاندجت بها ثم
انقسمت الخلية الحادثة من الاندماج إلى خليتين والخليتان انقسمتا إلى أربع
وهكذا ما زالت الخلايا تتكاثر بالانقسام وتتكاثر وتتراص بعضها بجوار
بعض حتى تكون ذلك المخلوق البديع ، واعلمك تفهم أن المسألة سلسلة
مصادفات متتابعة ، الجرثومة خرجت هائمة تتحرك كما يتحرك كل كائن حتى
فتلاقت بالبويضة مصادفة ، فبدا لها أن تندمج بها فحصل لها الاندماج كأنها
قالت للشيء كن فكان . فانقسمت الخلية المستجدثة كما تنقسم كل الخلايا فكان

لا بد أن تتكاثر لحصل من ثكائها وتلاصقها ذلك المخلوق العجيب وهذا فهم يضحك الانسان من حامله لأن هذه الجرثومة لم تكن تهيم على وجهها لا تبغى إلا الحركة ، بل تحركت قاصدة غاية مخصوصة هي تلك البويضة التي ظلت تنتظرها بدورها من أول الأمر في مكان مقرر معلوم تعلم أن ستأتى منه وقد تعطرت لها بریح فياح تعلم أنها تؤثره لتهتدى إليها على حسه في هذه الرحاب المترامية ومثل هذه المضايق تكون رحابا للمخلوق مثل الجرثومة واندماجا بها هو الآخر ليس مصادفة ، بل هو خاصة لجرثومة التناسل وحدها ، إذ ليس كل خلية تتلاقى بأخرى تندمج بها على هذا النحو ، ثم ذلك الاندماج الذى سيكون يعلم به كل من الطرفين أو كأنه يعلم به ولذلك يتجرد كل منهما عن نصف العدد من كرووسوماته لكي إذا حصل الاندماج تكون الكرووسومات الباقية خلية كاملة معتادة كرووسوماتها مثل ما عند كل خلية أخرى . وللعجيب أن ذلك التجرد لا يكون إلا قبيل التقابل . فإذا لم يحصل ظل كل من الجرثومة والبويضة بكرووسوماته كاملة فما للتجرد من داع . ثم إذ تتدبر ماتمخضت عنه تلك الأحداث أخيراً ، فإذا بك ترى إنساناً مستوياً ذا صورة متكاملة وأعضاء عاملة داخلية وخارجية ، وسمع وبصر وشم وهلم جرا . كل ذلك يجعل القول بالمصادفة لا يستطاع .

والغريب أنكم يامعشر الباحثين المرتابين ، تفهمون فى الحركات الكونية المتراكبة ذات الغرض الأخير على أنها مصادفة . فلما تجدوا تتابع الحركة وضبطها ، وأنها لا تكون إلا هذا النظام وذلك النحو ولا تختلف عنه بحال - تتركون أمر المصادفة التى صار القول بها لا يعقل - إلى قول آخر ليس أقل

منه غرابة ، تقولون : الناموس الطبيعي وتقولون بالخاصية الطبيعية للأشياء
وذلك كله هراء ولا معنى له . الحركة نفسها تحمل في ثناياها معنى القصد
وتحمل معها معنى التدبير وتوحى نهايتها بالرحمة والتفضل ، فلماذا لا تقولون :
إن هيمنة عقلية رحيمة منعمة تهيم عليها وتوجهها فتستريحوا وتريحوا ؟
تقولون : لا نعترف إلا بما نرى وهذا عجيب فما من داع إلى الشك في وجود
الفاعل إذا فعل الفعل ثم لم نجده لأن الفعل نفسه يشير به ويدل عليه . ولكم
من الجرائم سجلها البوليس ضد مجهول لا شيء إلا لأنهم لم يعثروا به . ولكم
استدلوا من آثار الجريمة ، وطريقة ارتكابها والاحتياطات التي عمد إليها
المجرم ليستعمله أو ليجعل الافلات منها متيسراً على ما يحمله في عقله من
فطنة وذكاء . أى أنهم يرون في الجريمة آثار ذهنه ودلائل عقله وذكاؤه ولا
أدرى على ذلك ما بال شأنكم قد اختلف اطلالاً قلت لأمثالك ياسيدي :
إن الفاعل الحقيقي للأشياء - لو تدبرنا - فأننا لانستطيع العثور عليه ، إن
المهندس مخترع الآلة قد يرتاب به الناس إن ادعاها من صنعه فيدال لهم على
ذلك بصنع غيرها أمامهم مثلاً أو يحمل أجزائها وإفهامهم كيف هي تعمل
وكيف هو ابتدع الفكرة وكيف هو دبرها وبعد كل ذلك يقتنعون ويعتقدون
أنه هو الفاعل لها وما زاد على جرمه المحسوس الأول الذي ارتابوا به أو لا
شيء أقول ما زاد شيء على هذا الجرم الأول الذي ما أقنعهم ولا جعلهم
يصدقون . إذاً الفاعل شيء غير الأجرام المحسوسة هو العقل الداخلي وملكانه
المتعددة وهو لا يرى بحال ولا يستدل عليه يكون بالآثار التي تراها قد
نتجت عنه .

إن العامل النافع والعاث اللاهي كلاهما يحرك أعضائه ، ولا نعلم أن هذا يعمل وذلك يعيث إلا بمراقبة النتيجة الأخيرة لحركات أعضائه ، التي استعملها . نرى كلا منهما مثلاً قد تناول الحجر ورفع يده ، إلى أعلا ، ثم اتجى ناحية وقذف به فترقب مرمى الحجر ؛ فإن رأيناه اتجه إلى طير ليزجره عن متاع ثمّنت علمنا الحركة مصلحية نافعة ، وإن رأيناه ذهب إلى غير غاية علمنا العيث والادب ، وما كنا نحكم ولا نستطيع أن نحكم قبل ارتقاب النتيجة الأخيرة أن الأعضاء وهي تتجه إلى الحجر لتتناوله - ما كنا نستطيع الحكم عليها إن كانت نافعة أو عابثة . والآن فانظر إلى ماتم عن هذه الحركات المتراكبة المتسلسلة التي تقول عنها : ترى الأرض مهياة للحياة تماماً ، وفيها كل ما يلزم لها من ماء يستخلص من ملحه بانتظام وضوء يطلع على الأحياء بتناوب وهواء صالح قد انتشر إلى المدى الذي يتأتى للأحياء أن يصلوا إليه ثم لا يتعداه لأنه لهم فلا يمتد إلى أكثر من ذلك . وحيوانات متعددة ذات نظم مختلفة في الحياة ومع ذلك فكل مهياً لحياته ؛ السابح له آلات العوم ، والطائر له أجهزة الطيران ، والماشى هيء ليعرف كيف يمشى ، وكذا الزاحف وهلم جرا ، ثم لكل الحواس النافعة والأطراف والغرائز والأعضاء الداخلة العاملة لعملها في منتهى الدقة والعضبط والمنجزة له بأساليب علمية . العلماء العبقريون على حسرة أن يكون لهم مثل مقدرتها . بل ولا يمتنون أنفسهم بأن سيجارونها في يوم ما ، بالرغم من الآلات والأجهزة والمعامل والمخابر والدراسات المستفيضة والبحوث المضنية التي قاموا بها .

وقل مثل ذلك في النبات بل وقل مثلي ذلك في الجماد ، فهو الآخر له نظمه

العجيبة المدهشة ووظائفه الحقة التي يؤديها . وإنك لتجد لكل نوع من
الاحياء قرينه ؛ للرجل زوجه المهيأة له عضوياً ونفسياً بحيث تناسبه والمهيأ
هو الآخر عضوياً ونفسياً بحيث يناسبها وكذلك لكل حيوان آخر أنثاه
— إذا استثنينا الخلايا الحية مثلاً — ويتم عن الزوجين عمل مصلحي أخير
قد هيئنا للقيام به وما هيئنا إلا للقيام به وهما يقومان به فعلاً بفضـل هذا
التدبير الأولي الذي كان لها ، ولو أردنا أن نتجه إلى تفسير عمل الغرائز
والمصالح التي تؤديها والحواس وأهميتها وأعضائها المتعددة ، المحورة التحوير
العلى والمركبة بعضها مع بعض ذلك التركيب الفنى العجيب الذى لا أبداع
ولا أحكم منه ، لتركنا موضوعنا وأخذنا فى دراسات علمية لانهاية لها كما
تعلم ، فهل شئ مما ترى تراه عبثاً أو كانت وجهته الفوضى . . لا . . لعمر الله
ما يستطيع عقل فى الدنيا أن يقول ذلك . فكيف ترتاب إذا بالحركات
الأولى المتسلسلة المترابكة وتنسبها إلى العبث . إننا لانستطيع الحكم على
الشئ إن كان عبثاً أو مصلحياً إلا بالنتيجة الأخيرة التي يسفر عنها الفعل
وقد رأيتها هكذا . فيها ما شئت من حكمة وفيها ما شئت من تدبير وفيها
ما شئت من إبداع . أفلا تدكر .

ثم لعلمه يريك أن ترى الحركات التي تسمونها طبيعية قد اشتركت فى
الأمـر فمثلاً الارض وقد انفصلت كتلة نارية أخذت تبرد بالتدريج . وذلك
شئ طبيعى لا يكون سواه ثم أخذت تنكمش وتتقلص لأن ذلك شأن الجسم
الحار إذا برد فنشأ علو وهبوط فى سطحها أو جبال وأعماق ، وقد جرف
الماء وهو ينحدر إلى المنخفضات الملح الذى كان فى المرتفعات . إن كان ذلك

يرريك فاعلم أن كل اختراع نافع في الدنيا له تسكأة من الأحوال الطبيعية .
فالجرس الكهربي مثلاً الذي لا نشك في التدبير الذي قام به صمائه لمرونة
القطعة الزنبركية التي فيه عمل في بنائه . تعمل تلك القطعة عملها الذاتي بفضل
مرونتها الذاتية وقد وسّج المخترع لعمل القطعة في تدبيره وعمل حسابه وبنى
عليه بل هو ما اختارها هي بالذات إلا لهذه الخاصية التي هي فيها فركها
لتنشترك بعملها في بناء جرسه العجيب .

وإن مخترع ما كينة الطحين قد مهياً للحبوب مستودعها المخروطي المعروف
فتوضع الحبوب فيه ثم بعد ذلك هي تهوى بثقلها الذاتي إلى حيث يريد
وحسبه أن يجعل المسالك لتؤدي إلى غايته ولا داعي ليتكلف شيئاً يلتقط
الحبوب من مكانها ليوصلها لأنها هي واصله .

بل كثيراً ما يتأسس عمل الآلة على المصادفة المحضة يجعلها المخترع في
حسابه ويبنى عليها ومن غير تلك المصادفة ما كانت آلهته تعمل عملها . ففي
ما كينة تذرية الغلال مثلاً تجد الآلة تفصل حبوب القمح عن الطين كيف
ذلك . الأمر بسيط . جعل الحبوب بحيث تقع بعد خلاصها من التبن على
ما يشبه الغربال المتحرك . تحرك الآلة باستمرار وفيه ثقب بنظام شكل
الحبة . والحبوب بسبب حركة الغربال تتحرك وتضطرب فيتصادف أن تقع
معتدلة على فوهة الثقب فتنفذ منه . ولما كان الثقب مفصلاً على هيئة جسم
الحبة فهو لا يسمح بمرور غيرها .

لم يبق من وجه لك بعد ذلك في الريبة إلا أنك سمعتهم يقولون لك إن
الأحداث العاملة في انفصال الأرض وتكوينها كانت تتسلسل وتتوالى

ولا شيء يحدوها يمكن أن يُرى وهذه لعمري - ليست شيئاً فالنتيجة الأخيرة المعقولة التي انتهى الأمر إليها توحى بأن الأحداث لم تكن وجهتها الفوضى وإنك لتلاحظ التدبير والقصد والتسديد في اتجاه هذه الأحداث خصوصاً في الأدوار الأخيرة من الأمر حين تنشئة الحيوانات والنباتات . إنك لتلاحظ ذلك بحالة قاهرة غالبة تجعلك لا تستطيع أن تقول بسواها وإلا فما مسالك في ثنايا الحيوان ليجرى الدم إلى كل خلية فيه مهما تداخلت أو ترامت ليغذيها . وما شبكة عصبية تشمل كل أعضائه لا تترك موضعاً لسن إبرة يقع على الجسم في أى أعضائه شاء إلا ويحصل الاحساس به على الفور . هذه أمور لا يتأتى الحصول عليها من غير تدبير والكل من باب واحد كما تعلم من يرقب الحوادث المكونة لذلك يراها تتوالى وتتسلسل ولا شيء يحدوها يمكن أن يرى . ضع خلية حية تحت المجهر وارقب انقسامها تجد عجايباً وتدبيراً أكيدا وخطة محكمة منسبوبة تروق وتبهج . ترى الانقسام قد شمل كل شيء في الخلية ، قد تناول البروتوبلازما والنواة وكروموسومات النواة ونوياتها . والغريب أن الكروموسومات وهى ذات العدد المقدر المحدود تراها قد انقسمت قسمة عددية مضبوطة كما يفعل الحاسب تماماً . وقد كانت القسمة كذلك بدقة وبغاية الضبط في كل شيء آخر في الخلية ، مع أن هذه الأشياء دقائق لا يتصورها الذهن إلا وهما ولولا المجهر ما كان رآها ولا استطاع أن يراها . وقد انحاز كل قسم إلى جهة وتباعد ثم قام الجدار بينهما مكان القطع هذه عملية تجرى أمامك وإن تبحث حولها لا تجد شيئاً يحدوها يمكن أن يرى ولكن بالرغم من ذلك فما نستطيع أن نقول إنها جاءت من غير عقل

وتدبير وحكمة لأن الفعل نفسه لا يتأتى من غير ذلك . والغرض من الانقسام هو أيضاً ظاهر ولا غبار عليه هو تكوين الهيكل الحيوانى أو النباتى فلا تزال الخلية تنقسم والخلايا المستجدة كلها كذلك تنقسم وتتراص بعضها بحرار بعض بانظام وإحكام حتى تتكون الصورة المزمعة المشابهة لنوعها تماماً لا تعدوها ولا تخطئ في تكوينها ولا يلتبس عليها الأمر أبداً . إن هيمنة عقلية يقظة مدبرة تسيطر على هذه الأحداث ولا شك رأيناها أو لم نرها إنه لا يتعاقب بالرؤية إلا الشخص البدائى المتوحش الذى لا يستطيع أن يتصور أن تدبير العقل يمكن أن ينفصل عن الجسم الذى هو حامله . أما هنا فى عصر العلم والاختراع والتدبير واستخدام الآلات العاملة التى تعمل بدل صاحبها كالأثر من آثار تدبيره ، وتقوم بعملها بالنيابة عنه غاب أو حضر وبقي حياً أو مات — فما أرى لها الآن موضع ، وإن لنا فى اللاسلكى الحاضر لعبرة وبه أمكن للانسان أن يسيّر الآلات على سطح المحيطات ، أو فى أعالي الجو وهو عنها بعيد — بينه وبينها أميال وأميال ، ويعمل إرادته عليها إسراعاً وإبطاء ويوجهها إلى هنا أو هناك وهو كما هو حتى إذا بلغت الهدف الذى يبغي أمرها باطلاق النار ففعلت ثم يأمرها فتقف راجعة . هذا كله تم الآن للانسان وهو ذلك المخلوق البشرى الضعيف فما بالك بالله الذى خلقه برمته وأقدره على كل شيء تم له .

إن وجهة الباحث دائماً لا تتجه من الفاعل إلا إلى عمله ليرى ما فيه من صواب أو خطأ ومصلحة أو عيب ، وهل دل عمله على حذق وبراعة وذكاء أو دل على نقىض هذه الصفات ، ولا يعدو هذه الدائرة ليبحث عن شخصية

القاعل إلا إذا رآه مجرماً ليوقع عليه العقاب . هذا وقد بدرت منك برادر
نسبتها لتعلم ما أرى لك عليها من سلطان - قلت إن الجسم المنفصل من جسم
متحرك يظل متحركاً كأصله وعززت هذا الوهم (بلا بلاس) وتجربة
(لا بلاس) فإن كان ذلك صحيحاً فهل تترك حركة الأرض كحركة أمها
الشمس ؟ كلا ثم كلا . . بين الحركتين الخلاف كل الخلاف . . وغيرك يقول
إن القمر ابن الأرض قد انفصل عنها وما هو يتحرك فهل حركته كحركتها ؟
كلا ثم كلا أيضاً . . إذا فما الداعي إلى إقحام لا بلاس وتجربة لا بلاس في
الامر والتطرق بلسان العلم مادام لا مناسبة بين الحركتين .

إن كان صحيحاً أن الجسم المنفصل يظل متحركاً كما كان أصله يتحرك
فالمخالفة بين حركة الأرض عن حركة الشمس حتى تكون مناسبة للأحياء
دون سواها هو إلى أن يكون دليلاً على التدبير أقرب من أن يكون دليلاً
على عدم التدبير . ويؤيد هذا الاتجاه أن الحركة التي صارت للقمر مخالفة
لحركة أمه الأرض - هي أيضاً مناسبة للأحياء دون سواها .

وقولك إن العناصر التي تكون منها الماء والهواء وهلم جرا : كانت كلها
في الشمس من الأول . إن ذلك لا يعنيني - فمن أراد بضاعة بعينها عمد إلى
المصادر التي هي فيها ، فاجتلبها منها ، وما يقدم ذلك في تدبيره شيئاً . ماذا
يضيره إن وجد أن كل ما يطلبه مجتمعاً مكديساً فاقطع قطعة تحمل حاجته
وعاد بها ؟ ثم هل رأيت وقد تحول الأكسيجين والأدروجين ماء
والأكسيجين والأزوت هواء فهل ترى أن الأرض لم يعد فيها بعد ذلك
أكسيجيناً وأدروجيناً وأزوتاً ؟ لماذا هذه لم تتحول كلها ماء وهواء مادام

الأمر فوضى ؟ إذا الماء حضّر بقدر الحاجة والهواء حضر بقدر الحاجة أيضا وبقي ما بقي من هذه العناصر بعد ذلك للشؤون الأخرى . أفما تجد التدبير الصارخ حتى في النقطة التي زالت فيها قدماك ؟ وهذه الأحداث الأخرى المتتابعة التي اسفرت عنها النتائج الصالحة الأخيرة من إحداث جبال ووديان أو مزج الملح بالماء أو إنشاء تربة زراعية وهلم جرا . هذه الأحداث لا يعينني أمرها فلة-كن كيفها تكون فقد أدت الغرض الأخير وهو لا ريب فيه وما كانت خطواتها إلا في السبيل إليه . أو ما يتعرض الملاح بسفينته وشراعه للرياح لتسوقها له ؟ أو ما تعمد الغسالة إلى الشمس فتفشر ثيابها فيها ؟ وما يضير ذلك أيا منهما . ولولا علم الملاح أن الرياح تفعل له وتسير مع غرضه لما سار معها ولو أن الغسالة وجدت الشمس قد زالت وحل محلها المطر . لأسرعت بجمع الثياب . وقد سبق أن قلت إن كل تدبير للحصول على غرض تشترك الأحداث الطبيعية في إتمامه ذير مأجورة والفضل يظل لصاحب الفكرة المدبر لها حتى فيما أنجزته تلك الأحداث بقواها ، ثم لا تنسى أن تلك الأحداث وهي تعمل لا تستغنى عن رقابة المدبر وتوجيهه . إن طاهى الطعام لو ترك طعامه للنار لا حترق والملاح - وقد وضع سفينته بين يدي الرياح - يظل يقظا منتبها لا يعطيها من نفسه إلا طيلة ما كانت سائرة مع وجهته لا تعدوها فان رآها قد اختلفت أسرع بضم شراعه والالتجاء إلى الشاطئ . . .

فقد بان لك أن هذه الأحداث ما كانت لتريك إلا لأنك مرتاب بها من الأول فنسبتها إلى المصادفة والفوضى متعجلا الحكم بذلك قبل تدبر الغاية

والصواب أننا ننظر النتيجة أولاً ثم نحكم وقد ظهر لك أنها كانت خيراً
يحدوها التدبير في كل خطوة ويسددها القصد إلى الغرض لا تعدوه إلى سواء
وأهلك (لابلاس) باثبات الحركة عن نوع الحركة الخاصة التي أمامك ،
المخالفة لكل حركة سواها حتى حركة أمها الشمس لا شيء إلا لتتفق مع
مصلحة الأحياء تماماً فيكون الليل مقدراً بقدر المصلحة والنهار مقدراً
بقدرها ولا خلف في ذلك عما تقتضيه الأمور . وأرايتك الأحداث الطبيعية
التي اشتركت في العمل متغافلاً عن أنها دائماً تدخل في كل تدبير . وأنها مع
ذلك لا تستغنى عن رقابة المدير الأول وإلا لأفسدت عليه الغاية . وأزعجك
أنك رأيت المطر قد جرف الملح وما من داع إلى ذلك . وما المانع من تركه
له ليحرفه مادام سيصل معه إلى مستقره الأخير فيمتزج به على مهل ويحصل
الغرض . وقلت ماوقفت الأرض حيث وقفت إلا لأن قانون الجاذبية
أوقفها . وما المانع أن يكون هو نفسه أوجد ليفعل ذلك فيما يفعل أو ما ترى
النجار لكي يحفظ صورة الشباك ويبقى على أجزائها تماسكها يعتمد إلى
المسامير لتفعل ذلك . وقلت ما عناصر الأرض التي كونت أسباب الحياة إلا
كعناصر الشمس التي هي منها وقد قلت لك إن ذلك لا ينال في التدبير فالمدير قد
جاء بما يريد من أي جهة شاء لا تسأل عن الجهة ولكن أسأل هل ما جاء به
كان كافياً للغرض المزمع . ثم قد بينت لك أن التدبير كان ظاهراً في التكوين
كل الظهور فلم يكن من الماء إلا اللازم ولم يكون من الهواء إلا اللازم
وترك باقي العناصر التي كان يمكن أن يتكون الماء والهواء منهما لتبقى
للمصالح الأخرى .

فيا صاحبي : لا داعي للريبة مما لا يريب ، إن شبهاتك نفسها التي وقفت
عليها وجدت الخلق المنعم من أجلها لا ندمي إلى ذلك أبداً بل هي تشهد له
وتدل عليه فما بالك لو وجهت وجهتك إلى الأمور الإيجابية الأخرى الملزمة
التي تحتم على كل من طالعها أو يدين له ويسبح بحمده ويلهج بالثناء عليه
لا يملك غير ذلك ولا يستطيع غير ذلك ؟

وهنا اتجهت إلى الرجل أنظر أثر كلامي في نفسه فوجدته قد نام وقد
انطوى وقد تدلى رأسه بين يديه يكاد يصل إلى الأرض فتركته حيث هو
ومضيت لشأني حتى أعود إليه في اليوم التالي .

سيرة فلاو أعمال الحياة من غرهم أخير

كما توهموا

إني لا استطيع أن اتق بما عندي إلا إذا عرفت خطأ الحزم الذي
بخالفني ؟
« المؤلف »

قال الرجل وقد جلست إليه للمرة الثالثة : يظهر أن حقنة الأمس التي
بضعتك بها لم تكن كافية لتذهبك وتوقف شعورك وتفتح عينيك على ما كشفه
العلم لنا من مأس — القلب منها في حسرة ، والنفس في وحشة ، والعين
تفيض بالعبرات ، — ومن القدم كان الوجوم من شأن الفلاسفة والعارفين
أما السذج البلهاء فهم من ضلالهم في نعيم . إن العلم يأسدي كشف لنا عن
حتمات مرة لا سبيل إلى الهرب منها ولا معدى لنا عن اعتبارها وأخذها في
حسابنا — رضىنا أم أبينا — وهي في نظري على كل حال خير من أن

لأنكون علمناها — وهل يؤثر من استتفاق من وهم كان له — هياً له العدو صديقاً ؛ أن لو دامت له غفلته ، ليظل ناعماً بذلك الوهم الذي هو قاتله ؟ كلا ثم كلا . . وما كان الأعمى مطلقاً كالبعير وما كانت الظلمات كالنور . . قلت لك إن الحياة عبث فارغ ورمية من غير رام وسقت لك الدليل على ذلك بانفصال الارض عن الشمس وتوالي الأحداث عليها بعد ذلك حتى صارت كما هي فكنت كمن أدخل زميله من باب فخرج من غيره وأخذت بيدي تعدد لى أسباب الحياة المكتملة ووسائلها المتقنة فى الحيوان والنبات حتى كدت أصدق . والحقيقة إن تلك النظم لما يهبج النفس ويوحى بالعجب لولا تلك الحقائق المرة التى يراها من رفع رأسه ونظر إلى مدى .

أطلت القول فى الكلام عما يحيط بنا من ماء وهواء وشمس وقمر وما يشتمل عليه النبات من نظم عجيبة وهندسة حقة وما زود به الحيوان من حواس وآلات وملاكات — ولكن أتعلم مآل ذلك كله ؟ — لسرعان ما تجد هذا البناء العظيم ينهار ! ألقى نظرة عامة على هذه الكائنات الحية التى تغمر اليابس والماء والهواء وانتظر قرناً واحداً من الزمان وانظر ما لها تراها قد زالت كلها تقريباً وحل محلها سواها جديد « كل الجدة » ووسائل العلم أين ذهبت تلك تراه يقول لك قد عادت كأصلها تراباً كهذا الذى تطؤه الاقدام وأكسجيناً كهذا الذى نجرى عليه تجاربنا فى المخبر وماء كهذا الذى نغسل به أيدينا وهكذا وإذا بكل شيء كان لها قبلاً قد زال وقد تلاشى كفقاعة الصابون .

لتنوع الحيوانات ما تنوع حتى يكون منها الميكروب الذى لا يرى إلى

الفيصل الذى يسد الفراغ ، إلى الانسان الذى امتلك بتدبيره ناصية العالمين ،
وليزود كل نوع بوسائل حياته التى تخصه دون سواه حتى يستطيع النهوض
بشأنه ولتسكن له أجهزة التنفس والهضم وآلات السمع والابصار وليكن
للنبات من مثل هذه الوسائل أيضاً ولكن ذع كل ذلك جانباً وارقب النتيجة
الآخيرة - إنك لا تجد شيئاً !

تنطلق شعلة الحياة فى الهيكل الحيوانى فتراه يتعفن ويتحلل بناؤه بسبب
الحيوانات البيكتيرية التى يعج بها الفضاء تنتظر ساعته لتحيله جماداً كأصله
الأول فيأتى النبات فيمتص تلك الاجزاء الجمادية المتفرقة ويبنى بها بناءه
الجديد فترى المواد التى كانت تبدو لنا قلباً ورئة ولحماً ودماً وعصياً ومخاً يفكر
وعيناً تبصر قد صارت جذراً وساقاً وورقاً أخضر ناضراً ؛ وزهراً فيأحيا
بهيجاً ؛ فيعتمد الحيوان الجديد إلى أكل النبات بدوره فيستحيل فى جوفه إلى
مثل بنيته يحدد الحيوان من بنائها ما تهدم من بنائه - يشيد له قلباً مكان القلب
ورئة مكان الرئة وأذن وعظاماً وغضاريف وهكذا ثم يستحيل الهيكل الحيوانى
إلى أصله كما قلت لك فيصير حديداً كهذا الذى نظرقه بالمطرقة وتراباً كهذا
الذى نبني به مساكننا ولربما كان بعضنا من سندان الحداد الذى يطرق عليه
كان قبلاً جزءاً من ذهن ألمعى أقام الدنيا وأقعد لها ولربما كان ضمن الحجر
الذى نرميه بأيدينا بقايا لسان كان يتدفق بالبيان .

الجماد إذاً يستحيل نباتاً والنبات يصير حيواناً والحيوان يعود جماداً
وعكذا دواليك كحلقة مفرغة لا نعرف لها أولاً من آخر ولا نعرف لهذه
الحركة المتتالية غاية أخيرة يمكن أن نتعقلها ونخرج بها ؛ فماذا أفاد النظام
السابق ؟ وهل يغنى عن البحث ما دامت النتيجة الآخيرة لم تكن إلا عبثاً

لعمرى إن العايب قد يتلهمى برسم رسم لا غرض له فيدقق في قياس أبعاده
واستقامة خطوطه وضبط زواياه ثم بعد ذلك كله لا يخرج عمله عن وصف
العيب لأن جهده الذى بذله لم تكن له نتيجة أخيرة ولا ثمرة مرجوة .

ألا ياسيدى فابك على نفسك منذ اليوم وتحسر على حالك معى إن
كنت من العاقلين .

قلت للرجل يبدو لى أنك اعترفت بالنظام البادى فى بناء النبات والحيوان
والهندسة البديعة الحققة التى تؤلف بين أجهزة كل أعضاءه وتجعل التوافق
بين أعمال الجميع محكما منتظما يودى إلى غرض أخير هو حياة هذا الحيوان
والنبات وذلك ما اعتبره كسبا أى كسب فى أمر القضية التى نحن بصدددها
والحقيقة إنه مامن عقل فى الدنيا يستطيع أن يتجاهل هذا النظام أو
يغفل عنه بحال ومتى ثبت القصد والنظام كما رأيت فالاعتراف بوجود المنظم
المدير الذى فعل - تعتبر ضربة لازب لا يحصى عنها أبدا .

النظام يوحى بالمنظم الذى نظم ويحكم الاعتراف بعقله وإدراكه الذى
لا يتأتى النظام بدونه والغاية الأولية التى كان النظام يتجه إليها لمصلحة
الحيوان والنبات تشهد بقصده وتديره مامن ذلك بد . وبعد ذلك فكونه
فعل فعلة لغير شئ وأقام النظام ليهدم - من بعد ما قام فعلا وأدى مهمة
أولية عرفناها - فذلك بحث آخر غير ما نحن فيه - ننظره حين ننظره - بعد
الاعتراف بوجوده ومداركه التى حتمت الاعتراف بها الاحداث ، ننظره
بعد ذلك لنرى هل كان حكيما فيما وراء ذلك مما هو أمامنا أو عابثا .

حتى فى المثال الذى سبقته لذلك العايب الذى نظم الأبعاد وضبط الزوايا

واجتهد أن تكون خطوطه هندسية متقنة بقدر ما يقدر فهو وإن كان عابثاً لأن غايته الأخيرة كانت لغواً إلا أنه فيما فعله كان عاقلاً مامن ذلك بد وإلا ما عرف كيف ينظم عمله وكان يقظاً منتبهاً وإلا لفسد النظام، وعلى ذلك فتلك الصورة التي تلهم برسمها تشهد بوجوده وتحتم الاعتراف بما كان يتمتع به من عقل وإدراك وإن كانت فيما وراء ذلك لا تخلّيه من وصف العبث المغيّب .

وإذا رجعنا إلى بدء المسألة التي كانت المناقشة فيها وأنها كانت للتساؤل هل الوجود توجهه الفوضى وأحداث المصادفة واضطرابات أم تهيم عليه قوى عاقل بصير مدرك منعم متفضل . علمنا أننا قد فرغنا من غرضنا تقريباً وانتهينا إلى ما أردت من إثباته لك لا أقنعك به .

ولنا بعد ذلك أن تتأمل عن تلك الحركات المتتالية والاسـتـحالات المتتابعة المنتظمة في حلقة مفرغة لا نعرف لها أولاً من آخر ما بالها وما شأنها وكيف هي تتحول ولماذا ؟

النبات مكون من خلايا حية تتكاثر بالانقسام فلا تزال الخلية تكبر حتى إذا وصلت إلى حد محدود تراها قد انقسمت إلى خليتين صغيرتين ولكي تصير كل خلية منهما خلية كبرى تنقسم - لا بد أن تنمو أو لا فتعتمد إلى المواد الجمادية التي من حولها فتأخذ منها حاجتها لتغذي فتتموثم هذه الجمادات وهي تتجمع في جوف الخلية لا تكون كالحصا يملأ الجعبة . كلا فان الخلية تحوّلها كيمائياً بطريقة علمية عجيبة وقف أمامها عباقرة الكيمياء في العالم باهتين مشدوهين معترفين بالعجز والقصور والافلاس عن أن يحاروها فيما تعمل . والعجيب أن كل خلية لنوع من النبات مخصوص لها نظام في اختيار

المواد التي تصيدها وفي تقدير الكمية التي تأخذها ثم في نظام تركيبها وتكييفها لا يتفق مع نظم الأنواع الأخرى ولا يختلف عن النظام اندي يجري عليه خلايا نوعها بحال .

وترقب هذا التكاثر ما وجهته نراه لتكوين أعضائه النبات وبناء أجسمته واستكمال أدواته كلها التي تتطلبها حياته ليكون نباتاً يؤدي مهمته ويؤتي أكله لا يزيد على ذلك ولا تنقص شيئاً .

الجماد إذا تحول نباتاً تصيده النبات فأحاله ، لينى منه هيسكه ويستتم كيانه فالغرض أكيد إذا واليد صناع تلك التي أحالت الجماد نباتاً بحالة تعز اليوم على أساطين الكيمياء وتطول ؛ والقدرة باهرة والتدبير لاشك فيه ذلك الذى كرس من الأوراق معامل كيمائية عجيبة تكون السكر والنشا وتهضم الغذاء وتستنشق الهواء . وقل مثل ذلك فى بناء الزهرة واستكمال أسباب التلقيح فيها ومُغرياته ووسائل الإخصاب والاستيلاد وصيانة الأجنة وحفظها حتى تتكامل وقل مثل ذلك فى مسالك الغذاء وهو صاعد ليهضم ثم وهو هابط ليغذى ؛ وغير ذلك كثير .

وإنك لتجد الجماد منذ قد انتظم فى النبتة قد صار غير ما هو تماماً ومن كل وجه فبعد أن كان كائناً متهاقناً مستسلماً لا يبالى أين تلقى به تراه الآن قد صار شيئاً آخر له وجهة يعرفها وله غاية وله مأرب إن تغشى أطباق الثرى أعاليه تراه قد جاهد ليطل برأسه ويأخذ مكانه تحت الشمس حتماً ، وبعد أن كان مفسكاً متقاطعا حتى ماتعنى الحصة بأختها التي تلاصقها قد استحال إلى هيكل كلى إذا تماسك جدى يحس أوله بحاجة آخره فإذا طلبت الماء الأجزاء

العليا للنبتة ترى الجذر قد امتد وقد استطال يفتش عن الماء أين هو ليعب منه ويرسله حيث طلب . وترقب الجماد وقد صار جذراً فتراه قد استحال إلى جوال حوال لا يبدأ عن الجولان والبحث يفتش عن حاجة بعينها يظل دائماً حتى يلقاها . يعرفها بدقة ويأخذها بقدر — هذا حال جديد حقاً وحدث سار .

علمنا الجماد استحال نباتاً إذاً وعرفنا الغرض — ثم ماذا ؟
يتحول النبات حيواناً . يطلبه الحيوان لياً كاله لأغراض التغذية المعروفة التي منها استكمال نموه وتعويض ماتهم من بنائه فيصير له من النبات — بعد استحالته — قلباً مكان القلب وعينا موضع العين بحالة تدريجية لا يحس بشيء منها ولا صاحبها التي هي فيه . إن الانسان يستبدل كيانه المادى بغيره بعد نحو عشر سنين أى أن بدنه بعد عقد واحد يصير جديداً كل الجدة ولكن بطريقة تدريجية كما قلنا فيها البناء والهدم كل يوم بل كل ساعة — ثم ماذا ؟

تعتمد البكتيريا إلى كل نبات بقى لم يؤكل وكل حيوان مات أو نفق فتحدث فيه الحالة المعروفة بالتعفن وتحلل بنائه والغرض أن يعود بنائه العضوى جماداً كما كان ليجد منه النبات المنتظر مادة صالحة يغتذى بها . وينبغى أن نعلم أن النبات لا يستطيع أن يغتذى إلا جماداً والحيوان لا يغتذى إلا نباتاً أو حيواناً مثلاً .

الحكمة من التحويل ظاهرة إذاً والغرض جدى أكيد النفع لا غبار عليه فلو لم تستحل المادة نباتاً ما وجد الحيوان ماياً كله فيموت ولو وقفت البكتيريا عن العمل وتحويل المواد العضوية ماتما النبات الجديد ولا كان

فالحلقات ثلاث آخذ بعضها برقاب بعض يتوقف وجود كل حلقة على ما قبلها كما هي سبب لوجود ما بعدها .

هذا — ولا شك أن سؤالك يتطلب كذلك الاجابة عن الحكمة من وراء ذلك كله . الجماد استبحال نباتا ليجد الحيوان ما يأكله والبيكتريا أحالت الحيوان جمادا ليجد النبات الجديد ما يأكله ولكن كل من الحيوان والنبات الذى كان هنا وزال ما شأنه وما خبره وماذا كانت الحكمة من وجوده ؟ ما هو قد قام وقد نظم بناؤه واستكملت أعضاؤه وقدم الغذاء لغيره وقد ضمن امتداد سلسلة نوعه بترك بذوره لتظل الدنيا عامرة حافلة بالأنواع والأشياء ولكن لماذا ذلك كله ؟ ألجرح أن تظل عامرة ؟ أللفرجة والزينة ولتشهد الأرض والسماء توافد الأنواع لاتسكت وجلاذ الانسان لا ينتهى وقيام المآتم والأفراح وكفى ؟ وإلى متى ؟ وما الغاية ؟ هذا هو موضوع السؤال الذى زلزل منكم الأذهان وبلبل الأفكار وأقضى المضاجع ولكن ما شأنى أنا ؟ سلوا فلسفتكم لتجيبكم . ؟

أتركبون طريقا خاطئا لا يوصل إلى دار ولا يؤدي إلى قرار حتى إذا أوغلتم فيه وحفيت منكم الأقدام تطلبون منى أن أوصلكم منه هو نفسه إلى الغاية التى لا يؤدي إليها أبدا .

ما أنسى (البخنر) المسكين وقد وقف موقفك هذا من مسألتك هذه يتحسر تحسرك ويقول :

(فلو صح ذلك وصحت الاعتراضات على الارتقاء لكنا فى أسوأ حال ويكون العلم قد كشف لنا ما يضعف العزيمة إذ يكون وجودنا ووجود

الشعوب والأمم والحياة في عموم الطبيعة منذ ملايين من السنين عبارة عن عود الأشياء على نفسها لا بداية ولا آخر ولا غاية ولا تكميل فتظهر الافراد والشعوب والأمم والنظامات وتختفي كأمواج البحر بدون أن تترك أثراً اللهم إلا مكاناً فارغاً تملؤه موجة جديدة تذهب ثم يأتي غيرها وهكذا إلى ما لا نهاية (١) وهذه هي إحدى مآسى المادية والاحاد ولن تكون آخرها بحال ..

إنكم فهمتم الحياة على أنها لعبة والانسان على أنه آلة تعمل نتيجة للتركيب ثم تطرأ عليها الطوارىء فتتفكك فتتحلل أجزاؤها لتتركب في أخرى وعلى ذلك فلا قصد ولا غاية ولا ثمرة ولا نتيجة ولا أى شىء يمكن أن يتمخض عنه دوLAB الحياة بحال . هذه هي الفكرة الساذجة الخاطئة التى فهمتم الحياة وأعمال الحياة على أساسها . ولما كانت الخطة العملية للحياة التى فيها تعيشون . وعلى مبادئها تتقلبون وبأسلوبها يتأثر منكم الوجدان والمشاعر وتتكون خصلة المنطق الذى به تقيسون الأمور وتضبطون الأشياء ، لما كانت

(١) إن امر الماديين عجيب - فهم قد فهموا الحياة على ان اساسها المصادقات ، ووجهها الفوضى . ومع ذلك لا يجلس احدهم ليدرس نباتا او يشرح حيوانا ، الا ويتساءل عن كل شىء فيها : ما وظيفته - ما اهميته ؟ ولا يغيب عليه من ذلك شىء الا ويجد وبداً متقدماً تماماً انه لا بد واجد ، وليس ممكناً الايجاد - وهذا كله ما كانت انطال به المصادقات . وهو إن وجد ما كان ينبغي ان يصروا على انها السائق للحياة . ويعضون فى طريقهم يملأون المكتبات بأسفار علم وظائف الاعضاء والتشريح ، والمناغة الجسمية ومركبات الدم وخلصات العدد وهم جرا . حتى إذا فهموا اخيراً على ان الحياة تعمل لغير غاية - انزعجوا ونحبوا - ولا ادري لماذا ذلك ؟ وهو المنتظر من المصادقات ، وتلك دائماً الفوضى !

إننا نشكركم على حسن ظنهم بالحياة إلى هذا الحد . نسجل عابهم ان اتواهم لا يرتبطون بها عملياً ابداً - وعلى ذلك فالخادم كلام وليس إلا كلاماً ،

الخطوة العملية المحسوسة الملموسة على النقيض من ذلك فقد ترتب على
فلسفتكم المشنومة أن بدا لكم الوجود بعيداً عما ألفتتموه وفهمتموه مخالفاً لما
ألفتتموه وفهمتموه فحصل لكم الانزعاج كالمستأنس يرى وجه الغول . ومن
ألف الجبال يرى القبح ومن درج على النظام تطلع عليه الفوضى وهذا هو
السبب في الخيرة وهذا هو السبب في القلق .

يخرج الانسان إلى الوجود فلا يحب أو يكره إلا لسبب استوجب
الكراهية أو الحب ولا يخطو إلا إلى غاية ولا ينقلب إلا لغرض حتى
العابث لم يكن عبثه إلا لينفق طاقة لا بد أن ينفقها أو ليشغل نفسه بالعبث
ويلاهيها ويهرب به من قلق هو فيه مثلاً وحتى الطفل لا يدرج إلا للعبة يريد لها
أوشى . راقه فأتبعه ولكنكم حملتم أنفسكم على أن تفهموا الحياة على غير
هذا الأساس وهو فيها فصورتم لكم الفلسفة النظرية . الحياة على غير هذه
الصورة العملية التي انطبعت عليها ونشأت فيها فكان لابد من الارتباك .

وإنك ترى المسرف المستهتر يقف أمام حبيبته التي لا تهواه يتنزّلها
ويترضاها ويبيعثر المال تحت أقدامها بالحفنة كأنه يغترف من بحر ومع ذلك
لا تنظر إليه نظرة ولا تحادثه بكلمة حتى إذا خرج الى شأنه تراه لا يسقط
منه الدينار أو الدرهم إلا ويقف لبيحث عنه بحث الحريص على ماله ولماذا
وقد أضاع ما أضاع من غير ثمرة ؟ ولكن كلا إنه كان ينفقه في غرض
أكيد يفهمه . هو ينفق ويقول : عسى ولعل والانفاق أقرب إلى تحقيق الأمل .
أما الآن أفترض أن يسقط منه الدينار أو الدرهم من غير فائدة ويتركه ؟ —
هذا لا يكون وهذا هو منطق على كل حال ولا يمكن أن

يعيش من غير منطق ولا يستطيع .

إن الانسان لو صار بحالة تخلى فيها تصرفه عن المنطق أقل وقت فانه إذ ذاك يرمى به في المارستان فما عاد للحياة بصالح . تصور أحداً أمسك فكره عن تعيين وجهة أو غرض أيّاً كانا وانظر أقدامه إن كانت تخطو — لا يمكن أبداً .

إننى ما عرّجت بك على موضوع المواليد الثلاثة إلا لأريك أن العلم حتى آخر مراحلها لم يبر في الحوادث التى تغدو وتروح فى أركان الدنيا إلا القصد والتدبير والغاية والمصلحة . تسقط الورقة من الشجرة أو يرمى الأحياء بالثمرة التى هى غير صالحة أو يموت الحيوان صغيراً أو كبيراً فى أى من أركان الدنيا كان . فلا يلبث ذلك جميعه أن تتناولها البيكتريا بالتعفن والتحليل وقد علمت الغاية الأكيدة من وراء ذلك كله . ويقوم الهيكل النباتى على ساقه مشتملاً على ملايين الملايين من الخلايا ومع ذلك لا تجد خلية غير عاملة وتبحث فى أعضائها فلا تجد غير المصلحة المقتضية لوجود كل هذه الأعضاء حتى السـلـاء والوبر وحتى لون الزهرة وريحها وعمقها أو قربها وتفتحها وانقباضها . وحتى وجود الزهرة موقوت بالغاية والمصلحة فإذا ما انقضت منع عنها الغذاء فى الحال لتزول — فلم يعد لها من داع — هذا هو الوجود وتلك شرعته الصحيحة الحققة التى نراها ، وذلك هو الانسان الناشئ فى أكناف الوجود الراضع لأفاريقه وذلك هو دينه المنطقى وأسلوب حياته — حملتموه بفلسفتكم على أن يفهم الوجود على غير ما ألف ففزع ، وأن يرى فيه غير ما تعود فنزلزل وأدخلتم فى روعه أن ذلك أمر لامعدي من

قبوله فسكن على منفض كمضض المحموم ثم ما كنتم بها من بعد ذلك بأسعد
حالا بدليل صيحاتك المداوية هذذوصيحات (بخنر) وهو من زعماء الكهوسواه
لامعدى لكم إذا من ترك هذه الفلسفة الخاطئة وبعد ذلك تسمعوا منى
الجواب ..

وأود أن أنبه من الآن إلى أنه لن يكون كلامى كتنظرية بدل أخرى
ورأياً مكان رأى .. كلا فلك أمور قد تنبه الانسان إلى خداعها وختلها
وصار يتحاماها ويحمى منطقها عن قبولها بل سيكون علمياً بمعنى الكلمة أيده
التجارب وشهد به التطبيق وقال به علماء الطبيعة فى مجالسهم العلمية وبصفتهم
الرسمية . وهم كما نعلم لا يقتنعون إلا بالمحسوس الملبوس الممحص الذى قد
صار من الصحة بحيث لا يحتمل سواه .

يتطلب فهم جوابى فى صدد النتيجة الأخيرة التى تنتهى إليها أعمال الحياة
إلى الاقتناع بالحقائق التالية :

(١) الإنسان سيد الطبيعة (٢) وهو ذو روح - هذه تدبرها ورؤى
نفسك على قبولها (٣) وتبقى روحه بعد فاته

١ - الانسان سيد الطبيعة | أتريد دليلاً ؟ إليك : قد تصرف فى
الكائنات وهيمن على القوى وصار الأمر المطاع ، تطيعه حتى الآلة الصامته
وذليل الحيوانات لخدمته حتى الميكروبات والبيكتريا فصنع الأمصال وأحدث
التخمير وكل هذه المنتظمة فى خدمته المنتظرة لشارته . إن تخلى عن عرشه
الانسان ووضع الصوجان من يده تفرقت بددا وصارت تهيم على وجهها كما
كانت تفعل من قبل فما تستجيب لسواه ولا تعمل من غير تدبيره أبداً هذا

وأجبرتني على اعتبارها حقائق مثبتة قبل أن أعتقد نسبتها إلى الأرواح بمدة طويلة .

وقال العلامة الايطالى (سيزار لومبروزو) مكتشف علم الجرائم فى كتاب له : (لم يكن أحد أشد منى عداء (للاسبرتزم) بحكم تربيتى العلمية وميولى النفسية وكنت أعتبر من البديهيات العلمية أن كل قوة ليست إلا خاصة من الخواص المادية وأن كل فكر وظيفة من الوظائف الخفية وكنت أهرأ دائماً من الأخونة المتكلمة ولكن غرامى باظهار الحقيقة وتجلية الحوادث المشاهدة قد تغلب على عقيدتى العلمية) .

وفضلاً عن هذا التصريح المجمل فقد بينوا فى مؤلفاتهم التى نشروها فى هذا الصدد ما رأوا - ومنه ترى الأسبيل إلى القول بغير ما قالوا . ولقد كانوا كما سمعت أشد شكاً منك فى ذلك وقابلوه بكل ريبة واحتياطوا أعظم حيلة خشية الخدعة والضلال . وبينوا تلك الاحتياطات التى اتخذوها - وهى تترى ألا مرمى بعدها لغاية ؛ وأنها توحى بالفطنة البالغة والحذر الشديد وأكثرت من كل ما سبق فقد كان الجو الذى يحيط بهم جواً مناقضاً لهذه الأمور راضياً كل الرضى عن القديم يظن أنه التعليل الأخير للأمر ليس بعده شىء . لذلك كان يقابل كل من يقول بالروح منهم بعد ذلك بالنقد والتجريح ويعتبر قوله ردّة يستحق عليها التثريب والملام ومع ذلك وبالرغم من كل ذلك كانوا يقولون راضين بالتضحية مؤثرين الاستشهاد .

قال العلامة السكياوى الكبير (ولیم کروكس) : (بما أنى متحقق من صحة هذه الحوادث فمن الجبن الأدبى أن أرفض شهادتى لها بحجة أن كتاباتى قد

استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ممن لا يعلمون شيئاً في هذا الموضوع) . فبإلته إنه يؤدي شهادته في جو مما كس حقاً لذلك تراه يستجمع شجاعته للغاية ليؤديها مؤثراً خدمة الحقيقة على كل شيء وقديماً آثر خدمتها (برنر) على الأبقاء على نفسه فظل يقول بحركة الأرض التي تحقق منها وهو يعلم أن ذلك سيؤدي به ومع ذلك ظل يقول حتى أودى به هذا القول فدلاً وأحرقه الجاهلون الجامدون .

أفأ ترى أننا أمام حقيقة جارية ظهرت فعلاً نقضت فهمنا في الإنسان رأساً على عقب وإلا فما بال أساتذتنا في كل ما كنا نفهمه فيه قد فعلوا وقاموا فقالوا لناخذ عنهم ما استجد كما كنا نأخذ عنهم القديم قبل أن يستجد سواه

ثم إليك أحد أولئك العلماء وهو يدخل في هذا الأمر لتعلم كيف هو يدخل فيه ظل (أديسون) المخترع الأمريكي الكبير شديد الشكسية نحو الظواهر الباطنية لا يفتتر عن الاستهزاء بها وبمن يصدقها وبالوسيط (برت ريز) الشهير الذي تجرى على يديه . ظل يفعل ذلك بدون أن يقول لماذا هو ينكرها بل وبدون أن يحضر مجلسها يوماً ما حتى طلب إليه الوسيط أن يجرى له تلك التجارب أمامه وبعد ذلك فله حكمه؛ إن لها أو عليها وقبل (أديسون) وعهد إلى مذكراته فأودعها ظرفاً محكمة وجعلها داخل خزانة حديدية مقفلة وطلب إلى الوسيط أن يقرأها له ففعل فصدق (أديسون) . أفأ تراه محقاً . إن المذكرات مذكراته الخاصة به التي لا يعلم ما فيها سواه وحاسة الابصار التي يقرأ الإنسان بها تعتمد على العدسة وما إليها والشبكية التي تنقل الصور ثم العصب الذي يوصل إلى المخ هذه كلها لم تستعمل فقد كانت المذكرات

بينها وبين العين حجب وأقفال فكيف قرأها الوسيط إلا أن تكون له روح
تستطيع إن تتجرد عن الجسم بعض الشيء أن تفعل ذلك لا تحجبها الموانع
والكشافات تلك التي تمنع العين وبها لا تستطيع عملاً .

نعم إن التلفاز تمكن الإنسان من الرؤية خلال الكشافات ولكن من
غيرها تظل العين مستحيلاً عليها أن ترى من خلال الكشافات فالراديو
وإن كنا به نسمع ما في إنجلترا ونحن في مصر يظل مستحيلاً علينا أن نسمع
ما في إنجلترا إن منعنا الراديو عن العمل ولو كان معنا حاضراً في المجلس
لا يزال؛ ولكنه لا يعمل . ويعمل بعضهم ذلك بقراءة الأفكار فالوسيط قرأ
ما في ذهن (أديسون) من مذكراته وذلك غير كاف لأن ذهنه لا يشمل عليها
حرفاً حرفاً؛ وحتى لو كان فالمعجزة قد بدت على كل حال وهي لا تستطيع
بالجوارح والحواس المادية بل بالروح التي فيها الكلام .

وسمع الدكتور (و . ه . طومسون) بأمر الوسيط (واديون) فعاينها
جميعاً فأرسل أديسون إليه الوسيط ليجره فأعد الدكتور للتجربة أوراقاً
كتبها باللغة اللاتينية والعربية والفرنسية والانجليزية ووضعها في ظروف
مقفلة وخبأها في أماكن مختلفة وكلف الوسيط أن يقرأها ففعل بالرغم من
جهله باللغات الأجنبية فأعلن (طومسون) إيمانه بالمذهب الروحي في جريدة
ساندى تيمس وظل موالياً للبحث في هذا الأمر الجديد حتى تجمعت لديه
مشاهدات عدة نشرها في كتاب له باسم (المنح والشخصية) . (١)

وتستطيع أن تتأكد أنت نفسك من وجود الأرواح بشيء بسيط
ميسور لنا جميعاً في كل مكان وشاهده العالم والجاهل والأثمي والصغير

(١) نقلاً عن كتاب (على أطلال المذهب المادي) للأستاذ العلامة محمد فريد بك وجهدى .

والكبير هذا الشيء هو التنويم المغناطيسى المشهور بشرط أن تتدبر في الأمر بعض الشيء . ألسنا نرى المنوم يأتينا حيث نحن ويترك النائم وراءه مغمضة عيناه وعليه ستار وبيننا وبينه جدار ثم نقدم للمنوم الذى معنا ما شئنا ؛ نحن غير مقيدين بشيء خاص نقدمه ؛ نقدم نقوداً أو قلماً أو مسبحة أو حجراً أو ورقة نكتب فيها أى شيء نشاء . ثم بعد أن يعلم المنوم بما قدّم له يطلب لصاحبه أن يقول ماذا معه الآن فيقول ويصفه وصفاً أكيداً يعينه . كيف وصفه ؟ تأمل ذلك ! إن المنوم معنا لا يزال وما كان يعلم ما سنقدمه له حتى يكون قد اتفق سلفاً مع صاحبه عليه . وصاحبه بعيد عنا كل البعد لا يعلم من أمرنا شيئاً وبيننا وبينه الحواجز والكثافات التى تعطل عينيه عن العمل ولو استعملهما فكيف إذا علم ؟ فسر الأمر بما شئت قراءة أفكار أو نحوها فما معنى قراءة الأفكار ؟ إن الأمر أظمّ وأصعب .

إن حواس الإنسان كلها مهمتها أن توصل الأثر الخارجى للعصب الداخلى فينقلها للمخ فيعرف حينذاك إن كان الشيء مطعوماً أو شاموماً أو مسموعاً أو مرئياً ؛ وشيئنا من ذلك لم يصل إلى الحواس حتى تنقله الأعصاب فكيف كان إذا ؟ أنا لا أقول إلا بالروح ولا أستطيع أن أفسر الأمر بغير ذلك . على أن الرؤية ليست كل ما هالك . فهناك فى جلسات التجربة يطلبون إلى روح الوسيط أن ترفع منضدة مثلاً وبين الوسيط وبينها مسافات فيفعل ذلك ويحتمون عليه ألا يحرك عضلة من عضلاته ويسلطون عليه الأجهزة العلمية لتسجيل كل حركة له . ولقد عمدوا إلى الوسيط فوزنوه قبل رفع المنضدة ووزنوه أثناءها فإذا بحجمه قد زاد وزنه بمقدار ثقل المنضدة مما يدل

على أن العامل في الرفع فيه هو بالذات ويطلبون إلى روحه أن تتسلط على
الأجسام الجامدة وتنطق فيها فيحصل ذلك مراقبين شفقي الوسيط أن تتحرك
ويفحصون الصوت المنبعث من الجسم الجامد فإذا به ذاذبذة مثل الأصوات
تماما . ويطلبون إلى الروح أن تنقل أشياء من أمكنة بعيدة فتفعل ذلك
ويظل الشيء حيث هو بعد انتهاء التجربة وطيلة ما شاموه أن يبقى ! والمكان
الأصلي للشيء ينمقد الشيء تماما ويطلبون إلى روح الوسيط أن تتصل بمكان ما
يعينوه لتخبرهم بما يجري فيه . ويتثبتوا بما قالت فإذا به قد حصل فعلا ،
أليس هذا يدل على أن شيئا فيه غير جرمه وهيكله وغير محه وأعصابه يستطيع
أن يدرك بدون استعمال أجهزة الجسم وأن يحس بدون استعمال حواسه
وأن يعرف ماذا هناك ما هو عنه بعيد وأن يتسلط على الأفعال فيرفعها من
غير استعمال العضل ومن غير مباشرة الجسم للثقل مطلقا . هذه هي الروح
التي زمتي وإلا فقل لي كيف ذلك يحصل . فإن كنت بعد ذلك تستنكر هذا
الامر لمجرد أنه مستغرب فاعلم أن الاستغراب ليس دليلا على البطلان ؛ بدأ
اطلما استغربنا الراديو والتلغراف حين التبشير بهما وعندنا أمرهما مستحيلا
ولا يمكن أن يكون حتى حصلا فعلا أمام أعيننا وصرنا نستعملهما فأكهين
وقد فعل ذلك بالتليفون والتلغراف من كانوا قبلنا ولم يغز الاستغراب شيئا
ولم يمنع حدوث التليفون والتلغراف بحال .

٣ — وروحه تبقى بعد فناءه ! حتى هذه أيضا أثبتوها ؟ إليك :

من ذلك أنهم في مباحث أطلقوا عليها اسم استحضار الأرواح - تحضر
روح الميت الذي قد مات ودفعناه بأيدينا وطويت صفحتنا من زمن بعيدا تأتي

روحه تمثل جسمه بكل خصائصه ويميزانه حتى لا يشك كل من يرى أنه هو وليس سواه ؛ ولا يكن من أين لنا ؟ ربما كانت أشباحا . يطلبون إلى الأرواح أن تكتب ؛ فإذا أُلِكَت كتابة بخط الميت قبل أن يموت ، وأنت توقع ، فإذا التوقيع توقيعه تماما بدون خلاف ، وقد حُكِمَ الخبيرون في ذلك فقالوا بذلك تماما .

وغير ذلك : تأتي الأرواح فتخاطب معارفها ، بما كان بينهم وبينها مما هو معلوم لهم ، بل وفي أمور خاصة ما كان يعلمها سواهم ، وأكثر من هذا : فكثيراً ما كان يموت الميت وتبقى في نفس الحي حاجة ، كان يريد أن يسأل عنها ، فيجد في هذه الحالة فرصة للسؤال فيجد الجواب هو ما كان ينبغي أن يكون ، وتعتمد الروح إلى أشياء كان الميت قد وضعها قبل أن يموت ، وضل عنها الأحياء فترشد إليها ، وكان الحاضرون يتهمون عيونهم ويقولون ربما كنا مخدوعين ، فيسلطون آلات التصوير على ما أمامهم فتسجل الصورة التي رأوها هي هي

العجب والاستغراب ليس حجة على ندم الوقوع كما قلنا ، ولكن لعلمك تسأل : إن الميت الذي حضرت روحه الآن . قد جاء بجسم مرئيا وجثة صاحبه قد تبددت كما نعلم واستحالت رماداً ، فمن أين لها الجرم المادى الذى تتشكل به ؟ هذا السؤال هو ما يبحثه العلماء ووجدوا الجواب عايه . طبيعى لا تحضر الروح إلا بوسيط يكون فى الجلسة ليس له غير الوساطة شيء . وهم حين تحضر الروح يجدون جسمه قد نقص وزنه . أثبت ذلك الميزان . وهم إذ يزنون الشبح الروحى يجدون ما فيه يكمل النقص فى الوسيط . (١)

(١) تأليف من كتاب على الملل المذهب المادى الأستاذ محمد فريد وجدي بك .

أخبرني : الإنسان يعرف صاحبه بصورته ، فإن ارتاب فيصوته ، فيخطئه
فبتوقيحه فيمحلوماته . فلماذا لا يكون كل ذلك كافيا .

ثم القائلون به ليسوا قسسا ورهبانا ، ورجال تصوف ذوي نوعة دينية
كلا بل هم السادة الماديون أنفسهم . هم رجال الطيعة والسكينة ، والتشريح
ووظائف الأعضاء والفلك والطب والنبات والحيوان والنشوء والارتقاء
وإشعاع المادة . فما بال الثقة بهم قد انهارت ولماذا ؛ وهذه البحار ما أضرت
بسواهم ؟ فقد هدمت مبادئهم التي شيروا وشابروا في تشييدها ثم أودروا في
سبيل إعلانها . وما من شيء يدعوهم إلى الكذب وأكثر من ذلك فهم
يقولون إننا لا نتكلم عن شيء معني أو عن قوم ماتوا وأسبل عليهم الستار
كلا إننا نتكلم عن شيء موجود ؛ ورجاله معاصرون لنا ؛ فمن ارتاب فليتحقق
فإن كانت الريبة لما في الأمر من عجب فتالله ما من شيء في الدنيا إلا وهو
عجب وأي عجب : اسمع الطبيعيين يقولون : ليس في المادة شيء ساكن ولا
شيء متماسك حتى الحائط والباب والأدوات والأواني ، كل ما تنقبض عليه
من المادة إنما أساس وجوده السرعة التي هي فيه فإن قلأت فقد زالت تلتفت
لاتراها إلا بالله فاقبض بيدك على رأسك ثم لا يبغى العمل الفرار . إذا تقرر
كل ذلك وثبتت خلافة الإنسان في الأرض وسيادته في الوجود وأن له
روحا يعني وتبقى بعده فأظن اللغز قد انحلت طلسمه والمسألة قد أسعفت
بالجواب .

كل ما في الأرض من أجل الإنسان : وجد من أجل خدمته ونفعه فإذا
نقضى فما عليه فقد أدى مهمته والإنسان يموت ويتبقي روحه من بعده ؛

كثيرة لوجوده ، وللغرض من وجوده ، والأديان تقول : إن وجود
الأرواح لتحاسب على ما عمل الإنسان في الدنيا وسيجزى وفاق ما فعل
وكلام الأديان في هذا السبيل جدير بالقبول والتقدير ، فنددُعم بالمعجزة .
قالت الأرواح فجاء العلم فوجد القول كما قالت نصاً وفصاً فأحنى رأسه
واعترف ولكن بعد ماذا . . بعد طول خصومة ولجاج - على ذلك فقيام
النظمات في بناء النباتات والحيوانات ثم العودة إلى هدمها لا عبث فيه
ولا لعب ، هو كما يعتمد المدرس إلى السبورة فيدج عليها درسه ويتقن رسمه
الشارح لما فيه ثم هو لا يكاد يفرغ من ذلك حتى يعتمد إلى السبورة فيمحو
ما عليها - وما عليه من ذلك فند أدى الغرض من فهم تلاميذه لما أراد ، ويكتب
غيره ويمحوه ، ويكتب غيره ويمحوه ، كل اليوم وفي كل الأيام ؛ والغرض
واضح والفائدة تتجدد . وتوالى المواليد الثلاثة دائرة في حلقتها لا تفرغ حتى
تبدأ ، ولا تنتهي حتى تعود ، هو كما يعدل السيخاؤون بالشريط ، يفرغ
فيعيدره ويفرغ فيعيدوه ولا يتوجه إليهم باللوم أحد ففي كل مرة كانت
تنساب المراجعة المشتمل عليها الشريط في الأذهان لجموع متتابعين كل منهم
يأخذ حظه .

وما أكدت أصل إلى هنا وأنا ألاحظ الرجل فأجد عينيه جاحظتين
متابعان ما أقول حتى لكد أنه يسمع به ما حتى رأيت قد تنامب استمداداً لهجمته
فحييته قبل أن يفعل ، ومضيت على أن أعود إليه في اليوم التالي .

شجرة الملاحمين في أمر النكبات والأرزاء

التي تشتمل عليها الحياة

يستطيع الإنسان أن يناعع الناس ، ويخالفهم . ويظهر لهم غير ما يضر ، ولكنه اطم نفسه . وفي اختيار عقائده ، التي هي محور وجوده . واساس حياته . لا يستطيع إلا ان يكون صريحاً ؟
(المؤلف)

قال الرجل في زيارتي الرابعة له : أطلت القول في أمر العناية ، والرحمة والانعام والتفضل ، واعتبرتها أعظم دليل على وجود الله ورحمته وتديره ؛ حيث علم ما تحتاجه ؛ فأمدك به في غير ما زيادة أو نقص . إن هذه الأشياء مع إدراكها ؛ واعترافي بوجودها ؛ يريني في أمرها ويحملني على حملها على غير ما تقصد — ما أراء بجانبها من الأرزاء والنكبات العظام . وإلا فاحب رجل لي قابلي بالتحية ثم تأخر فصغني . وما عنايته بي إن قدم لي الطعام والشراب وكل ما أطلب ، ثم انتظر حتى نمت فقام يقتلني .

في الواقع لو أنني نزلت دار رجل ما كاد يلتقاني حتى قابلي بالبشاشة والترحاب وأفسح لي في مجلسه ، وبالع في إكرامي والعناية بي ؛ ولم يترك شيئاً يحتاج إليه القادم الغريب ، من طعام أو شراب أو راحة إلا فعله ؛ حتى اطمأنت إلى كنفه وحمدت ظروفه أن حملتني إليه قدماي ، ولكن ما أنا إلا كذلك أتدبر ما اشتملت عليه نفسية الرجل من كرم ومعروف وبر حتى رأيت قد انحاز ليسر إلى جماعة الأمر بقتلي ؛ أفما تراني في الحال أقوم فزعا هلعاً أبغى الفرار ؛ أعتقد أن ما قدمه إلي بما قدم لم يكن للكرم أبداً

أمد الكائن البشرى بالسمع والبصر ليسمع ويبصر كما تقول ، وهياً له أسباب النطاق ليبر عن أغراضه ويستعين بسواه على تحقيقها ، وأعد له الأرجل التي تنقله ؛ والأيدى التي تحميه وتناول له ؛ وقوة الإدراك التي يميز بها النافع والضار ؛ والأعضاء الداخلة التي تعين على استمرار الحياة ، ثم لا يلبث هذا الإنسان المهيأ ؛ المكتملة وسائل حياته أن يرى الرباء قد طلع عليه ، فاجتاحه واجتاح معه من بنى جنسه الآلاف والملايين ؛ إن الحروب وهي لعنة البشرية وداؤها ؛ وسيئة شرورها لا تنال من جموع الأحياء مثل ماتتاله الأوبئة بحال ، فإذا كان قد بنى الدار لتسكن ؛ فلماذا هدمها من قبل أن تسكن . ولماذا إذا كان هياً الآلة لتعمل ، يحلّ أجزائها من قبل أن تعمل ؟ إن الحياة شقاء وبلاء — يعتمد الفلاح إلى الأرض لتلبث له فلا تفعل إلا بعد أن يكد ويكدح ويتعب وينصب حتى يتفصد منه الجبين عرقاً وتتصد منه الأنفاس زفرات — إذا كان هياً الرزق له أفما يعطيه إلا بالتعب — ولماذا ؟

ويعود الرجل إلى داره في ظلام الليل بعد أن يكون قد قضى اليوم بطوله في صراع وكفاح ؛ فما يخيفه — وهو يخترق الظلمات يصعد السلم إلا أن يبطاً قدمه من غير تصد منه جسم ثعبان يتجه إليه بدوره فيلدغه لدغة تقضى عليه ، غير باحث عن السهر والخطأ أو العمد وسبق الأصرار . ويأكل لقمة يشغله عن الهناء بها شقاء اليوم وهم الغد ، وما يكاد يفرغ حتى يرى النوم قد أحاط به فيأوى إلى فراشه فيلقاه هنالك البعوض من فوقه والبرغوث من تحته فيظلل يتقلب من جنب إلى جنب لا يستقر على حال من الألم ولولا

التعب وغلبة للنوم عليه لما غفا .

فيما صاحبي . إن الحياة شقاء ! إن الحياة شقاء ! ولا أزيد على ذلك حرفاً
قلت للرجل يدعوني الى العودة لتنبيهك إلى محور المناقشة ، ما أراك كثيرأ ما
تستطرد وتتخطى . إن ما نتعامل عنه هو هذا الشيء وليس سواه . هل
الوجود تحركه . الفوضى أم يحركه التدبير والحكمة والقصد والغاية ، وهذه
كلها أدركتها من تفصيل بناء النبات والحيوان والانسان ، وأدركت غايتها
القرينة التي تمسكن هذه الكائنات الحية من الحياة - وغاياتها البعيدة تلك
التي قلنا عنها في الفصل السابق عن مآل الانسان الاخير .

فالتدبير قوى والحكمة في الفعل ظاهرة ؛ قوامها التقدير والضبط وفق
ما تتطلب المصلحة ؛ لا تزيد على ذلك شيئاً ولا تنقص ، والفرض أكيد إذا
والقصد لا شك فيه ، وكل هذه تحتم الاعتراف بذات عليّة ذات قصد
وتدبير كما قلنا . وذلك ما أراك كذت تعترف به جميعه ولكنك تعود فتريد
أن تمحوه أو تحمله على غير محله كما هو تعبيرك ؛ لوجود هذه النكبات
والأرزاء ، ولا أدري على أى شيء تحمله إذا ! أتعود فتنسبه للمصادفة
والفوضى ؟ لا سبيل إلى ذلك فما تستطيع المصادفة أن تتركب عينا للانسان
لازمة مبصرة تضعها في موضعها اللائق ، وتجعل لها الأجفان لتحميها والتدود
لتغسل المقلّة باستمرار ؛ وتراعى في تهئته أجزائها ما تتطلبه قواعد الابصار
وحالات الضوء ؛ من شفافية تمكن الضوء من النغوذ وعدسة محدبة تسكّنه
حسب المصلحة بعد أن يدخل وشبكية ترسم عليها الصور وعصب ينقل
لمخ يدرك . لا سبيل إلى أن ننسب هذا التدبير والإحكام والعلم بالاحوال

المحيطة والسير بالغاية مع مقتضياتها لمصادقة عياء لا تبصر وفوضى هائمة لا وجهة لها . وما ذكر إن هو إلا إيجاز ، لمضو غيرُه أعضاء ، كل يؤدي غاية للانسان يصير بعدها قد كملت حاجاته واستوفيت كل لوازمه التي بها يصير مخلوقا يروح ويغدو ويؤدي شأنه وينهض بتكاليفه .

إنما السؤال كما ينبغي أن يكون عن الحكمة في وجود هذه النكبات والأرزام وهل هي لتعذيب الأحياء والفتك بهم ؟ ولماذا والمدير رحيم ! ولماذا وهو يريد لهم الحياة ، ذلك هو النهج الذي كان ينبغي وضع السؤال عليه . قد هيأته لك كما كان يلزم لأرد عليه : إن العلم يأسىدى وهو المكتننه لأعماق الأمور ، والسائر مع الأحداث إلى نهاية دورها ، ليعرف ماتسفر عنه وتنتهى إليه ، قد أفاد أن هذه الأشياء التي أنعجتك وأكرمتك وجعلتك تنقم على الحياة ، وتلبس لها المنظار الأسود ، لم تكن للتعذيب والإشقاء بل للخير والمصلحة ، وعلى ذلك فهي نعمة ضمن النعم وفضل كبير — هذه الأمراض والأوبئة سببها الميكروبات كما تعلم ، فهل عساك كنت تفضل ألا يكون لها وجود في الكون ؟ يا شقاء المخلوقات لو اخترت لهم ! انك كنت تقضى عليهم قضاء مبرما بلفظة الاختيار التي تلفظها ، لأن هذه الميكروبات أو البيكتريا بتعبير آخر هي حلقة من حلقات المواليد الثلاثة يترتب على وجودها وعملها تهيئة الغذاء للنبت الجديد ليقوم بتغذية الجيل الجديد من الأحياء . ويترتب على فقدانها وتوقف أعمال الحياة تماما وهلاك من وما في الارض جميعا ؛ وما ذكر هو نوع مما تعمل ، وبجسبك هو ! رهي فوقه ضرورة لهندسة الألبان ، ودبغ الجلود ؛ وصنع المواد السكوية وغير

ذلك ، فانظر إلى أضرارها إذا ، إنها لا تقاس بنفعها بحال . لتشتد الأوبئة ما تشتد فلن تحتاج من النوع البشرى ١ . يزول كنهها إن انعدمت فالتقصاء على الجميع محقق . ثم إنك لتجد الخالق قد أعدّ العدة لوقاية الانسان منها حيث هي لازمة ولا غناء عنها أبداً ، أمده بالكريات البيضاء وهي جيش لجب مدرب صالح لمكناحها تناساً ، وعددها في المخلوق البشرى الواحد يقدر عدد أفراد الجنس للبشرى في عموم الارض ٢٥ مرة (١) ، فهل عرفت الاحتياط ، ثم ما أمكن الله الانسان منه من وسائل المعرفة والفن واستخدامه لكل ذلك في كفاح هذه الميكروبات صيانة لنفسه قد جعل خطرها يكاد لا يكون .

إن مع كل نفع ضراً ومع كل خير شراً يلزمه . . هذا المال وهو النعمة التي يريدها الانسان إلى غير حد ، أفتراه خالصاً للخير كلاً ! كم أغرى اللصوص بصاحب المال فهددوا حياته وأثمنوا مضجعه ، هذا الماء وهو سلسبيل الحياة كم أهلك من غريق . هذه النار وهي عصب الحضارة كم أهلكت من أنفاس وأبادت من متاع ، حتى فيما يعمل له الانسان لنفسه من الخير لا يكون خالصاً للخير أبداً . هذه القمارات والسيارات وهي مانع خيراً ونفعاً أقترأها خلاصت من شر فلاكم جنت على أحياء ، وأزهقت أبرياء . ولكن مع ذلك هل ترى الناس لوجود هذا الشر الذي هو ملازم للخير ، قد زهدوا في هذه الاشياء ؟ كلا ، لأنهم يجدون شرها بجانب خيرها لا يكاد يذكر ويعتبرونها مع وجود الشر فيها وبالرغم من وجوده نعمة يلتمسون منها المزيد .

على أن العلم يطلع على الانسان كل يوم يجدد يؤمنه على حياته أكثر

(١) عدد الكريات البيضاء في الفرد ٥٠ ألف بليون (من كتاب الانسان ذلك المجهول عن مجلة المختار عدد فبراير سنة ١٩٤٥)

ويقيه شرور الحياة شيئاً فشيئاً ؛ حتى تكون هنيئة ميسورة بقدر المستطاع
كل يوم يطلع العلم علينا بعلاج لمرض فانتك ما كانوا يعرفون الحياة لأنفسهم
في أمره ؛ وبنظام بديع يجعل أخطار المخترعات النافعة لا تكون ؛ أو تقل
إلى حد لا يذكر ؛ حتى النار عرفوا الوسيلة لوقاية أنفسهم ومتاعهم من
شرورها . وكل علم وفن الإنسان هو هبة من الله إليه قد أعطاه وسيلة
وهياً له السبيل إليه . ولكن من يعتبر ؛ وإنك لتجد العناية الإلهية الرحيمة
تجعل في بيئة الأخطار تزيادها يتعثر الإنسان به علمه يذنبه إليه فيقاوم
الأخطار به . في مزارع الارز حيث يكثر الماء فيفقس البعوض ويتكاثر
ويهدد الناس بالمalaria تجد سمكا خاصاً من دأبه وشأنه التغذى بيرقات
البعوض . تنبه الناس إليه وعرفوا أمره ووجدوه وسيلة صالحة للقضاء
على هذا الشر الملازم للمنفعة أو التقليل من خطره — أفما ترى وجود
هذا السمك وشأنه هذا الشأن بالذات في هذه البيئة بالذات هو عجب
ويستدعي الاعتبار ؟

وبمناسبة المرض والأمراض أحب أن أشير إلى نقطة سمعتها من زملائك
— تركتها أنت ولم تذكرها — فقد قال ؛ ما بال هذه الأمراض التي تنزل
بالناس فيها من الآلام ما يذيب القلوب ويفتت الكباد ؛ أروني أين الرحمة ؟
أروني ذنب المريض ؟ وأسفاه عليه ؛ في الجسم الإنساني شعور عام هو
سياج الصحة وديد بان الحياة فإذا ماتت وظيفة عضو بعض الشيء فسرعان
ما يصل خبر ذلك إلى المخ فيحصل الاحساس به على هيئة الألم لا لغرض
الإيلام والتعذيب بل ليكون ذلك دافعاً للإنسان ولين حوله لا لتأني

العلاج وإسعاف الخطر، وإذا ما جرح عضو أو دخل في الجسم دخيل آذى الجسم وعاث فيه فإن انشعور له بالمرصاد يعرف ذلك ويبلغه ويحمل على البت في أمره والتماس العلاج لعلاجه.

وبهذا الاحساس يعرف الجوع والعطش وهو مقياس الحرارة والدفع تلك هي وظيفته وهذه هي غايته ولولاه لتمزّع الجسم ولا يشعر الانسان ولتخليل من الجوع وهو لا يدري . فإذا جاء مرض يتألم له الانسان بسبب شعوره فما أريد بذلك إيذاؤه بل خيره ثم الاحساس نفسه كهاد يديه سواء السبيل في أمور يضر فيها الخطأ إن أخطأ . هب شخصاً أصيبت ساقه مثلاً باصابة أفما تراه إذ يتحرك يتحاشى ناحية لا يقربها ويعتمد على أخرى ويمشي يقل في مشيته . لماذا ؟ لانه يجد ألماً في تلك الناحية إن يقربها ولا يجده في هذه ، فهو يسير على هدى إحساسه وشعوره ولو كشف الطبيب على الشخص لو جد أنه قد أصاب في حركته أى أن حركته توافقت مع مصلحة العلة بحيث لو أنه كان يتحرك في الناحية الأخرى التي منعه الاحساس منها لكان في ذلك البلاء على العلة كان الساق يتهشم مثلاً ولا يدري . إذاً فالاحساس يعرف ما يلزم أو بعبارة أخرى يحتم الانسان أن يتحرك حسب ما يلزم فهو خير مرشد ، وهو أعظم هاد ، وهو أوفى أمين .

هذا . . . وأراك ضجراً بما تشتمل عليه الحياة من تعب ونصب في تحصيل الرزق وتوفير القوت تؤثر على ذلك أن لو قدم الغذاء للأحياء من غير ذلك حيث هو لهم وجعله الله لهم فكانوا يأكلون منه وهم ناعمون وحتى في هذه أقول لك : إنك قد عدوت المصلحة وأخطأك التوفيق في الاختيار .

إنك على هذا تنظر إلى العمل نظرة الأقدمين إليه . حيث كان الأثرياء يخلونهم للعبيد والأجراء ليس إلا ، أما هم فيظلون على الأرائك ناعمين . ومضرا على هذه الوتيرة حتى ترهلت منهم الأجسام وركبتهم الأمراض وركد فيهم روح الحياة ففرعوا إلى الطب فقال : داؤكم الراحة ! داؤكم السكون ! داؤكم النرف ! — ماذا يعملون إذا ؟ أيلجأون إلى العمل وهو ممقوت في نظرهم ؟ كلا . لجأوا إلى حيلة تؤتي ثمرات العمل ولا تعرضهم لامتئانه الموهوم ، لجأوا إلى الرياضة العنيفة والحركة المطلقة التي لا غرض لها كما يعتمد الأطفال إلى آلة معطلة يحركون عجالاتها ولا من غاية . واليوم جاء العلم يقول : (الألعاب الرياضية لا تصلح أن تكون عوضاً عن العمل الحكيم ^(١)) أتدرى لماذا ؟ . لأن للعمل نتيجة يهبج النفس وجودها وتسوق الضرورة والمصلحة إلى التدبير لها والذاتى ، حتى تكون على أحسن وجه وتعود بشمرة أوفر قسط ، فيستعمل مع أعضائه قوى عقله ويبدل حيلته ، وفي ذلك مران أى مران وخير كثير أما الألعاب فلا شئ . من ذلك فيها وما كان اللهو كالدأب وما كان العبث كالتيدير .

إنك الآن بإيثارك الراحة على العمل لا تتكلم بلسان القرن العشرين الذى يقول : إن العضو الذى يعمل ينشط ويقوى والذى تقف حركته العمل فيه يضعف ويتلاشى ويكون أمره دائراً بين الحدين قوة وضعفا بحالة العمل كثرة وقلة . إذا الرزق وقد هي ليسكون بهذه الوسيلة العملية ولا يكون بسواها قد زاد خيره وتضاعفت نعمته . فان كان ماتعنى أن عمل العامل

(١) كتاب (الانسان ذلك المجهول) عن مجلة المختار عدد فبراير سنة ١٩٤٥

مرهق وأكثر مما ينبغي وأنه لو كان الأمر وسطاً فلا يكون في الناس الغنى حتى ما يعمل صاحبه فيلمه بالترحلق والتجديف والفقر حتى يبذل الفقير كل جهده ثم لا يكفيه إن كان ذلك مآل ما تعنيه فما الحيلة . وفلسفة الاقتصاد تقول : (التفاوت ضروري للعمران) فلا مندوحة مما ترى . وكما عمل الخالق الحكيم لما يدرأ أخطار الميكروبات التي لابد من وجودها في الكون كذلك هو احتاط في تشريعه الديني لهذا التفاوت المصلحي لكيلا يتفاقم وينقلب شراً على الناس أجمعين . جعل في مال الغني حقاً مقررأ مفروضاً يأخذه الفقير وينتفع به فلا يتختم غني ولا يجوع فقير ولا يشقى .

ولقد أفاض الغربيون في شأن هذا التشريع الاقتصادي النافع حتى قالوا إنه لا علاج لما تنطاحن عليه الأمم من الرأسمالية والاشتراكية وغيرهما سواء . وإليك ما قاله في هذا الشأن كتاب (وجهة الاسلام) تأليف خمسة أعضاء من علماء الغرب ونقله إلى العربية الاستاذ محمد أبو ريده .

جاء في ص ٢٤٧ من الكتاب المذكور ما يلي : « لا يزال الاسلام في داخل العالم الغربي يسلك سبيلاً وسطاً بين المتناقضات الشديدة وهو على معارضته لغوضي القومية الأوروبية والنظام العسكري لروسيا الشيوعية لم يقع بعد فريسة لهجمات الحياة الاقتصادية الملحة التي تمتاز بها أوروبا الحاضرة وروسيا الحاضرة أيضاً »

وقد لخص الاستاذ (ماسينيون) الأخلاق الاجتماعية في الاسلام تلخيصاً يدعو إلى الإعجاب حيث قال : للاسلام الفضل في أنه يمثل لنا فكرة عادلة عما يقوم به كل فرد من أبناء الوطن بدفع عشر ريع الأرض

للخزانة العامة . إنه يشن الغارة على المبادلة المطلقة ورأسمالية البنوك وقروض الدولة والضرائب غير المباشرة على الأشياء التي لها أهمية جوهريّة ثم هو يؤكد حقوق الأب والزوج والمملوكة الفردية ورأس المال التجاري ونراه هنا يتقف مرة أخرى في مكان وسط بين الرأسمالية البورجوازية وبين الشيوعية البولشفية ،

وطبقة البورجوازية هي طبقة أصحاب المصانع ويستبدون بالعمال استبداداً قاتلاً — هكذا يفسرها المترجم — أفما ترى الاسلام قد راقق الفسق ولام الجرح وسوّى المسألة . ولا يزال على الغربيين أن ينجحوا في ذلك بل لقد حاولوا محاولات أولية في هذا السبيل باسم التأمين الاجتماعي وسواه فإذا تم لهم ذلك — وسيتم حتماً بسائق من الضرورات الملحة — تنظر إلى هذه الحالة التي أزعجتك لا تراها .

على أن هذا العامل الكادح ليس شقياً إلى هذا الحد الذي تتوهمه ، فقد أبان العلم عن مزايا أكسبه إياها الكفاف والدأب ، بحيث الأطباء يحسدونه عليها ، والمترفون يتمنونها ، والناعمون يحنون إليها ؛ ولا أقول أنهم يودون لو لبسوا حالته ليدركوها . . . كلا . . . إنما أعنى أنهم كانوا يودون أن لو كانت لهم وهم حيث هم . وذلك لا يكون . فتلك ثمرات الشقاء جعله الله بحيث يلتجئها حتى لا يكون كله علقماً .

جاء في كتاب (١) (الانسان ذلك المجهول) الدكتور ألكسيس كاريل الجراح العالم حائز جائزة نوبل الطبية سنة ١٩١٢ لنجاحه في وصل أوعية

(١) عن مجلة المختار عدد فبراير سنة ١٩٤٥

الدم بعضها ببعض قال : « الرعاة يكتسبون قوة ومنعة ومرونة لا يمكن أن يظهر بمثلها أى رياضى مخفوف بالترف الذى تهينه له الجامعات الحديثة ، وقال : « الانسان لا يغفل إلى أقصى نموه حتى يكون عرضة لعوادي الحر والبرد ، وحين تكون وجبات طعامه وافرة حيناً ، وزهيدة حيناً آخر ؛ وحين يبذل جهداً جهيداً لكي يظهر بطعامه ومأواه ، فقد كتب عليه أن يروض عضلاته وأن يتعب نفسه ويريحها . وأن يناضل وأن يتألم وأن يسعد وأن يحب وأن يبغض . وإن إرادته لتتطلب أن يتعاقب الجهد عليها والراحة وينبغي له أيضاً أن يكافح أخطائه أو يناضل نفسه ، لقد خلق لمثل هذه الحياة كما خلقت المعدة لمضم الطعام) وقال . (نحن نعلم أى قوة فى البدن والخلق انفرد بها أولئك الذين خضعوا منذ طفولتهم لنظام حكيم ؛ والذين عانوا بعض الحرمان وراضوا أنفسهم على ما حاق بهم من الشدائد) وكثيراً ما كان نابليون يقول مامعناه . إن الفقير أسعد منى حالاً إلى آكل كل يوم فاخراً فأصبحت لا أحس بطعمه . أما الفقير فيأكل كل يوم خشناً فاذا ظفر بلقمة طيبة فى يومٍ ما شعر بالذة لا أجدها أبداً .

إن أحدث الآراء فى التربية العصرية أنه لا شئ أضرّ على الطفل من حياة التدليل ولا شئ أضيع للحياة من الدعة والفراغ ، وأن التعرض لمشاكل الحياة ومواجهة صعابها أمر لازم لكل فرد . عليه أن يروض نفسه على احتمالها والتعبير عليه ؛ إن كان يريد أن يحيا حياة صحيحة كاملة وما زال مثلاً مضروباً وعظة بالغة حادث الطفل وفراشة دود الحرير . فقد رآها صبيّ وهو تعالج الخروج من ثنايا الخيوط الحريرية وتعانى فى ذلك عناء كبيراً

رحمها منه وأخلى لها السبيل لتخرج بسهولة فلما تم لها الخروج أدهشه أنها لا تقدر أن تطير كما تفعل أخواتها اللاتي لم ينلن معونته أولم يبتلوا بها؛ فأدركته أمه تقول : إن عجزها سببه تلك المعونة التي حبوتها بها . فقد كان لها في هذا الجهاد الذي تعانیه أثناء الخروج من تدريب المضلات ما يعينها على أمرها بعد ذلك فتنهض وتطير

فيا صاحبي ما أرى المقام يحتمل مزيداً وما أرى رأيك في صاحبك إلا قد اختلف . هذا — وأظنك ما بنيت حبورك لنعمة الوجود وحكمة الوجود إلا لترهّمك أن البعوض والبرغوث بل والشعبان والحيات والنمل والصراصير وغير ذلك قد وجدت لغواً أو وجدت للضر والأذى . وإني أعجب كيف حكمة الوجود ونعمة الوجود يستطيع حبودهما ولو كان الأمر كما توهمت .

كيف تستطيع لمجرد وجود هذه الأشياء أن تنسك نعمة الماء والحكمة في تركيبه ؛ وفنل الهواء والضبط في امتداده . والحواس ووجودها معونة ؛ ووضعها في مواضعها حكمه ؛ واستكمال أدوات كل منها علم ؛ وترتيب تلك الأدوات بعضها مع بعض تدبير .

كيف تنسك الاحتياط في وجود السكريات البيضاء لتلايهلك الميكروب البشر . والأعداد بتهيئة العصارات المعوية لهضم الطعام ؛ والتدبير العلى الذى هيا تلك العصارات لتؤدى الغرض حقاً . وتكون متنوعة بحسب الحاجة . ومقدرة مضبوطة لا تزيد كميتها عن اللازم ولا تنقص . ولا يغيب نوع كان لازماً ولا يأتى نوع لا عمل له . ولو أردت أن أسير بهذا

المسار لا أفرغ؛ ولو جلست اليوم بطوله — فما بال كل ذلك قد غطاه الوهم عن عينيك . وإنك لتجد الحكمة الالهية العليا تطفو أمام عينيك ؛ من ثنايا الأسباب الظاهرة متغلّبة على الطوارئ والظروف التي تريد أن تمنعها . إليك : في الجسم عدد تفرز دائمة إفرازات كيمياوية يحتاج الجسم اليها ذات قدر محدود ؛ فان تعطلت إحدى الغدد من العمل وجدت الغدد الأخرى قد زاد نشاطها عن المعتاد لتسدّ النقص الذي ترتب على عطل الغدة المعطلة . وإن اقتضى الأمر استئصال بعض الغدد بعملية جراحية كالغدة الدرقية مثلاً وجدت الجزء الباقي ينمو ليعوض الجزء الذي زال . وإن استصلت إحدى الكليتين نمت الكليّة الأخرى عن المعتاد الذي ما كانت تزيد عليه لولا هذا الحادث .

وتجد التدبير غير مقيّد بوضع خاص للحواس ولا بموضع مألوف سارت الأمور عليه ؛ كلا — فهو يسير مع مصلحة الحيوان الذي ستركب فيه الحواس غير ناظر لشيء بعد ذلك .

فلئن ألقنا ألا نجد حاسة العين والسمع إلا في رأس كل حيوان رأينا . فان حيوانات أخرى أمرها عجيب تجد حيوانا أذنه في رجله وآخر عينه في ظهره ^(١) ونهاياً مراکز الحس في الحيوان حسب هذا الوضع الغريب على مألوفنا . لأن حياة الحيوان تقتضيه ولا يناسبها سواه .

عهدي بمن وجد نفعاً وضراً ، ووقع على حسنات بجبانها سيئات ، بل ووجد الصواب بجوانبه الخطأ ؛ أن يحفظ كلا على حدة ؛ ولا يتجاهل نوعاً

(١) نقلاً عن كتاب محامد الطبيعة للعلامة اللورد أفندي ص ٥٢ .

لوجود ما يقابله ، بل عليه إذا أراد أن يحكم على الفاعل أن يقارن بين النوعين المتقابلين ليرى الفاعل إلى أيهما أكثر وبعد ذلك يحكم عليه بالنوع الغالب ضارباً صفحاً عما يقابله ، لا يذهب كما تريد أن تفعل ، فية جاهل صوابه إلا أكثر لوجود خطئه الأقل . وبعد ذلك يحكم عليه بالجنون ويريد أن يرمى به في المارستان ؟ وإلا لو كان الأمر كذلك لرميت بكل عقلاء الدنيا إلى هذا الحضيض لأنه ليس في الدنيا عاقل لا يخطئ ، وكنت أنت أحدهم بل كنت أنت أولهم لأنك القاضي . أخاف لو أن الله استجاب لك فمحا من الأرض هذه الأشياء التي تشكو منها أن تعود وأنت أكثر لطفة وأشد ضراعة تطلب إليه أن يعيدها كما كانت ، ولذلك سابقة :

فقد بعل أحد ملوك الانجائز السابقين بطائر من الطيور ، وأراد أن يقطع دابره من رقعة بلاده وهو على ما يشاء قدير ، فما عليه إلا أن يأمر فتطيع الدولة أمره ؛ وتبتكر الحيلة لامضاء هذا الأمر ، وفعلاً تم للملك ما أراد ؛ ولكن أتدرى كيف كانت النتيجة ؟ كان أن أسفر الصبح لذي عينين فاذا بهذا الطائر الذي كان داء عيائه للملك ورعية الملك هو خير ونعمة لهم ، ووقاية لهم من شر آخر أظلم وأطم لا يقاس به الشر الذي كرهه الملك من أجله ، فاضطر الملك إلى البحث عن الطائر في أي جهات الدنيا هو ، وشرأوه بالمال بعد ذلك ، والعناية بتربيته من جديد .

فالإنسان لنقص معلوماته قد يظن الشيء لغواً أو يظنه خالصاً للضرر — والواقع يكون غير ذلك ، والطيور صديقة الفلاح هذه التي تكفلت الحكومة الآن بحمايتها من يؤذيها بسلطة القانون ، هذه إلى عهد قريب كنا

لأنعلم عن نفعها شيئا . وطبيعى هى لا تخلو من أذى ، ومن رزق بجوار بيته
بشجرة (جيز) أراد الله أن تألفها أسراب أبى قردان فتأوى إليها ليلا لوجد
من لغطها وتلاحيمها طول الليل ما يجعل النوم لايهوى عينيه ، أفما تراه فى عهد
الجمال بنفعها يقوم ضجراً متأقفاً يقول : اعجبوا لوجود هذه المخلوقات فى
الأرض : ما عسى أن يكون الغرض منه .

وهذه الديدان الغليظة القذرة التى تحتوى عليها الأسمدة (البلدية) دائماً
والتي يشتمز الانسان من النظر إليها . هذه الديدان كم أفاض (دارون)
فى خيرها ونفعها للتربة الزراعية . هذا النمل وهو يكلفنا الحرب بطعامنا فى
كل مكان لإبعاد شره عنه على غير طائل ؛ له فائدة للنبات غير مباشرة فهو
يغزو كثيراً من الحشرات الضارة به . وقد قال عنه العلامة المورد أفرى
صاحب كتاب (محاسن الطبيعة) فى ص ٨٦ : النمل يفيد النبات من أوجه
شتى كقتل الديدان والهُوام والحشرات والدويبات الصغيرة ، وقد ذكر
(فورل) : أنه كان يرى نحواً من ٢٨ حشرة فى الدقيقة آتياً بها النمل إلى
قرية قوتا ليومه ومؤونة لغده »

وإذا أضفت إلى كل ذلك أن الأذى الذى ينجم من هذه الأشياء يمكن
إبعاده نهائياً عن الانسان - يكون الكلام فيها بعد ذلك ضرباً من ضروب
السخف البارد الذى لا داعى إليه . إن الشعابين والحيات وسواهما من
الحيوانات السامة قد وُجد الترياق الناجع لاسعاف من تؤذيه والحشرات
توصل العلم إلى ما يقضى عليها نهائياً فى البيئة التى يعيش فيها الانسان - فماذا
بعد ذلك تبغى ؟

ولقد تفضل الخالق فأوجد للناس الوسيلة العملية لإبعاد من طغت عليه هذه الأشياء بحالة ميسرة يطيعها العالم والجاهل ومن لم يكن يعرف بعد ما الكيمياء .

نشرت مجلة سكة حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية العدد ١ و ٢ و ٣ يناير — مارس سنة ١٩٤٤ السنة الثالثة عشرة مايلي :

(أهم النباتات التي تزرع الآن للتخلص من الحشرات نبات (الجردوزا أوكيم ميلادو) ويزرع هذا النبات في فنزويلا التي تعد من أغنى ممالك العالم الزراعية .

ولقد تبين في العشر سنوات الأخيرة أن مراعى الماشية التي يزرع بها الكلال المعروف بالجردوزا تصبح خالية من البعوض والأفاعى عند اخضرار هذا النبات . كما أن الماشية المغطاة بالقراد تتخلص من تلك الطفيليات في بضعة أسابيع بعد دخولها تلك المناطق .

ويرجع الفضل الأول في زراعة الجردوزا في القطر المصرى الى حضرة الدكتور محمود رشدى الأستاذ بكلية البوليس الذى اقترح ادخال زراعته إلى مصر عام ١٩٤١ وتجربى وزارة الزراعة الآن للتجارب حيث ثبت أنه يزرع في بلادنا في شهر مارس وإبريل . (الخ المقال .

أما تراك أخطأت في توهم عبث الحياة وخطأ الوجود؟ والتفت إلى الرجل أنتظر إجابته فإذا به قد بدأ كعادته فتركته وانصرفت على أن أوافيه في اليوم التالى .

استدراك

فاتنى أن أستشهد بأقوال العلماء فى نفع الميكروبات وضرورتها ضرورة مطلقة - فأستدرك هنا ما فاتنى فأقول : جاء فى خطبة للسير جوزف لستر رئيس مجمع ترقية العلوم البريطانى لسنة ١٨٩٦ بعنوان - فائدة الميكروبات - ما يلى :

« فهى - يقصد الميكروبات - التى تحلّ أجسام الحيوانات والنباتات الميتة إلى مركبات بسيطة تستطيع الأحياء الأخرى أن تغذى بها ولولاها لامتلات الأرض بالجيف وهذه الميكروبات لازمة لمنفعتنا بل هى لازمة لوجودنا ، نقلا عن كتاب - العلم والعمران - الاستاذ فؤاد صروف

تجربة الملمحين فى مدى اتساع الكون

قابلنى الرجل فى المرة الخامسة متجهما على غير عادته ؛ وانتظر حتى جلست فقال : ما أشد اعتدادك بنفسك أيها الانسان ؛ وما أكثر ما تدرف فيه من ذكر العناية بك ؛ والرعاية لحاضرك ومستقبلك ، كأنك شغل ربك الشاغل وليس سواه . ولا عجب فقد أوقع دينك فى روعك أنك خليفة فى الأرض ؛ وسيد فى الوجود ؛ وقد فضّلت على العالمين ، ولكن أما سمعت إلى ما يقوله العلماء عن مدى اتساع الكون ؟ قلت قرأت الكثير وأريد أن أسمع منك لأعرف وجهتك فى تكييف المسألة .

قال : إن أرضك أقل من الشمس بمليون وربع مرة وبينها وبين الشمس ٩٣ مليون ميل ثم هى سيار تابع للشمس ضمن السيارات التى هى عطار

والزهرة والمريخ والمشتري . . الخ وباليهتها كانت أكبر زميلاتها كلا فان المشتري يفوقها إلى ٣٠٠ (١) ضعف ثم الشمس وتوابعها إن هي إلا واحدة من شمس أخرى غيرها يبلغ عددها مائة ألف مليون (٢) شمس يتكون من مجموعها ما يسمى بالمجرة ، ثم المجرة على ضخامة أمرها إن هي إلا واحدة من مجرات أخرى غيرها يبلغ عددها مائة ألف مليون (٣) مجرة فهل رأيت كيف أن أرضك قد تلاشت في غمار الوجود فلم تعد شيئاً — وكيف تلاشى ما عليها حتى لكأنه العدم ؟ ؟

وأستطيع أن أصور لك المسألة من وجه آخر فأقول : إن أرضك لتفاهتها تقطعها سرعة النور في سبع ثانية وتقطع المسافة من الأرض إلى شمسنا في ٨ دقائق ولكي تصل من شمسنا إلى الشمس التي تليها ثم إلى التي تليها تحتاج بضع سنين ضوئية في كل مرة مع أنها في كل ثانية تقطع ١٨٦ ألف ميل ؛ فانظر ما يحتاجه الأمر من الزمن لكي تقطع شمس المجرة الواحدة ؛ وهي مائة ألف مليون كما علمت ؛ ثم ما يلزم لتنتقل من مجرة إلى أخرى ثم ما يلزم لكي تقطع المجرات جميعاً بعد ذلك وتصور ذلك الاتساع جميعه — إن كنت تطيق — والى نظرة على فضاء أرضك بعد ذلك إنك لاتراها ولا كسم الخياط — فياصحبي دعوا الصلief جانباً فما له من داع واتركوا السببح الذي لا ينتهى في بيداء الخيال

قلت : إنك في تصورك للمسألة تشبه ذلك الموظف الساذج الذي خرج من مدرسته إلى مقر عمله لا يعلم غير ذلك . وظل ذهنه محدود بحدود الغرفة

التي يعمل فيها يظن أن رجال الحكومة ليسوا إلا هو وزملاؤه والمشفرون عليهم وأن عمل الحكومة ليس غير القلم الذي يعمل فيه .

ولأمر مما شئت إرادة الملك أن يجتمع رجال الدولة أجمعون في ساحته في وقت واحد ؛ لينشرفوا بطلعته ؛ ثم ليعلموا الغرض الذي من أجله اجتمعوا . فقصدهم حيناً إلى الساحة مع القاصدين ، فلما وصل أدهشه الحال وجد جموعاً زاهرة وخلائق محتشدة لا يعرف لها أولاً من آخر وإذا بزملائه الذين يعرفهم قد تفرقوا في هذه الجموع بدءاً ، إن يلقى النظر باحثاً دائماً لا يقع لهم على أثر كائنهم قد زالوا ، فأيقن أن حاله كحالهم وأنه قد صار في هذه الجموع وكأن لا وجود له فصار يشك في أهميته وفي لزومه للحضور بل وفي شعور الدولة به مادام قد رأى الدنيا قد اجتمعت في صعيد ، وليس فيهم من يعرفه ، وليس هو بمنقدهم إن غاب ولا بمزيدهم إن حضر ، ذلك ما تصوره في نفسه إزاء هذه الكثرة الكثيرة ، والجحيم الغفير ، وذلك هو الدرك الأسفل الذي ظن منزلته قد هوت إليه — ولا أقول إلا أنه مخطئ في تصوره ، مخطئ في تقدير منزلته ، وأنه واهم لا أكثر ولا أقل . إنه يتهم شعور الدولة به مادام قد رأى نفسه إزاء هذه الكثرة وكأنه لم يكن — كيف ذلك ؟ إنه كان في الوظيفة وتلك الجموع معه طيلة ما عمل

فهل رآها أغفلته شهراً لم ترسل له مرتبه أو وقع في إهمال فلم تحاسبه عليه أو جاء أو ان علاوة فلم تعرف ذلك وتقرر لها من وقت استحقاقها أو أخذ إجازة إلا وهي مرصودة له ومحسوبة عليه إن حاول أن يتجاوزها تنبيهه . إذا ما يعنيه من الكثرة شيء مادامت لا تشوش النظام حتى يغفل من

مقوبة ؛ ولا تتركه حتى يحرم من عظامه . حتماً إن وجودها وعدمها سواء بالنسبة له والامر هو هو سواء أكانت أم لم تكن ؛ يراه مراقباً بجزئنا معلوم عنده كل ما يعمل ، فهو محوط برقابة الدولة حتى لا يكتأفها ما تعرف سواء . ثم عمله الذي يعمل فيه فهل يقوم مقامه فيه أحد من هذه الجوع ؟ كلا لعمر الله ! فلو أنه تكاسل عن واجبه اليومي لتكدست الواجبات عليه لا تجد من ينجزها إلا هو . وهو لكي يسير في عمله على هدى لا بد له من الارشاد المتجدد وعلى ذلك فما أحوج وجه للحضور ثم ما أحوج وجه إليه . وما عاين به الامر من أنه لا أحد من هؤلاء يعرفه ؛ وأنه بالنسبة لكثيرتهم قد صار عدما ؛ هو خطأ ولا معنى له . لأن وجوده لا تحس به الدولة من جرمه بل من عمله الذي ينجزه فتراها تشعر بحضوره ما ظلت المصاحبة التي يؤديها متصلة ، فإذا انقطع فقد انقطعت واعتبر غائبا ولو كان حاضراً ؛ وعلى هذا الأساس يبرهن على وجوده ، وعلى مقتضاه يأخذ أجره ، وعلى مقدار الاهتمام به يكافأ ؛ وعلى مقدار النقص فيه يعاقب ويعذر . أما الهيأة كل المحسوسة فلا دخل لها في المسألة ؛ ولو أنه قابل وزير المالية الذي يرسل إليه راتبه الشهري ما عرفه ، ولسأله من يكون ؟ حتى يخبره بعمله الذي هو موضوع الصلة بينهما فيعرفه . هذه الجوع كثيرة ولا شك ويخيل إليه أنه إن غاب منهم واحد أو أكثر فلن يضير الكثرة ذلك . هذا لأنه ينظر إليهم من ناحية هيأكلهم وأجرهم . ولكن لو أنه هيم على شؤون الدولة وطالبهم أن ينتظموا في أعمالهم لوجد أن أي واحد من هؤلاء يغيب يحس هو بذلك في الحال لأن الدولة لا تستغني عن أيهم وإلا ما أنت به ؛ وأراني

استطردت فلا أعد لأقول :

هذه أرضنا التي نسكنها فهل تراها المجرد علينا بالحجرة وما وراءها قد ضاقت بنا أو عجزت عن إطعامنا ، أو حتى أرضنا كل أركانها ونواحيها وامتنع صيرنا كل مصادر خيرها ومنابع النفع فيها ؟ كلا ثم كلا ؛ بل بالعكس لا يزال نرى في اتساع صحارها وفي ترامي سطوح محبطناتها وفي 'بعد أغوارها وفي امتداد جبالها ما يحير الفكر ويملا النفس جلالات وروبة كما نجد في كثرة خيرها وفي تنوع رزقها ووفورته ما يستأهل منا الرضى ويستوجب الشكر والثناء .

ثم ما نجد في نظمها وعجائبها وأسرارها من مواضع خصبة للدراسة لا يأتي العمر على عشر معشارها وإن طال — كل ذلك يجعلنا نشعر بأن أرضنا عظيمة وهائلة ولا تنال منها هذه الأقوال شيئا مادامنا نراها تستنفد منا كل طاقة نريد استنفادها وتواتينا بكل ثمرة نبغى الحصول عليها وهي بعد ذلك مسرعا ومراحا للرواد والمكتشفين تستنفد الأعمار والأعمار ثم لا تنتهي . فلتكن الأرض كيفما تكون لا يعنيننا !

ثم الصلة التي تربطنا بالخالق صلة التدبير والانعام والتفضل نراها كما هي لا تزال — تتوالى السكائن الحية متدفقة في سلسلتها متمتعة بكل أعضائها وحواسها وكل ما يلزم لها . سائر كل عضو في وجهته التي خلق لها ، يؤدي عمله الذي ينبغي أن يؤديه لا يغفل عنه ولا ينساه ، ولا يخطيء في أدائه — فيرتب على قيام تلك الأعضاء بأعمالها وفي التناسق الجارى بين تلك الأعمال عموما — حياة هذا الكائن وقيامه يدب على قدميه فيجد النعم تنتظره لتغمره وفق ما ينبغي وحسب ما يشتهي لو كان يشتهي ويتخير . فلا يسعه — والحالة

هكذا ، لو كان يبصر - إلا الاعتراف بالمدير والثناء عليه .

فماذا يريدنا إذا من المجرات ما دامت لو ترامت حتى يعجز ذهن عن متابعتها ، لم تعطل لنا أمرا ولم تنتقص من أرضنا شيئا ولم يُفسد وجودها علينا نظاما ؟ وخلافة الانسان في أرضه هي كما هي لا يزال هيمناء على القوى جالسا على القمة قابضاً على الصولجان . والمبادئ التي يقوم عليها اعتقادنا في الحياة من أن الاستقامة رشاد ، والدأب فلاح والمعرفة خير ، والبعد عن الشر وقاية للانسان في الآخرة والأولى - كل هذه لا تزال كما هي ، لم يختل منها أمر ولم يتبدل منها حرف بسواه .

فالحال كما كان بخدافيره ، لم يغير العلم بالمجرات عن الانسان مسؤولية ؛ ولم يغيره من واجب ، ولم يضيق عليه واسعاً ، ولم ينتقص منه نعمة ، ولم يغير له فلسفة - إلا إذا كان هو يريد أن يفعل ذلك . وهو إن فعل فليعد إلى شأن الموظفين المخبول السابق الكلام عليه فهو مثله وغالطته غلطته .

هذه أرضنا التي نحيا عليها ، ونقضي كل ما كتب لنا من العمر فوق أديمها وفي رحابها تتقلب ؛ وعلى حسب نعمها نشكر ؛ وفي حدود واجباتنا عليها نسأل فلا يعيننا ما وراء ذلك من الشئون مادام هو لم يغير بما هو في حدود أمرنا شيئاً .

هذا كله إن جريتنا على فهم الأمر وكأن لا علاقة لهذه الشمس ومجراتها بتلك الأرض التي نسكنها ؛ ولا بحياتنا نحن معشر الاحياء . وأستطيع أن أدعى - وإن كان ذلك يضحك - أن هذه المجرات هي لنا ومن أجل حياتنا على هذه الأرض التي تكاد إن تقاسيها لا يكون لها وجود من الناحية

الجمعية . ولا تجاهاى هذا أسباب تستأمله .

أولا كثرة العوالم ليست سبباً للاستبعاد فمن يجرع جرعات على الظلماء من ماء بارد يبل بها صداه إن هو تدبر ما تشتمل عليه تلك الجرعات من العوالم الكونية العجيبة المنتظمة يراها تفوق جداً كل الشموس في عموم جرات السكون عدداً . إليك : هذه الجرعات فيها على الأقل مئات من قطرات الماء . والعلم يقول إن القطرة الواحدة فيها من الذرات ما يفوق عدد قطرات الماء في المحيط ^(١) تدبر ذلك - فهل تستطيع أن تتصوره ؟ ثم كل ذرة هي كون برأسه كما يقول العلم أيضاً ، بشموسه وكهاريبه . ذلك كله ما اشتملت عليه عدة جرعات من الماء - الغرض منها أولاً وأخيراً أن تطفى . غلة الصادى ولعلك حين تعلم أن الكهارب في كل ذرة ليست معطقة كالقناديل كلاً بل هي تدور في مدارات متتالية متداخلة بسرعة يذهل العقل تصورها . سرعة تقرب من سرعة النور التي هي ١٨٦ ألف ميل في الثانية . لعلك حين تعلم ذلك تتساءل : وما الداعي إلى تفتت المادة إلى هذا الحد المدهش ؟ ثم لماذا هذه السرعة كلها التي تجرى عليها كهاريها ؟ ولكن العلم يقف من سؤالك هذا ساخراً فهذا التجزؤ هو عماد علم الكيمياء العجيب . ثم هذه السرعة هي سبب وجود هذه الذرات إن هي وقفت فقد زالت وصارت عدماً ، فأنت ترى أن ليس في الوجود شيء لازمة وليس شيء لغير سبب .

ثم العمل الميكانيكى نراه يتطلب من العوامل المتراكبة ما يفوق أضعافاً مضاعفة الغرض الاخير الذى وجد من أجله . إنك إن تنظر في الساعة التي

(١) ص ١٦٥ من كتاب : العلم والعمران ، للإستاذ فؤاد مرقس

نقيس لنا الزمن نجد غايتها النهائية تحريك عقربها التافهين جداً . ومع ذلك فقد تطلب هذا الغرض من الآلات أشتاتاً ؛ ومن الحركات فنونا تدهش من ينظر ويتدبر . تفتح الساعة فتجد حركات كثيرة وعملاً دائماً ؛ وأشتاتاً متراكبة من الشغل المتواصل المتنوع كأنك في ورشة . فهذه حركة سريعة وتلك بطيئة وحركات دائرية وأخرى نصفية وعلم جراً وغايتها الأخيرة ما ذكرت لك . والحقيقة إن الإنسان ليعجب كيف تكون هذه كلها من أجل ذلك الغرض ، ولكن الواقع هو ذلك ؛ فلو اقتطعنا قطعة أو أبطلنا حركة لوقف العمل ، ويعجب الإنسان كذلك : كيف تكون هذه الحركات المتناقضة اتجاهها المتفاوتة سرعة وبطء التي أكثرها ليس سائرآ في اتجاه الحركة الأخيرة المقصودة . يعجب كيف تكون هذه كلها على تناقضها واختلافها لهذا الغرض نفسه ، ولكن ذلك ثابت بالبرهان : فتأمل في حجم أجزاء الساعة تجد أنها تفوق حجم العقربين المقصودين أضعافاً مضاعفة ، وتأمل حركات هذا المعمل تعجب كيف هي من أجلها .

ثم انظر في جسم الإنسان تراه مؤلفاً من ملايين ملايين الخلايا الحية وكل منها كأن حيّ برأسه له جميع خصائص الحياة التي لأي جسم حي آخر كبير أو صغير ثم الدم الذي في الجسم فيه مئات آلاف الملايين من كريات الدم حمراء وبيضاء وكل منها كذلك كأن حيّ برأسه . فما أكثر كل ذلك إن الكائن البشري كون واحد له إذا . ثم اترك مظاهر الخلية وتعمق في تركيبها الهندسي تراها مؤلفة هي وحدها من آلاف ملايين الذرات وكل ذرة كون برأسه كما قلت لك . بل إن الذرة فيها من الأجرام والفراغ ما يمثل

تكونا تاما بأجرامه وفضائه على وجه نسبي كما يقول العلماء أيضاً - فما كل هذا ؟ تدبر هذه الأمثلة وهي موجودة في دنيانا فعلاً !

ثم إذا أضفت إلى كل ذلك أن العلماء قد شاهدوا أن جميع العوالم الكونية بما فيها المجرات وشموس المجرات ذات نظام واحد وتناقص وانتلاف حتى قال السير جيمس جينز العالم الانجائيزي في كتابه (الكون الغامض) عن الكون برمته ، إنه فسكرة عظيمة ، وقال (بخبر) المالحد نفسه : ولم يشاهد أبداً في أى مكان حتى في أبعد مدى من الفضاء الذى ندركه بالتلسكوب حادثة شاذة عن النظام (قال ذلك وان كان استنتج منه بعد ذلك مالا نقره عليه . لا يعيننا استنتاجه . هو ذكر الحقيقة العلمية التى شاهدها . وذلك مانستشهد به .

أى أن المجرات بناء على هذه الأقوال ليست شاذة الحركة ولا مبتورة العلاقة بكوننا ، وأنها لو كانت مستقلة عنا لما كان من داع أن تتحد معنا في وجهة وتتوافق معنا في نظام . ثم أضفت اليه كذلك ما اتجه اليه العلم في الأيام الأخيرة من أنه لا يبعد أن تكون لهذه النجوم صلة بالأحداث التى تحدث في أرضنا وعكف الباحثون الآن ليتحققوا من أمر هذا الفرض وطبيعى الفرض لا يمازج الفكر ولا يداخل البال إلا إذا كان فى الوجود ما يستدعيه حتى قال من ظن هذا الظن الأخير إنه إن صح ما ذهبنا اليه من أن للنجوم صلة بالأحداث التى تحدث فى الأرض لكان على ذلك صحيحاً ما يقوله التاريخ عن النجم الذى ظهر لإبان ظهور السيد المسيح . وأضيف أنا أمر النجم الأخير الذى ظهر حين ولادة محمد خاتم المرسلين .

فاذا جمعت هذه الأمور بعضها إلى بعض ترانى لست هازلا فى ظنى أن هذه المجرات جميعا من أجلنا - فان أبيت الموافقة على رأى قلت لك ومع ذلك فأريك لا يضيرنى بضائرة . هذه أرضى التى أسكنها - لى فى رحابها مسرحا ومراحا ينتهى العمر وأعمار معه تبل أن أروض كل أركانها ونواحيتها، ثم إني من رزقها أطعم ومن علومها أشتقف ، وفى التدبير الحكيم الجارى فى كل شئونها وأحوالها أحسن برحمة ربى وإنعامه وتفضله، فلا أضل عنه ولا أشقى ، ولا أتخط هنا أو هناك . فما يعيننى من المجرات وسواها ! لتمد أكثر مما هى أو تتجمع ، ولتتكاثر فوق ما هى أو تقل ، لا يعيننى مادام كل ذلك لا يغير من أمور دنيائى التى أعيش فيها شيئا ومادمت لا أسأل إلا عن واجبى فى حدود ما بين يديّ والتفت إلى الرجل فاذا النوم قد أبعد ما بينى وبينه فتركته له ومضيت على أن أعود إليه فى اليوم التالى .

سيرة أخطاء الديانات السابقة

عدت إلى الرجل فى اليوم السادس فوجدته فى مكانه الذى لا يغيره منهمكا فى تقليد كتاب منكم أمامه فلم يشعر بجدورى حتى حييته فرد على التحية مبتسما وظل على حالته مقبلا على شأنه الذى هو فيه ، فجلست لا ألقى له بالا أو متظاهرا بأنى لا ألقى له بالا ، والحقيقة ما كان يعيننى من أمره إلا أن أعرف اسم المكتاب الذى أمامه حتى عرفته فاذا هو كتاب (فلسفة النشوء والارتقاء) لشبلى شميل المشهور الذى لقبوه بزعيم الاتحاد فى الشرق ففرح بذلك وشكرهم . ثم لم ألبث إلا قليلا حتى وجدت الرجل

قد حاوى كتابه وأقبل على يقول :

أراك صعب المقادة ؛ عصيًا على الإصلاح ولك العذر ، فانك خاضع
لوراثات تحدت إليك من أسلافك ، وأقارب ألقاها إليك ذوروك ولما
تشب بعد ؛ فأفرجت عن الابتسام شفتاى ، فتوقف يسألنى ما بالى ؛ فقلت
وقد عاودنى الضحك حتى كاد يغلبنى : لاشئ إلا أنك عرفت عِلَّتى فنظر إلى
شذراً ومضى يقول :

إن ما أنت فيه قد كان فيه كل الناس من أقدم العصور وفى كل أدوار
الزمن . والآن فانظر ما فعلوا . عبدوا الحجر والمدرة ، وعبدوا الشمس والريح
وعبدوا القط والكلب ، وعبدوا النار والنور وكانوا يعتقدون الماء من دموع
الآلهة والبرق بريق ثناياها وهى تضحك . وكانوا يعتقدون سخافات
كثيرة كهذه وأسخف منها . والآن فانظر - إنك أنت لاترضاها ! وتعتقد
ضلالها فى غير شك . ولا سبب لذلك إلا أن العلم قد أوقفك على حقيقة هذه
الاشياء فنفضت يدك منها متأففا تسمو بنفسك عن أن تراولها . فسيأتى اليوم
الذى يفتح العلم آفاق المعرفة للناس أكثر وأكثر فينظر إليك المستقبلون
وإلى ما تعمله نظرتك أنت الى السابقين وعملهم ؛ وكان الدينيون يعتقدون
أن الامراض عقوبة من الله استأهلوها بذنوبهم حتى جاء بقراط فقرر أن
لها أسبابا طبيعية . واليوم ثبت ذلك قطعاً فكل مرض له سببه الذى يحدثه
يحدثه الطبيب ويعلنه ويحارب المرض على أساسه فيزول المرض ، ويتركه
فيبقى ويطارده قبل المجيء فلا يناله . وكان يرون أن آفات الزراعات عقوبة
من الله . فأثبت العلم أن الآفات لها أسباب طبيعية وصار يقاومها بها فتزول

الآفات ويحتاط لها قبل المجيء فلا تجيء . وكانوا يقولون إن تقلبات الأسعار من صنع الله حتى تقدمت بحوث الاقتصاد وعُلم قانون العرض والطلب ، فإذا بتلك الأقوال لا معنى لها بل لقد زالت من نفسها . وطالما قالوا إن الشهب تُذر إلهية يتهدد بها البشر وأن الصواعق عقوبة منه للذنبيين من عباده حتى يذت الارصاد الجوية الأسباب الطبيعية لحركة الشهب وظهورها وكشف العلم عن الكهرباء الجوية واخترع (فرنكلين) مانعه الصواعق المشهورة فاختفت هذه الأقوال نهائياً ، والغريب أن الكتب المقدسة لا تزال تنطق بالشهب والصواعق على أنها كانت في يومٍ ما للغرض الذي كان يفهمه الدينيون منها من قبل . مما يدل على أنهم أخذوا هذا الفهم من أقوالها . وعلى ذلك لا أدري ما بالها .

وإنك لتجد بعض الأديان ترى أن من أفضل البرِّ عندها أن يقبر الإنسان نفسه حياً في سجن يسمونه بالدير ينقطع فيه عن الدنيا نهائياً ويعطل قواه تماماً ويترك العمل والمنزل ، وكل شيء يمكن أن يتحقق به معنى الحياة . أروني أي فرق بين حالة هذا شأنها وبين الانتحار الذي هو في نظر هذه الأديان جريمة .

بل لعمري إن الانتحار أفضل من ذلك ؛ لأن المنتحر قد ترك الحياة خيراً وشراً وقد صار لا يؤذي الأحياء بشيء ؛ أما هذا الذي لا هو بالحي ولا بالميت تراه لا يزال ينتفع بمجهود الأحياء ؛ ويستهلك ثمار أعمالهم من غير ما فائدة يقدمها لهم في مقابل ذلك ، أروني أي فرق بينه وبين السارق والله إن الأمر ليمتدعي العجب حقاً . ولا أدري هؤلاء الناس كيف

يفهمون الأمور — لا عجب أن كانت هذه الفكرة في طريقها إلى الانقراض لأن للحياة حقاً لا بد أن تستوفيه وتناضل عنه حتى تستوفيه .

فيأصاحي كفى بالزمن هزداً بالنفوس ومسداً الأذهان ومصححاً للأخطاء — فالأنا تتبعني اليوم ؛ فستتبعني بعد اليوم — وما المسألة غير هذا الوجه أبداً

قلت إنني سأرتب الرد على سؤالك في ثلاث مراحل : أولاً الإجابة على فكرة أني مغلول بغلّ الوراثة . ثانياً الرد على ضلالات الأقدمين في الوثنية وأخطائهم في تعليل الأمور والمأثرة المعيبة التي جئت بها حول الكتب المقدسة في هذا الشأن — لا عجب حين اجترأ على منبرها لا يبالى بها بحال وبعد ذلك نبشّط هل الدين وقد انقشعت عنا هذه الضلالات لانزال نحس بما يستدعيه ويستوجبه ؟ وهل من الجائز أن نقع في ضلالات كضلالات السابقين أو نكون الآن واقعين في شيء منها ؟ ذلك ما أردت عليه أولاً فأولاً — فأقول : —

غل الوراثة أتذكر حين بدأت كلام اليوم بأغلال الوراثة وتوجيه التربية فرأيتني أضحكك . أتدري لماذا كان ضحكي ؟ لأنني حينما دخلت فوجدتك عاكفاً على كتاب (شبلي) ثم رأيتك . اتجهت إلى الوراثة والتربية وتلك نفسها فرية شبلي طالما رمانا بها

قلت في نفسي سرعان ما ظهر أثر الكتاب على صاحبي . ولا أزال أحفظ عبارته التي أوردها بنعمها فقد قال : (كم أنت متمسك بما نشأت عليه فأنا كنت مثلك وأكثر . وما استمساكك به عن تروّ في أول الأمر ، لأنك كبرت صغيراً لا تستطيع أن تقيم أحكاماً لك من نفسك تستقر عليها بل عن

إعدادك بالتربية وانطباع فك بالوراثة . . الخ ومن قراءة هذه الفقرات تعلم ما فيه من خبث ودهاء وتأت رخيص ، والحقيقة إنه مامن فرية أخيب من هذه الفرية سهماً : لأنها - وبالأأسف - تحمل معها جوابها في صورة مقدمها نفسه . فهو ملاحظ - كما نعلم ووالداه مؤمنان - فكيف أخطأه خل الوراثة إذن ؟ وكيف هو تفلّت من قيودها ؟ وكل الملحدين شأنهم هذا الشأن - انحدروا من أصلاب وبطون مؤمنة - وتمضى السلسلة ؛ إلى الوراثة في نور الإيمان إلى أبعد مدى - حتى إذا انتهى الأمر إليهم كان الحساب غير الحال .

إن التأثير بالوراثة المزعومة والبقاء على إحصاءات التلقين . إنما ذلك يكون إذا أغمض الانسان عينيه ومضى في خطة التقليد لا يلقى إلى الأمر بالا ثم يحىء بنوه وأحفاده فينهبون نهجه ويأخذون إخطه مغمضة هيونهم كما فعل - إن ذلك جدير بأن يجعل الآلاف المتسلسلة تمضى هكذا ولو كان فيهم عقل إفلاطون وعبقريّة إنييتون - مادام ليس فيهم من يُعير الأمر التفاتاً بمعنى فيه خيراً أو شراً لا يبحث ، وصواباً أو خطأ لا يلقى النظر . فالشأن في وقوعه في الخطأ على شدة عقله وكال فطنته كالشأن في الشخص القوى الابصار الذي لا ينظر فهو إن يمشى على حاله يقع في البئر حتماً كالأعمى ، وإنما لم تسكن الكثرة من الناس المبصرين يقعون في البئر كالكثرة منهم من الأذكاء يقعون في ضلالات الاعتقاد لأن المبصر لا يستطيع أن يمشى في طريقه لا ينظر خشية الاصطدام بمثل هذا البئر . أما في أمور الاعتقاد فيأخذها على أنها لا تنفع ولا تضر أو هي لا تعنيه لأنها لا تتصل بأسباب الحياة أو

تشمغله عن النظر فيها وتمحيصها. أسباب الحياة . أما إذا رفع رأسه وفتح عينيه وأخذ يتأمل ما هو فيه ويتدبره ويناقش كل قضية من قضايا الحساب ويسائل التاريخ ويبحث ما عليه سواه ويقارن ويوازن . ويقلب الأمر على جميع وجوهه فإن التلقينات وسراها تكون في هذا الوقت قد تبددت وقد زالت نهائياً

وحالة صاحبنا المعترض هي البرهان العملي على ما أقول . فإنه لجرد شبهات خاطئة تراى له جرفته إليها وتخلص نهائياً من حقائق عن الخالق عاش عليها ومات عليها أسلافه وهم ألوف وألوف . فبقاؤنا على ما نحن فيه ليس تقليداً لأننا نبخسه ؛ وليس وهما أبقتة علينا الوراثة لأننا نتدارس ما عند من تركوه فإذا بنا نجده ضلالاً وسخفاً . إنه لو كانت الوراثة المزعومة والتلقينات تمنع العقل من الانتقال إذا رأى أن الأمور تقتضى هذا الانتقال . إنه لو كان الأمر كذلك ما أُلحد مؤمن . ولا تغير للناس دين ولا رجعوا عن ضلالة ولا خلصوا من خرافة سابقة ولا وهم . والأمر على عكس ذلك كما ترى . فالقول بالوراثة والتلقين فرية ومقدمها هو البرهان العملي على كذبها كما قلنا .

ولأنك لتجد شبلي يوجه هذه التهمة بغير حساب ولكل من يلقي حتى وجهها إلى (بختر) نفسه إمامه في الاتحاد وزعيمه في المادية . ذلك أن الماديين لما كان من مقتضيات مذهبهم جحود الروح في الإنسان بدت الحياة في نظر (بختر) وكأن لا غرض لها ؛ فلما جاءت نظرية التطور وجد في ارتقاء الأحياء ما يوحي بأن للحياة إذاً غرض يسد هذا النقص . فقام المعترضون يعترضون على فكرة الارتقاء أي أنهم حاولوا نزع الخيط الأخير الذي

أمسك به فقام يقول : (فلو صح ذلك وصحت الاعتراضات لكننا في أسوأ حال) فقام شبلى يعترض على بختر لأنه قال هذه الكلمة التي تدل على أنه فتح عينيه براه مذنباً أو مخطئاً لأنه فتح عينيه . ويتهمة بتهمة تلك التهمة التي يرميها بها هي نفسها بدون تغيير فيقول : « بختر مع أنه من غلاة الماديين المعاصرين لم يستطع في هذا أن ينجو من مفعول تربية الألام التي مرت عليه في الأجيال ، واستعمال معانيها ، » (١)

ضمومات السابقين في الوثنية وأخطائهم في تعليل الأمور

إذا ألقيت نظرك على تلك الأشياء التي تؤثنت بها الإنسان في الماضي وحاولت أن تبين لون الفكرة التي أوضحت إليه اختيارها ، ثم أغزته بها حتى عبدها لوجدت أن المنفعة والشكر على المنفعة كان البدء والغاية ، فأى شيء توهمه يبغى نفعه أجله وأكبره وظنه إلهه المنشود ، فيعكف عليه ليعبده كأنه كان يعبر بعبادته عن الشكران له . فتراه عبد القمر لأنه أنار له الطريق . وعبد النجم لأنه هداه إلى غاية . وعبد النار لأنها تدفئه . وعبد الماء لأنه يرويه . وهكذا . وتراه عبد النيزك لأنه نزل من السماء . مقر الآلهة في نظره ، فهو منهم فلا بد أن تكون له حرمتهم . وقدس الزناد والحجر لأنهما مبعث النار النافعة . وأحياناً كان يرى أن إلهه ليس النجم والقمر مثلاً بل هو مستكن وراء هذه الأشياء فيتخيل له صورة يحاول تحديدها وتجسيمها ليراها بعينه ، فصنع الأوثان ونحت الأصنام . وقد جاءت هذه الأشياء كهيئة لأنه لا يتصور إلا من جنس ما يرى .

لم يكن الانسان القديم مجنوناً إذا حين فعل ذلك، فهو إنما يحكف على هذه الاشياء يعبدها ويشكرها كفاء ما قدمت له من جميل ظاهرها تقدمه . وكل خطئه إنما كان في تكليفه للمسألة وعدم فهمه لهذه المصادر التي توهمها تعمل له على حقيقتها .

وإذا علمنا أن تاريخ البحث عند الانسان ساسلة محاولات تفشل جميعاً حتى تتجمع واحدة، وعديد من الاخطاء . يقع فيها كلها حتى يهتدى من بعد ذلك إلى صواب . علمنا أن ذلك الانسان القديم في خطئه هذا لم يكن بدقته . هذه المعلومات الحاضرة التي ننعم بها ونفخر بدقتها وصوابها . وراءها من الاخطاء والالوهام ما إن يتذكرها الانسان الآن نراه يحزى جداً وينفر نفوراً .

قديمًا كان يظن العلماء أن الماء يتحول إلى طين لما شاهدوه من تلك الزواجب الطينية التي تنزل منه . فاضحك ما استطعت فالأمر يستدعي ذلك وكانوا يعتقدون أن العناصر التي يتكون من مجموعها كل مافي الكون أربعة ماء وهواء وتراب ونار . واليوم ترى التليذ البسيط في مدرسة متوسطة يعلم خطأ ذلك للغاية، بل ويعلم أن تلك التي ذكرها ليست عناصر مطلقاً ومع ذلك عاش العالم بهذه الفكرة على خطئها قروناً وأحقاباً . وما يشير الضحك أكثر وأكثر تلك التجربة التي أجراها أحد هم في ذلك الحين ليثبت بها كيف يتحول الماء إلى سواه . فقد عمد إلى شجيرة غرسها في قندير محدود من التراب معلوم وزنه وأخذ يسقيها بالماء فتنبو وتكبر حتى صار وزنها ١٦٩ رطلاً . ولما كان وزنها حين غرسها خمسة أرطال ووجد أن

التراب لم ينقص إلا أوقيتين فقد قرر أن باقى الزيادة جاء من الماء أى أنه فهم من التجربة أن الماء قد تحول إلى هذا الجرم الذى أمامه فى الشجرة غافلاً عن أن تلك الزيادة يرجع معظمها إلى ما تصيده أوراقها من الجو (١)

وظاهرة التعفن التى نراها تسفر عن ديدان وحشرات هذه الظاهرة ظنها الأقدمون تؤيد فكرة التولد الذاتى . أى أنهم ظنوا أن هذه الديدان قد تولدت من نفس المادة بسبب التعفن وجئتم أنتم بامعشر الماديين فبينتم — إذ ذاك — على هذا الوهم فلسفة فى الاتحاد سامقة شائعة لها أصول وفروع سرعان ما نقضها لكم (باستور) نقضاً وأثبت بالبرهان العملى أن فكرة التولد الذاتى خطأ . وأن هذه الديدان والحشرات التى أسفر التعفن عنها إنما سببها البيكتريا التى يعج بها الفضاء ، وجدت فى التعفن البيئة الصالحة للإفراخ فوضعت بذورها فتنتج عنها مانتج ؛ وأنها إنما تعمل ذلك لتحلل المادة العضوية التى تعفنت ؛ لتعود حماداً يستطيع أن يغذيها النبات . فعملها إذاً مصلحى مقصود ، وتدير إلهى أكيد . والعجيب أن بعض المتعالمين لا يزالون يفهمون فى ظاهرة التعفن هذا الوهم السابق الذى كان لكم والذى صرتم الآن لا تجرمون على القول به . لا يزالون يفهمون فيه فهمكم السابق ، ويبنون عليه الفلسفة التى كنتم تبنيونها على أساسه . جاهلين الحقيقة غافلين عن الغرض المصلحى الذى تؤديه .

ودود الجبن إذاً وكل مادة أخرى تتولد فيها الديدان لم تكن منها وتولدت فيها كما كنا نفهم قبلاً . . . كلا !

إنما سببها الهواء وما فى الهواء من بذور تنتجها ، وقد علم بذلك أصحاب

(١) تلخيصاً عن كتاب « أساطين العلم الحديث » للإستاذ فؤاد صروف ص ٦٢

المطاعم العارفون فصاروا يحتاطون للأطعمة فلا تتولد فيها الديدان أبداً .

وكان الأقدمون يتوهمون أن الفيران تتولد من نهر النيل لأنهم رأوها تخرج من شقوق الأرض المسقاة ، وأن ديدان البطن تتولد بطبعها في نفس البطن ، وقال بذلك من ؟ أتدرى ؟ قال به فيمن قال أحداً ساحطين العلم هو (لامارك) الفرنسي نفسه والآن يضحك صغار المتعلمين من هذا القول . وكان جالينوس وهو ذو اليد الطولى في الطب وصاحب الفضل الكبير يعتمد إلى المختاطيس يستخدمه ليجذب له المرض من المريض ؛ وهذا يضحك طبهاً ولكنها محاولة ، وكل علم وفن إنما هو سلسلة محاولات يخطئ أكثرها ويصيب أقلها . وكان الجغرافيون يثبتون على خرائطهم عند جبل طارق قائلين : هنا تنهى الدنيا . وحينما رأى الأمريكيون غريستوف كولمب قادماً عليهم من على سطح الماء ظنوه نزل من السماء ؛ وفي هذا المجال لا أجد أنسب من قول القائل : أعقل الناس أعذرهم للناس — فقد كانوا يفهمون أن ليس وراء أرضهم أرضاً أخرى ، كما كنا نفهم نحن أيضاً أن ليس وراء أوروبا غرباً شياً ، فلما رأوه كان ما قالوه — بناء على فهمهم السابق هو أقرب شىء إلى المعقول ؛ ولا أدري أى شىء غيره كان يمكن أن يقال : لا سيال إلى القول بأنه خرج من جوف الماء . لأن الماء لا يصلح لحياة الإنسان فلم يكن أمامهم من شىء يمكن حمل الظاهرة عليه إلا القول الذى قالوه . وإلى عهد قريب جداً كان العلماء يفهمون أن الفرخ بصورته يكون في البيضة حتى ظهرت فكرة الخلية فعلم خطأ القول السابق ، فالأمر كما قلت لك سلسلة محاولات لا بد أن يخطئ أكثرها ، وليس من رأى أن تلوم السابقين على

خطئهم لأن ذلك هو الممكن ولا يمكن سواه ؛ مادام الإنسان يخرج من بطن أمه لا يعلم عن الدنيا شيئاً ؛ ولا بد لكي يجد شيئاً ؛ أن يبحث عنه هنا وهناك حتى يلقاه

وبحمل القول أن تلك المعارف التي بين أيدينا قد نشأت عن أخطاء جمة بحيث يصح القول بأن معارفنا لم تكن بالنسبة لها إلا كواحد في المائة ولماذا لا — والعلماء الباحثون أنفسهم يتولون إن ألف فرض قد تذهب هدرًا قبل أن يصح فرض واحد — وأرجو أن تتدبر معنى هذه القروض الألف التي ظهر خطأها وذهبت هدرًا ألم تكن في نظر العلماء مما يُحتمل أن تنسب إليه للظاهرة ؟ بلى كانت تحتمل جدًّا ؛ وكان يظن بها ذلك جدًّا وإلا ما وقفوا عليها ولكن بالرغم من ذلك فسرعان ما ظهر الخطأ في جميعها ، إذا الوهم ليس مستحيلًا على عقل الحاضرين حتى نلوم عليه السابقين . ولقد صار الباحثون الآن يعرفون للحقيقة جلالها ، ويعرفون للعقل قصوره ، فإذا أرادوا وصف ظاهرة أجروها بأنفسهم وشاهدوا نتائجها بأبصارهم تراهم إذا حاولوا أن يقرروا حكمًا بناء عليها يتحفظون جدًّا في التعبير فيقولون : الأمر هو كذا على ما يظهر

فهل بعد ذلك نعيب على القدمين أنهم أخطأوا في تحليل الأمراض وجعلوا قانون العرض والطلب ، وجعلوا وجهًا — اوا : ما هذا أيها الناس ؟ هل الخطأ في محاولة فهم الأمور مما يُعاب أو مما يمكن يُتقى ؟ ثم تبالغ في تجاهل الأمور وتمضي تقول والآن نراهم قد رجعوا عن هذا الخطأ — والله هذا عجيب ! هذا شأن الناس في كل زمن وأيام كل بحث في كل يوم يأتي

العلم بجديد ينقض جهلاً سبق ليحل محله . إنهم قد رجعوا حقاً ولكن هل معنى ذلك أن فكرة الدين قد انتهت كلاً إنها كانت وستكون وستظل كائنة مادام في الإنسان عقل يتدبر وستعلم ذلك في موضعه

بقي أنك ربما تفهم أن هؤلاء المتدينين لم يكونوا باحثين وإنما أوهامهم الاعتقادية قد رمت بهم في مهاوى هذا الضلال البعيد وأقول : كلا ! وهل هؤلاء العلماء وهم يبحثون للبحث ذاته لا شيء سواه ، ويريدون أن يفهموا الأمر على حقيقته ، لا غرض لهم غير ذلك — هل هم سلبوا من الخطأ حينما قالوا إن الماء يتحول إلى طين ؟ كلا !

إن الإنسان مفكر بطبعه ؛ ويعطى حكماً لكل شيء تقع عليه عينه وإن لم يُرد . بل وإن لم يشعر — وما عجبنا حينما أثبتت لنا تجارب الطبيعة أن الهواء له ثقل وله ضغط — ما كان عجيباً من ذلك إلا لأننا كنا قررنا قبلاً للهواء حركاً مناصاً لما رأيناه وإن لم تُرد بل وإن لم نشعر ، لذلك كان العجب حينما رأينا الأمر على خلاف ما كنا نرى

وأراك تعيب على السكتب المقدسة أنها تتكلم عن الصواعق والرجوم على أنها كانت عقوبة في يومٍ ما لقوم استحقوا العقاب وتبنى نقدك طبعاً على أنك رأيت هذه الأشياء لا تعمل لذلك ؛ بل تعمل لأشياء أخرى لاصلة لها بالثواب والعقاب ، وأنا أقول إن رؤيتك لها لا تعمل لذلك ليس معناه أنها لم تعمل له أبداً . ورؤيتك لها تعمل لسواه لا يعني أنها لم تكن قد عملت لهذا الغرض في يومٍ ما . إن انتظام أحدنا في وظيفة حكومية خاصة ليس معناه أننا لا نصالح لسواها ، ولا يمنع أن تستدعيها الحكومة في ظروف

خاصة لأداء عمل لاصلة له بعملنا الرسمي المعروف وكل منا يعلم ذلك وجوبه في الظروف الطارئة كقيام حرب أو انتشار وباء أو عمل إحصاء عام فإن بعض الموظفين ينتقلون لأعمال في تلك الظروف لاصلة لها مطلقاً بعملهم الأصلي ، إن مشيئة الله وتديره تتجلى في توجيه أمور الكون والتسليم الرحمة التي تترتب على حركتها أخيراً فمثلاً تانا نجد النحلة تغشى زهرة الورد مثلاً لأن لونها يروقها ، ورحيقها يستهويها ؛ ولكن وراء ذلك غرض للزهرة قال به علماء النبات وقال به حتى دارون نفسه العالم الطبيعي المشهور هذا الغرض هو نقل حبوب اللقاح إلى وردة أخرى . لذلك ترى النحلة مجبرة ألا تخلط في زيارة الأزهار لا شيء إلا لكي لا يفوت هذا الغرض الذي لا يعينها في كثير ولا قليل . ولكنه غرض كوني وتدير إلهي فلا بد أن تعمل ليتم وأن تُسأس بيد خفية حتى لا يفسد الغرض . فمشيئة الله لكي تتم نهياً الأسباب الكونية لأدائها ؛ وتديره لكي ينفذ ، لا يقوم بتنفيذه غير أمور الكون كما ترى .

فما المانع إذاً أن يكون الله وقد أراد عقوبة لقوم مذنبين ، أن يستخدم تلك الأمور لأداء هذا الغرض كما تراه يسخر النحلة في رحلتها لتضي على سنن خاص لا معنى له إلا تنفيذ تلك المشيئة ! وعدم رؤيتك الآن ذلك ليس دليلاً على أنه لم يكن . هذا - وأخاف أن يعطلك عن فهم مثالي والاعتبار به ما علمت من أن نوايس الكون ثابتة لا تتغير ، فما عمل شيء يظل يعمل له على طول الخط لا يحيد عنه أبداً . وأقول رداً على هذه الشبهة : إن كثيراً مما تتغير أحوال الشيء الواحد ويتغير عمله تبعاً للظروف المتجددة ، إليك

مثلا الانزيم في النبات إنما تحول السكر إلى نشا إذا اقتضت مصلحة الشجرة ذلك ، وليكنها تعود فتحول النشا إلى سكر إذا اقتضت مصلحة هذا الأمر الأخير ، وما أقول إن ذلك خرق للسنة . بل هو توسع فيها لتشمل مناحي التدبير وأطن في ذلك الكفاية فلنمض إلى الغرض الأخير .

السلام فيه الوقاية من كل ضلالة وقع فيها سواه

أقول : ديقنا - نحن المسلمين - لا يتوجه إليه أى شيء من تلك الشائبة التي أوترتها على الوثنيين وعلى ضلالات الدينين السابقين في تعليل الأمور فقد نشأ - منذ نشأ - أى منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا على التوحيد الخالص والتنزيه المطلق . لا شيء إلا لأنه مفصل على علم ، فطالب بذلك منذ نزوله ؛ ووجدت فيه الوقايات الكافية ضد كل ضلالة والاحتياطات التامة لدى كل شبهة قد يزلق فيها القدم ، أو يتعثر فيها الذهن وإنك لتجد التاريخ يحدثك عن الأديان ؛ أنها تبدأ بالوثنية ثم تتطور إلى التثليث ثم تنتهى إلى التوحيد ، ماعدا هذا الدين الحنيف ، فلم يكن بخاطيء حتى يصحح الزمن أوضاعه ؛ ولا بنافص حتى يتممه ولا بضال حتى يأخذ بيده إلى سواء السبيل . وإليك مثلا بما فيه لتعلم كيف هو يحوط نابعيه بكل وقاية وحصانة خشية الزلل :

(١) أعلن القرآن منذ نزوله أن الله خلق لنا ما في الأرض جميعا . وسخر لنا كل ما يحيط بنا . قال تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، وقال : « وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . » . وقال : « والنجوم مسخرات بأمره ، إزاء هذا التسديد الحكيم لانتخدع ولا يصح لنا نتخدع إن وجدنا الماء يُروى ، والنار تدفئ ، والشمس تبضي ، والقمر ينير ؛ والنجم يهدي

الثاني الساري . أقول إزاء ذلك لا ننخدع بمنفعة هذه الأشياء . ولا ننخدع بها وهي تحمل إلينا المنفعة لأنها مسخرة مجبورة لامتلاك غير ذلك كما أعلمنا الله تعالى . وليس هذا استنتاج نظري . أو الواجب أن يكون كغاية مثالية كان يجب أن يعمل بها المسلمون . . . كلا . . بل هو ما عملوه حقاً ؛ واستجابوا له حقاً ، ولولا ذلك لاعتبروا في نظر الدين خارجين عليه لا ينتسبون إليه أبداً .

جاء عمرو بن العاص إلى مصر فاذا بالمصريين يعمدون إلى فتاة قد زينوها لينفوها إلى نهر النيل ، لتطوى في أحشائه إلى الأبد علته يرضى ولا يمنع عنهم رفده ؛ فقال عمرو ما رأى . فقالوا : نفتدى الملايين بواحدة ، إننا إن لم نفعل لأعطانا ظهره ثم لا يعود بعد ذلك ، إننا معاشره والعارفون بطبعه ، فما شأنك ؛ وأنت الحديث عهد بالدار ؟ مشكلة مخرجة حقاً يضل الذهن في فهمها ، ولا يكاد ينتهي في أمرها إلى جواب ؛ ماذا يعمل عمرو ؟ الأمر واضح للغاية ؛ إن الله سخر لنا الأنهار . والنيل منها فهو مسخر لا يملك عطاء ولا منماً . أيها الناس : أنا الحاكم فيكم ، والمتولى لمصالحكم ؛ ردّوا الفتاة إلى خدرها ؛ بدأوا يهيجون لأن الأمر أمر حياة أو موت ، فاستدرك عمرو سريعاً وقال : اسمعوا لبقية الحديث لا تعجلوا ، إنني سأخدع النيل بخدعة تخيل عليه ، سأصوغ له فتاة من الطين أهيتها وأزيتها ثم أقدمها له ، واعلموا أنه ليس من الإدراك بحيث يفرق ما بين فتاة بشرية وأخرى طينية . . . كلا . . إنه ساذج أكثر مما تفهمون ،

وهكذا تم لعمر و انقاذ فتاة بريئة من الموت وأفهم المصريين على طول

الزمن أن النيل مسخر لا يملك عطاء ولا منعاً كما علمه القرآن الكريم .
(٢) أعلن القرآن أن الله ليس كمثل شيء ففقد بذلك نهائياً على فكرة التخيل والتخيّل وهي الشقّ الثاني من الوثنية . وفيه التخيل إذا وكل ما تتصوره فأنه بخلافه . أقول : ولولا هذا القيد لحاول الانسان حتماً أن يتخيل فكرة عن الله ثم يحسمها فالانسان ولوع بتصوير ما غاب عنه على حسب ما يتخيل ، كما هو ولوع برسم أفكاره وتمثيلها ليقف معها أكثر أو ليثبتها فلا نزول ، أو ليجعل منها لنفسه ذكرى .

كان تلمستوى الفيلسوف الروسي العظيم قد أنشأ في صغره جمعية بالاشتراك مع أخيه نيقولا الغرض منها اتحاد النوع الانساني وتآلف أفرادها بعامل المحبة .

فكرة بديعة ولا شك ؛ وفي نظر رجل كتلمستوى تعتبر رائعة ، فقد كانت الشغل الشاغل له طول حياته ؛ ماذا يعمل في تسجيل هذه الفكرة التي هي أعز أمانيه ؟ دفن تذكاراً في المكان الذي تأسست فيه الجمعية ثم أوصى أن يدفن في هذا المكان هو نفسه بعد وفاته وقد حصل (١)

وفي تاريخ الفرس أن أحد الملوك استبد بالرية استبداداً فظيماً أثار حفيظة الناس عليه ولم يعرفوا باباً للفرج ، فقام رجل حداد من الرعية رفع عصاه وعلق فيها جلدته ومضى في الناس ينادي : من لا يطيق الظلم فليتبعض فاجتمع الناس جميعاً من حوله وأجمعوا أمرهم على قتل الملك فقتلوه .

حادث جميل للغاية وفكرة أزالته عن الناس أقسى غمة ماذا يعملون في

(١) الشواهد من كتاب الآفات الاجتماعية وعلاجها ، لتلمستوى ، معرب

تسجيلها . . أقاموا الحداد ملكاً بدل الملك المقتول وأنشأوا للدولة راية تمثل
عصا الحداد وجلده . وهكذا صار صاحب الفسكرة الشجاع هو مؤسس
الدولة العسكرية ورايته (درفش كايان) أعزى في الدولة لانخرج إلا
حين الحاجة القصوى (١)

وفي فرنسا أقيم تمثال الحرية مكان سجين البستيل . فوجوده في مكانه
وبالصورة التي هو عليها ليذكر بما كان في هذا المكان من ظلم وليعلن
كيف انقلب الأمر من حال إلى حال ؛ فالبشرية ولوعة بتسجيل أفكارها
وتمثيل أمانيتها أفراداً وأممًا ؛ حال الخالق بينها وبين أن تنهج هذا النهج نفسه
في أمر العقائد بتلك الآية السكرينة وارشادها الحكيم

ومضى المسلمون على ضياء هذا التوجيه العظيم في كل عصر من عصور
الزمن لا يجد أحداً فيهم حاول أن يصور لله صورة في ذهنه أو يتخيّل في
شيء أو يضع له رسماً على أى وجه كان ؛ لأن هذه وثنية صريحة في عقيدة
الاسلام وكفر لاشك فيه .

(٣) أعلن القرآن أن الله لا تدركه الأبصار . وهو يدرك الأبصار ،
وتلك وقاية من مثل العثرة التي عثرها الانجليزى الفلاح حينما رأى رجلاً
راكباً منطاداً نازلاً من السماء يسأله أين هو فجأ الانجليزى على ركبته وقال
أنت في كولسدون (اسم بلدة) أيها الاله القادر على كل شيء — كما هي
رواية شبلى صاحبك في مجموعته الثانية ص ١٣ - فلو أن مسلماً رأى ذلك
المنطاد نازلاً من السماء أو رآه قد تسكون من الهواء ما فهمه على أنه إله أبداً

(١) تلخيصاً من كتاب اشهر مشاهير الاسلام لرفق العظم بك ص ٢٩٠

بعد ما علم من دينه أن الله لا يرى بحال . فأنت ترى أن القرآن قد وقانا نهائياً من الوثنية بجميع ضروبها ، وأود أن أنبه إلى أنه لو لا ذلك لما كان يبعد أن يتوثن الإنسان مهما نمت معارفه ، واتسع إدراكه ، وصار في القرن العشرين أو الثلاثين مادام هو يتجه إلى المنفعة التي ما خلق الكون إلا ليؤديها للإنسان . ومادام هو يريد أن يُرهف حسّه لما ينبغي نحوها ويستجني في نفسه عاطفة الشكران . قام في زمننا هذا أحد العلماء الكبار هو الاستاذ (مُذن) أحد علماء الكيمياء في جامعة لندن يقترح تحديد يوم مُعين كل سنة لعطلة رسمية يخرج فيه سكان المدن إلى الحقول والمراعي الخضراء تهب نسائم الربيع الأولى لتقديم فروض الشكر إلى الشمس على ما نهينا إياه من نعمة الضوء ، كما هي رواية كتاب آفاق العلم الحديث للاستاذ فؤاد صروف — (أقول) هذه وثنية صريحة تلك التي دعا إليها العالم الكبير لا يقع فيها ولا الساذج من المسلمين ما دامت الشمس في نظره مسخرة كما علمه دينه وليست لها إرادة مطلقاً في تقديم ما يصل إلينا منها من الخير .

(٤) المسلم لا يمكن أن يفهم في الأمراض أو آفات الزراعات أو الذكبات والأرزاء الأخرى على أنها عقوبة من الله على ذنوب فعلها الناس لأن القرآن قد عصم ذهنه أن يتجه هذا الاتجاه بقوله : (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك على ظهر هامن دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) نعم في القرآن آيات تحذر المذنبين بأنهم إن لم يقلعوا فسيلكوا حتماً والتحذير صحيح . وما مدد لهم به كان يقع حتماً إن لم ينتهوا ، ولا منافضة في ذلك وبين ما سبق لأن الذنوب نفسها هدامة ومنافية للعمران ؛ وناهيك

بالظلم وسفك الدماء بغير حق ونسكث الوعد والكذب والنفاق والفسق ناهيك بآثار كل هذه الأشياء أو بعضها إن فشلت في أمة . فما كان سيحيق بهم كان سيأتي كنتيجة حتمية للذنوب والآثام ، وما ظلمهم الله ونسكن كانوا أنفسهم يظلمون .

هـ — وحتى حالة الرهبنة والتبتي وتعطيل القوى لم يترك ديننا الحنيف أمرها فعمل ألا يهوى المسلم في مهاوئها . قال الرسول محمد (ص) لارهبانية في الاسلام . وجعل العمل والاحسان فيه والنفع العام هو مقياس الفضل والجزاء . قال تعالى (هل تجزون ما كنتم تعملون) (إنا لانضيق أجر من أحسن عملا) بل قرر أن الحواس والمدارك والقوى التي ركبت في الإنسان إنما الغرض من وجودها فيه الشكر أي صرفها فيما أعدت لأدائه من الخير والنفع قال تعالى : وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ، وأكثر من ذلك أعلن أن الحياة من أولها إلى آخرها إنما الغرض منها التسابق إلى العمل النافع والمباراة في إتقانه . قال تعالى : الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، فهل تجد بعد ذلك مستزيدا يطلب زيادة ؟ وبعد ذلك فكون الرهبانية خيرا منها الانتحار فذلك مالا أقره بحال ولا أوافق عليه — وكون ما انتفع به المترهب سرقة كالسرقة مادام هو لا ينفع فذلك أيضا ضلال — لأن السارق أخذ المال بدون رضا صاحب المال .

فإذا ترى في دين هذا شأنه قد وثق أتباعه نهائيا من كل ضلالة ارتكس فيها البشر قاطبة وإنه علي ذلك قد جاء به أمي نشأ في إمامين ما كان يدري

وما كان يدرون معه — ما الكتاب ولا الإيمان ؟ أفأتراه وحياً حتماً
ومصدره السماء ، ولا يتأتى أن يكون غير ذلك ؟

و حينما أقول السماء قد يتألفت منك الذهن . لأنك لا تفهم من السماء
إلا الشمس والمجرات وأنا كذلك أفهم ولا أعنى أن الشمس
والمجرات مصدره . بل أذكر السماء وأقصد العلو المعنوي الذي يتناسب مع
كريم شأن الله ، ولو كنت أفهم هذا الفهم لسكنت قد نسبت لله شيئاً قد
أنزه عنه ، كنت قد قررت له المكان وهو منزّه أن يكون له مكان ، فهو كما
هو منزّه عن أن يكون مادياً يُرى أو يحس بأحدى الحواس ، كذلك هو
منزّه عن الزمان والمكان ومن ثم ترى المسلمين ليس منهم من تصطح إلى أى
جهة من جهات السكون يبغي أن يعرف الله أين هو ، أو يتوهم أن له مكاناً
تماً — والمسلمون وإن كانوا في الدعاء يتوجهون إلى السماء فليس على اعتبار
أن الله ثمت ؟ كلا . إنما يتجهون إلى جهة أُمروا بالاتجاه إليها لتوحد
وجتهم كما أُمروا بالاتجاه إلى الكعبة في الصلاة لمثل هذا التوحيد .

وبتقرير أن الله ليس له مكان يهوى اعتراض غوستاف لوبون أمام
متانة هذا الدين لا يناله وإن نال سواه حين قال : (إن العلم مع أنه لم يترك
أثراً للآفة في البقاع التي ارتادها لا يستطيع أن يثبت للمؤمنين أنه لا شيء
في البقاع التي لم يَرُدّها بعد — فمن خلال هذه البقاع غير المضروقة أتراه
أشباح يتخيلها ذوو الإيمان) . انظر ص ١٤٨ من كتاب الآراء والمعتقدات
لغوستاف لوبون — معرب ،

واعلمك حين تسمع هذا التنزيه المطلق عن كل شيء هو دليل الوجود في

نظرك : قد تفهم أن هذا التنزيه يعنى العدم ؛ وتعجب كيف يتأتى للمسلمين أن يحكموا بوجوده ، وقد تهاوت أمام أعينهم مظاهر الوجود التى تفهمها ؛ وكيف يتأتى لهم أن يقتنعوا ولا حيلة أمامهم للاقتناع ، وأقول كلا : تدبر بقية الآية التى أسلفت ألم تر أن الله وقد قال : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) قد أتمم الآية فقال : (وهو اللطيف الخبير) فهو وقد خرج بالتنزيه عن دائرة المادية ؛ أراهم الباب الذى يتوصلون منه إلى الحكم بوجوده ، فهو اللطيف الذى يتمم مشيئته بحالة خفية لا يدرك مصدرها — الخبير الذى يجعل المشيئة تجري فى مجاريها تنهج نهج الحكمة والمصلحة ؛ (ولعل القيد الأخير لإبعاد شبهة المصادفة والفوضى) وحسبنا ذلك دليلا عليه ، حسبنا أن نجد النعمة تتراعى علينا من جهات الكون ، والتدبير الأكيد الذى يعمل لتصل إلينا هذه النعم فعلا ، فنحكم بوجود المنعم المدبر بحالة جدية لا استطاع وجودها . ثم بعد ذلك ما علينا أن نعرف المنعم المدبر على أى حال هو ، ذلك لا يعنى فى كثير ولا قليل — وإنه لسخف من السائل إذا أعطى سؤاله ثم وقف يتسائل ؛ هل صاحب الفضل طويل أو قصير ، وأيضا أو أسود . ولقد كان لعلماء المسلمين بفضل ذلك وقاية مما ارتطمت فيه أديان أوربا إزاء الاكتشافات العلمية الأخيرة من دورة الأرض إلى الجاذبية التى بفضلها تتمتع النجوم والأرض والسيارات فى مواقعها ، إلى النشوء والارتقاء . إن كان ! لأنهم كما يبدو . كانوا يتوهمون أن هذه العوالم وهى من آثار صنع الله فهو لابد مباشر حركتها بنفسه يدير حركة الشمس أو الأرض بيديه ويرفع الأرض والنجوم بحامل منه يحس مثلا وكذلك الحال فى

النشوء ؛ فلما جاء العلم يقول بما يفيد نفى هذا الوهم انزعجوا كأنما توهموا
ثانية أن ذلك يعنى إبطال عمل الله .

أما المسلمون فقد اكتشوا كروية الارض ودورها وعرجوا على
نظرية التطور وسواها وليس فيهم من تشكك في شيء أو ارتاب أو انزعج
أى انزعاج لأن ذلك هو المنتظر أن يكون في سير الأمور ، وإلا فهل الله ماذى
يحسبون به وهو يعمل . كلا . لذلك كانوا يعتبرون هذه الأمور من حكمة
الله تعالى وحسبنا .

البرية فطرى في النفوس

هذا والدين له مبدأ متغافل ، في كل نفس بشرية هو انطباع الانسان
على حب من أحسن اليه والشكر له والثناء . فأما انسان وجد ترادف النعم
عليه وكان محبتها يشعر بأن مصدرها عاقل ، يدرك ما قدم ، ويقصد تقديمه
ويعنى من قدمت اليه ؛ لا يسعه إزاء ذلك الا الترحيب بالنعمة والشكر
لمهديها ، يقدر فيه هذه الدوافع الطيبة الرحيمة التى حدثت به الى تقديم ما قدم
اليه ، يضاف الى ذلك ما طبع عليه الانسان من محاولة تفهم الأمور التى
تصطدم به ، أو حتى التى تجرى من حوله ، فالانسان اذا جاءت النعمة
لا يشغله الفرح بها عن التفكير في مصدرها ، وكيف جاءت ومن أى جهة
جاءت ، واذا أصابه أذى لا يشغله ألمه عن التفكير في سببه ونشأته .

والوجود من حول الانسان مخلوق له ؛ ومقدر بحسب احتياجاته ؛ وقد
سدت مرافقه جميع وجوه عوزة وافتقاره . وهو نفسه مشتمل على
ما لا غنى عنه أبداً من حراس وجوارح وغيرها .

ولا يخلو الوجود من أزمات تزيه تيممة ما حوله وتذنبه إلى مدى افتقاره إليه من ظمأ يتهرأ أو واره يعرف بعده فضل الماء ، أو جوع يستعر أحشائه يدرك معه ضرورة الطعام ، أو ظلمة تغشى عيذه فيتخبط فيعلم الحاجة إلى الضوء واستعمال البصر وهكذا .

أفعجيب إذاً أن يكون الانسان رُجد متديناً؛ ولم يكن إلامتديناً في أقدم عصوره وأبعد عهوده ؛ وأن يكون متديناً للآن ؛ وسيبقى متديناً ما بقي له وجدانه وعقله ؛ وما بقي الوجود بحالته .

أرني كيف يمكن أن يتخلل الانسان عن الدين ؟ أرني كيف يمكنه أن يجد النعمة تأتيه تحمل فضل مهابتها ثم يستطيع ألا يفكر فيه ولا يعترف بفضلها . إن ذلك لا يكون مطلقاً شأن الانسان .

لا يكون ذلك شأنه مهما تلبس حسه ، وانحطت مداركه ؛ ولن يكون شأنه إذا اتسع عقله وزاد علمه ولطف حسه وأرهفت مشاعره — بل ذلك يكون أولى به في هذه الحال ، وما لنا والاستنتاج ؛ والواقع الذي انطبع على صفحة الوجود هو ذلك .

كان الانسان متديناً قبل أن يكون له علم أو فن أو مخلوق ؛ وإلى الآن ظل متديناً ؛ وكلما ازداد علماً بالوجود ، وبجلال الوجود ، وبآلاء الوجود ، وبحكمه الوجود ، كلما ازداد إعجاباً واعتباراً وحمداً وثناء وإجلالاً وإكباراً وكلام أساطين العلوم السكونية شاهد عدل على ما أقول مما جعلنا ندرك تماماً معنى قوله تعالى : إنما يخشى الله من عباده العلماء .

نعم قد مرت بالدين أزمات في بدء النهضة العلمية تفهم أن الناس نفروا من الدين بل وانصرفوا عنه ؛ وذلك ظاهري فقط بدليل عودتهم اليه . إنما سبب هذه الأزمات هو ما قام به رجال المسيحية من وضع العراقيل في سبيل العلم ومحاولتهم إسكات صوته وذلك غير ممكن أن يكون لأن حاجة البشرية إلى العلم كاجتها إلى النظر الذي تبصر به ، بل والماء الذي تحيا به .

وزاد الطين بلة ما ادّعوه من أن ما يقول العلم به مخالف لما في كتبهم المقدسة . . كيف ذلك - يا للعجب ؟ إن حقائق العلم مما لا يمكن تجاهلها أو الشك فيها ؟ فكيف بالكاتب المقدسة تقول بالموجود غير موجود ! ما بالها إذا ؟ هذا ما يدعّر إلى الريبة فيها ولا شك ، وزادت نقمة العلماء على رجال الدين لما روّعوهم به من حوادث فضيحة تقشعر من هولها الأبدان .

لأعجب وقد زالت سلطة الكنيسة وصارت القوة بعد ذلك للعلم والعلماء . أن خلّ العلماء ينظرون إلى رجال الدين نظرة المقت ويَنظرون إلى الدين نظرة الاستخفاف . والمسيحيون هم الذين جرّوا ذلك لأنفسهم وحملوهم على الريبة بكتبهم ، فما داموا وهم العالمون بالكاتب والناطقون بلسانها يقولون أنها تخالف الواقع . . إذا فالشك في جانبها هي ؛ والواقع لا يكذب أبداً ؛ فمن تلك العثرة وُجد المبرّر للنفور ؛ ومن قسوة رجال المسيحية زادت حالة النفور وذلك ما أوحى بهذا الانصراف المؤقت المذكور وقد قال في هذا الشأن الأستاذ العلامة الكبير السر أوليستر ليدج : « لا يزال كثيرون من رجال العلم معادين للعلوم الدينية بسبب تطرّف أصحابها الذي عانى أسلافنا الشيء الكثير منه »

ولما كان الدين كما قلنا مبدؤه فطرى فى النفوس وإيحاءؤه كونى وجد من قبل المسيحية والمسيح ومن قبل الرسل أجمعين ، لما كان ذلك هو الحال ؛ فلا هجب أن بدأ الناس بعد أن سكنت حرارة غضبهم أن عادوا إليه زرافات ووحدانا يمدون فى مناره هاديا ؛ وفى رحيقه لظما القلوب راويا ؛ وفى جواره يستمعون إلى منطق الوجود وحكمة الوجود وفضل الانسان ومآل الانسان - فلا تبقى فى نفوسهم بعد ذلك حاجة -

إن الانصراف الأول يشبه ذلك الغضببان الذى أضرب عن الطعام حنقا على مُقدمه ؛ أو امتنع عن زوجه لأنها تسيء إليه ؛ وظل هكذا ممسكا ؛ ولكن إلى متى ؟ إن حاجته إلى كل منهما فطرية لا يمكن الاستغناء عنها أبداً فسيستمر الاضراب يوماً أو يومين أو أكثر ولكن العودة ثانية أمر مقضى به إما إليهما أو إلى غيرهما من نفس النوع - وذلك ما لا يتأتى سواه - وإليك أقوال العلماء فى هذا الشأن :

قال العلامة السر (أوليفردج) رئيس مجمع ترقية العلوم البريطانى لسنة ١٩١٣ فى خطبة الرئاسة : (الدين الحق أصوله راسخة فى أعماق النفس وفى حقائق الأشياء) (١)

وقال (هكسلى) الحكيم الكبير : (الدين والعلم كتوأمين متلاصقين فصلهما يؤدى إلى موتهما ، فإن العلم ينمو متى كان دينيا ؛ والدين يثبت متى كان علميا ، وأهم آثار الفلاسفة أنتجت أفسكارهم بسائق دينى فى الحقيقة) وقال (باقون) إمام الفلسفة الحديثة : (القليل من العلم يبعد من الله

(١) من كتاب « العلم والعمران » للاستاذ قزاد صروف

والكثير منه يقرب منه) وقال (هربرت سبنسر) في كتابه التربية والتعليم
(العلم عدو الأوهام المتداولة بين الناس باسم الدين ولسكنه ليس بعدو
لدين الحق الذي كثيراً ما تحاول هذه الأوهام ستره عن الأبصار ؛ نعم
يوجد شيء من العلم المتداول يظهر عليه مناقضة الدين ومعاداته ولكن هذا
أيضاً من قبيل العلم الذي أكثره وهم ، إذ العلم الحقيقي الذي يخلص وراء
حقائق الأشياء لا يناقض الدين كما قلنا)^(١)

ذلك ما يقوله رجال العلم أنفسهم الذين قلبوا الأمور وعرفوا أصلات
الأشياء بعضها ببعض ؛ وأدركوا عللها ، وعرفوا التواميس التي تسير عليها فهل
هم قالوا كما تقول يا من لا تستطيع أن تدعى أنك بلغت مبلغهم وعرفت
معرفتهم ؟ كلا . . بل بالعكس هم يقرون بالدين ويعلنون اعتراف العلم به
بل ويقولون إن العلم خادمه يزيل عنه الأوهام التي ألصقتها به دعائه الأغبياء
ليبقى للناس جوهره الصحيح الحق الذي لا شك فيه .

ولا يفسون أن يذكروا فضل الدين كذلك على العلم حيث هو يشهد
أزر رجاله وينفع فيهم ويثبت في نفوسهم الحاسة اللازمة للاضطلاع بعبد
البحث الخطير .

فما ظننتهما عدوين - هما في الواقع صديقين حميمين وأخوين لا يمكن
التفريق بينهما .

بل لقد اعتبر العلماء هذا الإلحاد الذي أنت فيه مرضاً من الأمراض
التي تتطلب العلاج ، وإليك ما قالوه في هذا الشأن أيضاً :

(١) من كتاب المستقبل للإسلام ، لبيكرى

قال « اسكيروول » : (الزندقة حالة مرضية) وقال : « رينان » : (يمكن أن ينعدم كل شيء ولكن يستحيل أن ينمحي الدين أو يتلاشى) وقال « بسمارك » : (لا حياة ولا سعادة ولا اطمئنان في الوجود إن لم تكن هناك أديان يعتنقها الانسان ويؤمن بها ويعمل بتعاليمها) (١) وما إن وصلت إلى هذه النقطة حتى رأيت الرجل على حالة لا توصف باليقظة ولا بالنوم بل كان بالذاهل أشبه وكأنه كان فوق بناء فانهار به ، فتركته فيما هو فيه لا أنبهه عساه يدكر وخرجت دون أن أحياه على أن أعود إليه في اليوم التالي ..

سبحة القوة والمادة

قال الرجل في زيارتي له للمرة السابعة : قد سمعت ماقلت ، والآن فاسمع لما سألتني عليك وسأرى ما عساك تقول فيه - قلت قل :

قال : إنا إن ننظر نجد أن رزقنا وطبنا ووسائل حياتنا وأسباب قوتنا التي بها نروح ونغدو - من محيط هذه الأرض التي نسكنها - ولا شيء يأتيها من وراء ذلك أبداً . ثم إنا إذ نتدبر نجد العوامل للفعالة في هذه الأشياء إيجاباً وإهداماً وإقبالا وإدباراً هي القوى الطبيعية نفسها التي نعرفها من حرارة وضوء وكهرباء وهكذا - ولا أدري على ذلك كيف يكون لعمل الله موضع في الأمر مع هذه القوى وهي كافية - بل ولا نرى أمامنا سواها في مجريات الأحوال أبداً ، فما من - حدث يحدث أو أمر يكون أو نعمة

(١) من مقال للإستاذ مرسى علي نوفلي بـ « رينان » : « أفلاسيق الملجدين » ، في مجلة الشبان المسلمين

تتجدد أو نعمة تنزل إلا ولها أسباب نعرفها ونحددّها ونعيها حتى الموت وحتى العُمر ، وحتى الطول والقصير ، والحب والبغض ، والذكاء والغباء وكثرة الثمرات وزيادة الغلات - ذلك ما نراه ولا نرى سواه - ولا أدري ما هي وجهة المؤمنين في هذه المسألة التي هي مشكلة المشكلات .

قلت : إنك تعني أن حاجاتك وهي موفرة في الأرض ، والقوى التي تؤثر في أحداثها موجودة فيها والحوادث تمر أمامك سراعاً يتلو بعضها بعضاً ويؤثر كل منها في وجود ما بعده - فذلك كاف بل ولا سواه يكون - ذلك ما توهمته - وذلك هو مضمون هذا السؤال .

وإني قد اعتدت في مناقشاتي أن أعمد - أول ما أفعل - إلى تحسس الشبهة التي تريدُ علي ؛ وأجتهد أن أتصورها كما تبدو في عين مقدمها لأحسن باحساسه وأشعر بشعوره عماى أعرف من أى الجهات هو .

فلما فعلت ذلك بشبهتك الحاضرة - وجدت أن الأمر لا يستدعى هذا الجحود أبداً ولو فهمت الأمر كما تفهمه .

ذلك أن هذه النعم ما دمت أراها - وهي أشتات لاصلة بينها - قد تجمعت في المحيط الذى أنا فيه ، وتنوعت بحسب احتياجاتى لتسدّها ، وتكيفت في كمّيّتها وكيفيّتها بحسب ما أبغى لا تزيد على ذلك ولا تختلف عن ذلك - إن هذه النعم وشأنها هذا الشأن - لا تجعلنى أسكت وأكتفى ، بل بالعكس تدعونى لأتفكّر وأتساءل ، وأبحث عن المنعم المدبر والبرّ الرحيم .

وإني أدعوك أن تُتلقى بالاك معى ؛ هيك تركت ولدأ لك في مكان حتى تعود إليه - أمّا تراك عن أجل المحافظة على حياته تترك له كل ما يحتاج إليه ؛

لا يتسامح بعده عن شيء ، بحيث لا يفقد حين تغيب عنه إلا وجهك ؟
ذلك والله ما فعله دائماً بكل شخص تركه في جهة ليس له أحد فيها .
حتى السجين المذنب الذي لا يريد موته — ترانا نهيم — له أسباب الحياة في
سجنه فهل عساك ترى ولدك أو سجينك وقد وجد في غرفته المقفلة عليه
أسباب الحياة كلها . يسكون ذلك دأعيه إلى أن يفهم ألا فضل لأحد فيما
يجده بين يديه ؟ هذا عجيب !

وهذه القوي التي تراها تعمل دائبة لخير الانسان تمده بالحرارة
والغذاء وتنضج له الثمار ، وتقدم له الماء الصالح وهكذا — هذه من ضمن
تلك العناية لأن المدّة ليست قصيرة ، فلا بد أن يجد ما يهيئ له جديداً
بدل الذي مضى وإلا هلك .

وكون الكون قد صار بحيث يستطيع الاستقلال بنفسه يقدم
لك المنفعة لا يحتاج إلى شيء غير ما فيه لتقديرها — فذلك أثر من آثار التدبير
الحكم والفضل الكبير .

إنني لا أكون قد دقت المسمار في الحائط إلا إذا صرت إن أُرعد عنه
يظلّ في مكانه حيث تركته ، أما طيلة ما كان قلقاً يحتاج يدي لتسنده فما
أكون قد وصلت إلى غرضي من دقّه .

وصانع الساعة لا يكون قد أتم صنعها إلا إذا صرت أراها تعمل لي
لا تحتاجه ، أما طيلة ما أراها إن أُرجم مكانها أراها تقف . فذلك دليل
على أنه لم يفعل شيئاً ؛ ولذلك أظل معه حتى يصل إلى هذه الغاية ، وكل مثل
ذلك في كل آلة وأداة ، إن الوجود ما بدا في نظرك تافهاً علي جلالته قدريم

وعظيم تدبيره وسمو حكمته ووفرة خيره ؛ إلا لأنك تصورت ما يواتيك من النعمة فيه قد جاء اتفاقاً ومن غير قصد كما إذا نزل قوم مسافرون بليل في مكان ما ؛ فلما أصبح الصباح الصباح بهم وكان القطر حاراً والفصل صيفاً مارحهم من وقدة الحر فيه إلا حائط كانوا قد نزلوا بجواره على غير قصد منهم — فصار الجدار يقيهم لفتح الحر ويسمح للنسيم . ثم التفتوا فإذا بماء جدد يتدفق في قناة ممتدة في ثنايا مزرعة هنالك ، فشكروا المصادفتين ، وحمدوا الفرصتين — وظلوا حيث هم ناعمين بالظل وناعمين بالماء لا يرون لأحد قبلهم يداً .

فالحائط كما فهموا إن هو إلا بقايا بناء قد تهدم معظمه وبقي هو . وما الماء إلا ماء المزرعة أخذوا منه تبعاً للزرع — فلا فضل لأحد في تقديمه إليهم حتى يستحق شكرهم .

إني أوافقك على الجحود ، لو كان الأمر هكذا .

ولكن افرض أن أحد أولئك المسافرين قد انزاح عن مستقره ليريق الماء . وفيما هو يتجول حول الحائط وإذا به يجد مكتوباً عليه بالخط العريض : هذه مُطالمة المسافرين — على الرعاة أن يعتنوا بتنظيف ماحولها ، وفرشها بالحشائش اللينة النظيفة ، ثم عليهم إذا وجدوا المسافرين قد نزلوا منزلهم من المطالمة أن يسرعوا بإطلاق الماء ليرتووا ؛ وطيلة ما بقوا فالرعاة مسئولون عن أمنهم وحمايتهم ، وعليهم كذلك أن يمدوهم بالمعونة الممكنة .

قرأ ذلك صاحبنا فتغيرت صورة المسكان في نظره في الحال ؛ وأكده صحة ما قرأ أنه وجد المسكان نظيفاً فعلاً ؛ ودفروشاً فعلاً ، وأن الماء الذي

أتى - ما أناهم إلا عتب نزولهم ؛ وأنه وإن كان آتياً من وسط الزرع إلا أنه امتد حيث لا زرع .

أفما تراه في الحال ينقلب من الوحشة إلى الأناش ؛ ومن النفور إلى الألفة يراه ضعيفاً كريماً لا شريداً متطفلاً ، ويجد الحائط قد أقيم من أجله ، والماء قد أطلق له وصحبه خصيصاً ، ويجد العسلة التي تربطه بالرعاة في التو والساعة .

ثم هو في الوقت نفسه يمتد غاطره إلى ذلك القلب الرحيم الذي أظلم المسافر في الضاحية وسقامه في المهمة القفر ؛ وأمنه في المكان المخوف الموحش ومدّ إليه يده ممثلة في يد رعاته لتعينه ؟

ألا إن قلباً لا يخفق بحب الرجل في الحال هو قلب غير طبيعي . إني أرجو أن أبرهن لك بما لا يدع مجالاً للشك - أن الوجود يحمل الصورة الثانية ولا يحمل الصورة الأولى .

وأرجو أن تتذكر ما سبق أن قلته لك في شبهة الأسباب الظاهرة من أن الهواء الذي يحيط بكرتنا الأرضية لا يمتد إلا إلى المدى الذي يمكن للأحياء أن يصلوا إليه ثم ينقطع ، وأنه لا وجود له إلا في بيئتنا ، وأن الألفة التي جمعت بين الأكسيجين والأدروجين على نسق خاص وبنسبة مقررة فتكوّن الماء بحالته التي لا يناسبنا سواها هي موجودة من أجل ذلك ولولاها لاختلف التركيب فهلك الأحياء جميعاً . إن درجة الملوحة في البحر الواحد تختلف في بعض النقاط منه - عنها في النقاط الأخرى ، بسبب شدة الحرارة في بعض الجهات ، وسرعة التبخر تبعاً لذلك ، مع أن

الماء متصل . فكذلك كان الهواء يكون لو لم يكن حارس .
وإن في خلوه الماء من حافظ يحفظ نسبة الأملاح فيه حيث لا ضرر
ينجم عن تغييرها ، ووجود هذا الحفظ في الهواء حيث الهلاك يكون لو لم
يكن — لحكمة ظاهرة وتدير أ كيد . وقل مثل ذلك في حركة الأرض
واستخلاص الماء الصالح للشرب . والحكمة والتدبير المصاحب لكل
منهما وهكذا .

وبعد ذلك أقول : اطلأنا سمعناكم تقولون الأسباب الطبيعية والقوى
الطبيعية ، إن ذلك خطأ في التعبير ، ولو راعيتهم الصلة بين اللفظ ومعناه لكان
جديراً بكم أن تقولوا الأسباب الوظيفية والقوى الوظيفية . ذلك أن هذه
كلها مهيأة ومحورة لتؤدي غاية خاصة قد كيّفت بكيفياتها وصيغت بحسب
ما تتطلب .

إن الجاذبية الأرضية وجدت لضرورة ملحّة تقتضيها — فلولاها لنهاوى
من وما على الأرض حتماً في متاهات الوجود .

وأنت تعلم أن الأرض لا تستقر على حال — فمن كان على هذه الجهة
— لا يلبث أن يكون هنالك في الجهة المقابلة — يتكرر ذلك كل أربع
وعشرين ساعة مرة . ولعله يُفسد عليك هذه الحقيقة المدوسة ماتراه من أن
كل الكواكب والسيارات والشموس والنجوم بل وكل الأجسام المادية
جميعاً لها جاذبية أيضاً . ولكن هذه الجاذبية في هذه الأشياء — كما يقرر علم
الفلك وعلم الطبيعة — ضرورتها القُصوى التي تستدعيها هي الأخرى — فلم
يكن شيء لغير سبب — وكأنه لولا هذا السبب ما كان يكون .

ولكى أثبت لك أن الخصائص والصفات توجد حيث السبب الموجب لوجودها وتنعدم حتى تخرج على المؤلف متى كانت مهمتها تقتضى الخروج على المؤلف - أسوق لك أمثلة الكائنات الحية .

أفما ترى أن الغذاء والهواء لازم من لوازم الحياة - حتى ليعمد هذا اللزوم بديهياً لا يتأتى سواه ؟

ولكن انظر سرعان ما ينغمس هذا اللزوم عن الأمور إذا اقتضت المصلحة والوظيفة التي ستؤديها هذه الكائنات الحية هذا الانقسام .

في البيكتريا نوع يعيش من غير الهواء بل ويقتله الهواء إن تعرض له ولا ينمو ويتكاثر إلا في الأجسام الميتة ، ولا يتكاثر في الأجسام الحية أبداً وإن نبحث عن السر في هذا الشذوذ ؛ نجد هذا النوع خاصاً بتحليل الأجسام الميتة وإحالتها إلى مادة صالحة لتغذية الجيل الجديد من النبات . ولما كانت هذه الأجسام الميتة تكون أكثر ما تكون تحت أظباق الثرى حيث لا هواء - فقد رأيتها قد هيئت لوظيفتها تماماً .

ومن البيكتريا نوع آخر لا يعيش إلا بالهواء كما هو شأن الأحياء جميعاً ولا ينمو ويتكاثر إلا في الأجسام الحية وله هو الآخر عمله ووظيفته التي تتطلب أن تجرى حالته على المؤلف في الأحياء .

وفي البيكتريا نوع ثالث يعيش في الحاصلين جميعاً في الهواء وفي غير الهواء وعمله متصل بالنوعين السابقين لذلك أعد ليشاركهما في بيئتهما معاً ؛ أفما ترى النوع الأول مثلاً قد وُجه ليؤدي وظيفته التي سيقوم بها .

فهو سيفرغ من الهواء لأنه يهلكه ، وسيبحث عما يعيش عليه من الأجسام

المية التي لا يعيش على سواها ؛ وهنالك سيستخلص أسباب حياته وفي الوقت نفسه يكون قد أدى الغرض المصالحى العظيم الذى وُظف لأدائه ، وأُوجد من أجل أدائه ؟

أى فرق بين هذا التوجيه وبين ما يعمل به المهندس الميكانيكى وهو يدور بهضبان السكة الحديدية لينتجه القطار إلى حيث يريد المهندس ، ويمهد له السبيل ليسير على الشريط الخاص الذى يريده بالذات ويباعد بينه وبين الأشرطة الأخرى حتى لايسير عليها ؟

والحجوب والبدور تشتمل على أجنة حية لاشك فى حياتها ، حتى إنها لو تعرضت للحرارة الشديدة ترى هذه الأجنة تموت ولم تعد تُنبِت مطلقاً — ومع ذلك ترى حياة هذه الأجنة تستغنى عن الهواء تماماً ؛ فإن توضع حجوبها وبدورها فى زئبق مثلاً أو كحول صرف لايسمح مطلقاً بوصول الهواء إليها ثم تتشلها بعد عدة سنين . تراها تنبت تماماً مُعلنة بذلك عن استمرار حياتها وأنها لم تمت بعد ؛ وأن انقطاع الهواء عنها لم يُضرها شيئاً . إنها بذلك مُعدة لما تتطلبه وظيفتها المستقبلية .

وجميع الأجسام جامدة وسائلة ، تتمدد بالحرارة وتنكش بالبرودة ويطرد التمدد ويطرد الانكماش تبعاً لزيادة الحرارة وقلتها من أول سعر يزيد أو سعر ينقص حتى آخر الشوط زيادة أو نقصا .

لو سار الماء فى تمدده وانكماشه على هذا النظام العام الذى لكل الاجسام لوقعت كارثة ذلك أن الماء وهو يتجمد فى المناطق الباردة — فقد كانت كشافته النوعية تكون أثقل من الماء السائل فيغوص فيه ؛ وكلما تجمد الماء

يغوص فيه حتى تمتلئ الأعماق ، وفي ذلك هلاك للأحياء المائية جميعاً .
وليس ذلك فقط - كلا

فإن الدفء إذا جاء ، وأخذت أشعة الشمس في إذابة الجليد لا تستطيع
النفوذ إلى كل الجليد المتراكم فيظل معظمه لا يذوب وفي ذلك تعطيل دائم
للملاحة في تلك المناطق باستمرار . ويُقدّر العارفون بأن استمرار الثلج
ببرودته هكذا في تلك المناطق قد يؤثر في مياه المناطق المجاورة حتى تعم
الكارثة .

ما العمل إذا ؟

الله تعالى لا تحكمه سنة الوجود ؛ بل هو الذي يُبرئها ويطلقها حسب ما يشاء
فليجعل في الماء سنة في التمدد والانكماش مخالفة ، حتى لا تقع تلك الكوارث
ماذا عمل ؟

ترك الماء ينكماش بالبرودة ويتمدد بالحرارة مثل باقي السوائل والاجسام
فيما فوق الدرجة ٤ .

ولكن فيما هو دونها جعله يتمدد بالبرودة وينكماش بالحرارة - تأمل
الشيء المدهش !

لهذا الشذوذ البسيط فائدة هامة قد تفادت الاخطار التي قلناها ، فلما
مادام سيتمدد بالبرودة فيما انخفض عن الدرجة ٤ وسيبدأ تجمده من
ذلك أيضاً فجليده سيكون أخف من الماء فيعوم ، وكلما تجمد الماء صار
أخف من الماء نفسه فيعوم ، فنظال أعماق البحار والأنهار فيها ماء حتماً
تعيش الحيوانات فيه ، خصباً إذا لاحظنا أن السطح الجليدي الذي تكوّن

أهل الماء سيحفظ الحرارة نوعاً على الماء أسفله فلا تنساق درجاتها في الانخفاض .
وإذا جاء العصف أمكن لحرارة الشمس إذابة الجليد حيث هو في هذه الحالة
قد صار محدوداً وطافياً معرضاً لها .

والآن في النبات تراها تتحول الفسحة كرا إذا تطلعت مصلحة الشجرة
ذلك . ولكنها تعود فتتحول السكر نشأ ، إذا اقتضت مصلحة الشجرة هذا
الامر الأخير .

إذا لا شيء لشيء بطبيعة ثابتة لا يتأتى سواه .
وإني أستطيع أن أريك بعملية بسيطة كيف تتغير خصائص الأشياء
بل ويأتى غيرها عجباً غريباً مذهشاً .

الحديد إذا سخن ثم برد في هواء سائل تراه يصير هشاً كالزجاج
والرماس إذا برد في الهواء السائل يصير مطاطاً ، والقطن والجلد وقشر
البيض إذا غمست هذه الأشياء في الهواء السائل ثم عرضت بعد ذلك للضوء
برقت بريقاً قوياً في الظلام .

إذا أين الصفات الأولى لهذه الأشياء ؟

والأمثلة كثيرة لا تكاد تنتهى وحسبنا ما ذكر ومنها تعلم أن هذه
الأسباب التي نراها تعمل في الوجود ، والقوى التي تصاحبها ، إنما هي مهبأة
لهذا العمل . علينا أن نلمح فيها أثر الصنعة وطابع التكيف ؛ لانقف
جامدين نقول ؛ انها طبيعة الأشياء ثم لا نُبدي حراً كما ؟

انه لا فرق بين هذه الأسباب العاملة وبين أدوات الساعة التي لانقف
جامدين مطلقاً أمام ترسها المسمّن الذي يتعشق بسواء ليحركه بحركته

فالجيب من باب واحد ؛ فكما لا نستطيع أن تناسب للتّرس تسدّته لأنك تعلم أنه لم يكن هكذا من الأول . فكذلك هذه الأسباب . ينبغي ألا تفهم أنها كانت هكذا ، لأنها لا تكون إلا هكذا . كلا .

وأزيدك تدليلاً على صحة ماقلت لك بأمر آخر عمومي قال به العلم أخيراً يكفيك مؤونة بحث كل سبب من هذه الأسباب على حدة .

إن البحوث العلمية الأخيرة تعني أن كل الأجسام المادية جامدة ومساللة بل وحيّة وميّنة كلها متحوّلة عن الادروجين .

وعلى ذلك فالذهب والحجر والتفاح والزجاج وتراب الشارع وهكذا كلها من أصل واحد . فماذا بعد ذلك نبغي ؟

إنه لاصفة إذا ذاتية لشيء من الأشياء أبداً .

فالحديد وصلابته ؛ والماء وسلاسته ، والهواء ورقته ؛ والنار ولذعها ؛ وخجر المغناطيس وجذبه ؛ كل هذه مستجدة ومصنوعة لتكون كما هي وكان يمكن أن تكون النار ماء والحديد هواء لأنها كلها مصنوعة من عجينة واحدة كما قلنا .

وما أرى المقام بعد ذلك يتطلب مزيداً بل ولا يحتمل مزيداً .

أي صورة من الصورتين إذا رأيت الوجود عليها ؟ لشد ما اتضح الحال . والوجود إذا وأسبابه العاملة وقواه خريجة يد صنّاع قد عملت في تكييف القوى والاسباب لتؤدي المهمة التي تراها تؤديها . فما نستطيع أن ننكره ولولم نره ، مادمنّا لا نستطيع أن ننكر أن للساعة صانعاً وإن غاب . على أنني لا أعني أن الإله القدير قد تخلّى عن الوجود وترك قيادته وتوجيهه

للاسباب والقوى ! كلا .

إن ظواهر الوجود تفيد غير ذلك ، إنها توحى بأنه حاضِر لا يغيب ،
ومدبّر لكل تصاريف الوجود باستمرار .

فالسكانات الحيّة تتوارد على مسرح الوجود لكل منها لونه الجديد
وخصائصه التي لم تكن قد بدت لغيره من قبل - فمن أين أتاه ذلك ؟ وعملية
الهدم والبناء دائبة - أفما يستدعى ذلك أن يستمر المدبر على تدبيره لا يترك
عرشه ؟

ولمّني أسمعك وقد رأيت هذه القوى العاملة التي لا شك فيها تقول كيف
يكون لعمل الله معها موضع ، كأنما فهمت أن ذلك يقتضى وجود مؤثرين
على أثر واحد ، لا يأسدى

إن وجود الله ، واحتياج الأمور لتدبيره مع هذه القوى وبالرغم من
وجودها هو كما يحتاج عمل الجنود العاملين للسلاح ؛ المباشرين للمعركة ؛
إلى تدبير القائد الذي يرتب الخطة ويدير القيادة ، وكما تحتاج القاطرة التي
تتحرك بالبخار ؛ وبالبخار وحده إلى السائق الذي يسبغ على حركتها سيجاً
التمقل ؛ ويجعلها تجري في مجارى الحكمة والمصلحة ؛ ولا شك أن جنوداً
يعملون ليس لهم قائد يوحد اتجاههم ؛ ما لهم الفشل ؛ ولا شك أن قاطرة
نزل منها السائق تهيم على وجهها لا تتجه إلى غاية وسيكون ما لها العطب .

والواقع أنكم قد اتخذتم من هذه النقطة شعوضةً تضللون بها الناس فأنتم
وقد رأيتم هذه القوى تعمل في السكون قلتم : انظروا . . فلا ألوهية كما
قلنا ؛ وما نجد غير المادة وقواها ؛ فإن قلنا لكم ما هذا ؟ إن الأمر يقتضى

الألوهية ويحتم الاعتراف بها . مع ذلك . قائم : ان ذلك يكون يوم أن نلغى
أفكارنا ، ونقول : إن هذه القوى لا تعمل ، وهى فى الواقع تعمل .

نقول لكم : الألوهية مع عمل هذه القوى ، وبالرغم من عملها موجودة
فتسمعكم تضحكون بملء الفم وتقولون : أو تحصيل حاصل هو ؟ كيف
ذلك ، ان النار وهى تنضج الطعام لا تستغنى عن الطاهى . والسفينة إذ
تحررها الرياح لا تستغنى عن الربان ، والقطار وهو يسير بالبخار لا يستغنى
عن السائق .

لاعلى أن أولئك يشتركون فى إحداث الحدث التى تحدئه القوى ؟ كلا
بل لأن لهم الهيمنة العقلية عليها ، ليسير الأمر مع المصلحة ؛ ثم لا يتخطى .
وإلا فلو تركنا الأمور لهذه القوى الهوجاء لاحترق الطعام وانقرت
السفينة ، أو اضللت بضلال الرياح لا تنتهى إلى غاية ، ولما كان القطار
— والبخار يسيره — يكون ضالا بضلاله ، لا يقف عند غرض ، ولا يؤدى
مصلحة — ينطلق انطلاق المقذوفة الطائشة حتى تنتهى قوته فيقف — ولا
مصلحة يكون قد أداها ؛ بل الواقع أنه يكون قد عاث فى الأرض الفساد .
وإليك نيوتن نفسه مكتشف قانون الجاذبية العام ، الذى به يُعلّل وقوف
النجوم والسيارات والأرض والشموس والأقمار فى موضعها ولا حامل .
هذا القانون كم أثار شكوكا ، وزلزل عقائد — لا شىء — إلا لسذاجة أصحابها
وظنهم أن الأمر سيكون كما توهموا — سيكون الله هو الماسك لهذه الأشياء بنفسه
ويُرى ماسكها وإلا فالأمر محير ، نيوتن نفسه صاحب الفسكرة ، ومكتشفها قبل
أن تخطر ببال أحد ، والمبرهن على صحة رأيه فيها حتى أخذت الناس بها — أفترأه

ألحد أو استراب ؟ كلا ! كان مؤمناً متديناً ولاهوتياً فاضلاً . وانظر إليه وهو يستخلص من قانونه هذا دلائل وجود الله وآثار تدبيره قال : (من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب ؛ لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبة العامة ، لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس ؛ فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس ، أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها) ثم قال : (ومن الجلي الواضح بأنه لا يوجد أى سبب طبيعى استطاع أن يُوجّه جميع الكواكب وتوابعها للدوران فى وجهة واحدة ؛ وعلى مستوى واحد بدون حدوث أى تغيير يذكر ، فالنظر لهذا الترتيب ، يدل على وجود حكمة سيطرت عليه . ثم إنه لا يوجد سبب طبيعى استطاع أن يعطى هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسباً دقيقاً مع مسافاتها بالنسبة للشمس ، ولما كز الحركة تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بين جميعها ، فلأجل تكوين هذا النظام مع جميع حركاته ؛ يجب وجود سبب عرف هذه المواد ، وقارن بين كميات المادة الموجودة فى الأجرام السماوية المختلفة ، وأدرك ما يجب أن يصدر منها من القوة الجاذبة ، وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وتوابعها وساتورن وجوبيتر والأرض . وقرّر السرعة التى يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مراكزها . إذا فقارنه هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظاما يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه . كل هذا يشهد بوجوب وجود سبب ، لا أعمى ، ولا حادث

بالاتفاق ولكن على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة :
ثم قال : ليس هذا كل ما في المسألة ، فان الله ضروري أيضاً سواء
لإدارة هذه الأجرام على بعضها : وهو الأمر الذي لا يمكن أن ينتج من
مجردة قوة الجاذبة ، أو لتحديد وجهة هذه الدورات ، لتتفق مع دورات
الكواكب ، كما يرى ذلك في الشمس والكواكب وتوابعها ، بينما ذوات
الأذتاب تدور في كل وجهة على السواء .

ثم قال : وغير هذا ففي تكوين الأجرام السماوية - كيف أن الذرات
المبعثرة استطاعت أن تنقسم إلى قسمين : القسم المضيء منها انحاز إلى جهة
لتكوين الأجرام المضيئة بذاتها كالشمس والنجوم ، والقسم المغمى
في جهة أخرى لتكوين الأجرام المغمى : كالكواكب وتوابعها كل هذا
لا يُعقل حصوله إلا بفعل عقل لا حد له (١)

فاذا كان ذلك رأى علماء الطبيعة أصحاب الشأن . فالعجب لكم يامن
لا تسمعون من الأمر إلا صدهاء أن تلحدوا بحجة هذه الاكتشافات نفسها
وإذا أضفت إلى ذلك ما سبق أن قلته - في مكان غير بعيد - من أن هذه
القوى المنشأة لإنشاء، ومُسحذة لتؤدي وظائفها ما دامت الموارد على اختلاف
أنواعها ، وتباين خصائصها ، أصلها واحد كما يقول العلم اليوم - والقوة
والمادة شيء واحد كما قالوا أيضاً -

علمت أن الأمر كله لله وأن لا فاعل سواه كما نفهم نحن المتدينين .
وهنا كنت رأيت الرجل قد غفا أو بدأ ، فتركته على أن أعود إليه في
اليوم التالي .

شبهة أعطى فكفر

قال الرجل في زيارتي الثامنة له :

والآن فانظر إلى حول الانسان وطوله — لقد صرنا نستولد من
الحيوان والنبات سلالات جديدة ؛ ونكوسن صوراً أجهل ؛ ومخلوقات أطول
وذكاء أشد ؛ وما كان الله ليترك لنا عرشه نتصرف فيه — وما كنا لنخلق
أحسن مما فعل ثم كل شيء نراه نعمل مثله حتى المطر استنزلناه من السحاب
صناعياً ، وحتى القمر عملنا لأنفسنا مثله يُنير لنا أميالاً ، والمرض استطعنا
إحداثه في الحيوان ، والاستيلاد — تصرفت في إيجاد وإعداماً ، فاستطعنا
أن نجعل العاقر ولوداً ، والولود عاقراً — وبالله إذا كان الله بصدد مشيئة
يريد إنفاذها في كائن — فكيف نغير مشيئته فيه ؟

وجارينا النبات فعملنا مثل نشأته وسكّره ؛ والأعضاء فأنجبنا مثل
بولها وكثرتها — فاذا وافقناك وفهمنا مثل فهمك والغينا أنظارنا وقلنا
إن النبات ليس هو الذي يعمل ما نرى ؛ بل هو الله . قلت لك :

أفما ترانا قد عملنا مثل ما عمل ؟ إذا — فهل على ذلك حول الله وطوله
قريب المنال هكذا ؟

قلت للرجل هذه الشبهة التي أوردتها يصح أن نطلق عليها اسم :

« شبهة أعطى فكفر واستغنى فاستكبر » ،

ذلك أن الله قد مكن للانسان في الأرض ليتحقق له معنى التكليف

فيجازي بعد ذلك وفق تصرفه بهذه المكنة التي أعطىها . قال تعالى : وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلبسكم فيها آثامكم .

وإني لطروب إذ أجد أن الحجج التي أُوردها هنا هي مسطورة في ديننا بنصّها وفصّها من يوم أنزل القرآن أي منذ أكثر من ١٣ قرناً ومن قبل أن تظهر هذه المكنة التي تُفنى الإنسان بها ، واغترّ بمكانه منها ، وكفى من أجهلها . أقول ذلك لئلا تتوهم أني أتصيد الحجة من هنا أو هناك وأتكلف الرد ؛ وأتمحل له . إن الإنسان خليفة لله في الأرض ، أعطى زمام النوااميس ، وأوتى على القوى — ينكشف له من مدى السيادة ، ومظاهر السلطان بقدر ما يوغل في المعرفة ، ويكتسب من العلم ، هذا هو المسطور في القرآن بالحرف الواحد وذلك ما شهدت به التجارب العملية . قال تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة وعلم آدم الأسماء كلها وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) (١)

لا عجب إذاً إن استطاع الإنسان مجازاة النبات في صنع النشا والسكر ، مادام قد عرف كيف يصنع النبات والنشا والسكر ، وأن ينافس الأعضاء في استخلاص البول والكمّول ، مادام قد عرف كيف تستخلص الأعضاء البول والكمّول ، وأن يحضر الأنسولين وإفرازات الغدد بمعرفة الطريقة التي تحضر الأعضاء بها هذه الأشياء ، وليس عبثاً هذا التمكين له ، فبفضله صار يستكمل حاجاته من هذه الأشياء إن عجزت الأعضاء أو النباتات لسبب ما أن توفيقها له .

(١) اقرأ شرح هذه الآيات في تفسير المنار الجزء الأول

صار الانسان بفضل ذلك أقدر على محاربة الامراض وتركيب الاسمدة
واستحضار النيتروجين وغيرد وناهيك بخير كل ذلك للبشر
وهذا التمكن الذى نراه للانسان فى التجميع—ل واشتقاقات الانواع
والتوليد هذا التمكن له مبدأ متصل بالغريزة الجنسية والحاسة الفنية أُعطى
الانسان ما أعطيه ليسد حاجتهما

ذلك أن الرجل يشتهى المرأة ؛ أكثر ما يشتهىها بسبب جمالها . وإنك
لتكون أمام امرأتين . وكل منهما صالحة لقضاء المأرب الجفسى . ولكن
إن تكن إحداهما جميلة . تراك أنشط لها . وأشدَّ انجذاباً . بل وتثور
رغبتك وإن كانت لم تكن .

وتكون أمام الثانية - فائراً صدوفا - قد انصرفت رغبتك ؛ وإن كانت
محتشدة قبلاً . هذه - أفطن أن الله لا يعمل لها ما يسدّها ؟ كلا .
إن لهذه الناحية غاية أكيدة عمرانية فإن المرأة الجميلة تطبع صوريتها
الحسنة التى راقمتك - فى أولادها - فكأنك تسعى وراء غرض أكيد
يستحق السعى .

ولاشباع هذه الرغبة . ترى جهوداً فى البشرية جمّة تصرف لتسدّها
هى فقط .

وما التفتن الذى نراه فى تنسيق الأزياء . وتصفيف الشعر . وتزجيج
الحاجب . وترخيم الصوت . وهكذا إلا ضرب على هذا الوتر .
فالخالق من ناحيته قد سهّل الأمر على الانسان ليجد حاجته من الرشاقة
وسواها . تلك الصفات التى هى فى نفس البنية الجسمية .

ولاشباع الحاسة الفنية في الانسان وميله الفطرى إلى الجمال وسَمِعَ الله عليه ومكّن له فاستطاع أن يستولّد سلالات جديدة من الحيوانات والنبات ويحصل على اشتقاقات جَمَّة في هذه الأشياء في لونها وزينتها وطورها وقصرها ونحافتها وسمتها وهكذا - حصل على أزهار ذات ألوان حسب ما يشتهى وصفات وفق ما يبغي ، كما حصل على الحمام المطوق والقلاب والزاجل ، وقل مثل ذلك في السلالات المتعددة من الخيول والكلاب وغيرها - مكّن الله للانسان هكذا حتى تكون مقتنياته كما يشاء . إن الانسان لديه للجمال ورغبته في الزينة تراه لا يخلّص منها حتى سائطه وبابه ونوافذه وأدواته وآلاته وأوعيته وكل ما يملك ، ولربما اقتضى تنسيق الباب وزخرفته من الجهود وصرف الطاقة أكثر مما تطلب صنع الباب نفسه من ذلك .

إن تلك التوسعة التي أُعطيها الانسان في هذه الأشياء ليحصل منها على مصالحة المتنوعة ورغباته المتباينة - لا يشبهها إلا ما يجعله صانع (البرجل) في برجله فيقدمه للناس قابلاً للضم والفتح فيستطيع الانسان بفضل تلك التوسعة التي يجدها أمامه أن يرسم به دوائر متفاوتة في الاتساع والضيق لا يضبطها حصر . ولولا ذلك لزم له عشرات من البراجل لتؤدي ما يؤديه البرجل الواحد . وقد لا تقوم مقامه .

ولعل هذه الناحية هي التي لفتت نظر (دارون) و (لامارك) من قبله فأوغلا فيها يظنان أنهما قد هدّيا إلى صراط مستقيم . حتى طلعا أخيراً على الناس بنظرية التطور وأصل الأنواع - يختلفان بهض الشيء في المبادئ . ويتفقان في النتيجة .

وانخدع الناس بهذه التتخورات التي تتراعى لهم في صور الكائنات الحية نتيجة للتربية فصدقوها - وجاء الماديون فظنوا الكائنات كالعجينة الرخوة تشكلها الأحداث ، وتقلبات الأحوال ، كان الأمر فوضى ، لا موضع للتدبير فيه وكل ذلك ضلال وخطأ !

هذه التوسعة للأغراض التي قلناها ، وبقدر هذه الأغراض لا يزيد عليها ، آية ذلك أننا إن نحاول أن نوسع الخطأ في هذا السبيل - فنعمد إلى التوليد بين الحيول والخمير مثلاً . نرى النتائج بغالاً لا تتوالد - لا ذكرانا ولا إناثا . أليس ذلك سباج ؟

وكذلك الحال لو أردنا التوليد بين الكلب والذئب حيث ينتج (الديسم) وهو لا يتوالد . وقل مثل ذلك في (البخق) المتوالد عن الابل الفالج والعراب . و (السمع) المتوالد بين الضبوع والذئبة وهكذا (١)

وإن نحاول أن تتجاوز الحد المحدود في العطاء - فنلغى أشياء جوهرية في الانسان والحيوان - نجد الأمور لا تستجيب لنا . ولو دأبنا على ذلك قرنا وأجيالا .

إن المسلمين دأبوا على الختان طيلة ما يقرب من أربعة عشر قرنا - لا يعرفون من ذلك ذكراً ولا أنثى - فهل ترى الأمور استجابت لهم وجاءت الأولاد لا تحتاج إلى الختان ؟ كلا !

لماذا ذلك - أتدرى ؟

لأن هذه الأشياء التي يقطعونها جوهرية ولوجودها غرض ، تدبّه إليه علماء التناسل أخيراً . وقالوا به ؛ فخافوا الذكّر لتقليل من إحساسه ؛ فلا

(١) الشواهد مأخوذة عن كتاب عجائب الخلق للرحبي زبدان

يسرع بالانزال ؛ حتى يرتوى الجانب الآخر .
والنظر في الأنثى لتنبيه حساسيتها أكثر فيحصل ارتواءها بسهولة ؛
ولقد ترتب على الختان - كما يقولون - تلك الحالة التي تبدو في بعض الإناث
باسم « الجوع الجنسي » ، وما يتبعها من أمراض عصبية لأسباب لها إلا فراغ
الذكر قبل ارتواء صاحبه .

نعم للختان فوائد صحية وأدبية لا تُنكر ، ولكن أفما ترى أن مع كل
خير شر - كما نجد مع كل شر خيراً ؟
« أنا لا أقول بترك الختان - فلا يلاحقني أحد ،

* * *

يظن الكثير من الناس أن الإنسان تحكمته الطبيعة ، ويقولون لك
وهل في ذلك شك ؟ - أما ترى :

قد هيمن الإنسان على القوى وسخر الآلات وتحكمت في الغلات
والثمرات فجاءت كما يشتهي وحارب الأمراض وقهرها - هل بعد ذلك
سلطان ؟

وطبعي فهمهم كهذا - يسهل على صاحبه - أن يرى أن استحداث هذه
الفصائل والأنواع التي استحدثها الإنسان إنما جاءت بحوله وطوله وبفضل
كده واجتهاده .

ولكن لتدبر أصل المسألة

الذي نعلمه أن الإنسان لم يتنبه إلى قوة البخار إلا لما رآه يرفع غطاء
الغلاية . فكان القوة كانت في البخار من الأول فهو لم يوجد معدوماً وكل

الذى فعله أنه احتال حتى انتفع بهذه القوة الموجودة في تسيير القطارات وغيرها
- كل فعله أنه نقل البخار من تحت غطاء القدر الذى ترفعه - إلى جهاز
الحركة في قاطره لتحرركه ، وبدل أن كان قليلا لا يقوى إلا على رفع الغطاء
جعله كثيراً يستطيع تسيير القطار .

ورجال الكيمياء العضوية لم يطمعوا في بحارة النبات والحيوان
في صنع ما تصنعه أعضاؤها إلا لما رأوا أن من النبات ما يصنع دهناً مثل
الدهن الذى يكون في الحيوان تماماً ، فاسترعى الحادث أنظارهم وبحشوا
واستغرقوا فإذا بالأمريسيور لهم هم أنفسهم ، فوصل (وهرل) إلى أولى هذه
النتائج فصنع (اليوريا) التى توجد في البول وقام يقول : وإني أركب
(اليوريا) بدون أن أحتاج إلى كلتي إنسان أو كلب ، (١)

ومضى العلماء في هذا السبيل فرجدوه مذلاتاً وصاروا يركبون مركبات
جديدة من هذا النوع كل سنة تقدر بالآلاف .

والمعلوم في مباحث الكهربية أن الشحنة الموجبة تتنافر مع الشحنة
السالبة ولا يتأتى ضم حوامل الشحنتين أبداً ، ذلك ما كان يفهمه العلماء حتى
وجدوا اجتماع البروتونات المتعددة المتخالفة - في الذرة الواحدة فانبثق في
نفوسهم الأمل ، وبحشوا المسألة فإذا بهذا التنافر إذا قُوم بضغط شديد حتى
أمكن تقارب المتنافرين إلى حدٍّ محدود ينقلب التنافر تيجاذباً (٢)

إذاً الأمور ترشد إلى نفسها وتغري الإنسان بها وتريه السبيل .

(١) كتيب اساطين العلم الحديث لقؤاد صروف ص ٨٦

(٢) آفاق العلم الحديث ص ١٠٢

ثم انظر إليه وهو يعالج أمور الكائنات يحاول أن يمتلك زمامها - كان يتأتى لها بكل الوسائل، فإن وجدها تستجيب إلى ناحية، وعافا وقيدها لثلاثا تفلت منه، وإذا وجد وسيلة لا تؤدى إليها اعتبرها تجربة فاشلة ووعافا لى لا يعود إليها . وهكذا ظل يسوسها ويترضاها ليعرف الناحية التى ترضيها فيفعلها ويجتهد ألا يخطئ لثلاثا يفعل غيرها - ومضى على ذلك فاما سار على حسب ما تبتغى، وأناها من الوجه الذى تبتغى؛ فقد انتقادت له ومكنته من نفسها - أو لا - أدارت له ظهرها وتركته يندب حظه .

إذن الانسان لم يتحكم في الطبيعة بل هى التى فعلت ذلك به فأطاع . إن الانسان لا يكون قد تحكم في الطبيعة إلا إذا كان قد لوى عنقه وقهر إرادتها وغير وجهه الأمور فيها - وشيئا من ذلك لم يحصل - لم يستطع الانسان حتى ولا أن يجعل القطب السالب للمغناطيس يتجه جنوباً والقطب الموجب يتجه شمالاً .

إن مظاهر الحول والطول التى نراها للانسان فى الوجود سببها أنه سيّد؛ أراد الله سيّداً؛ وسخر له الأمور لتتقاد . والعلم يكشف له الزمام، فهو مخلوق محظوظ ومحبو فقط؛ بدليل أن الأمور لا تنقاد له إلا على شروط تقرر دونه، يتحكم عليه الخضوع لها، وبدليل أن العطاء إلى مدى لا يستطيع تحطيه، ولا غراض يقف عندها ويتلاشى سلطانها من بعدها .

على ذلك فما استطاع الانسان استحداثه من السلالات نباتية وحيوانية قد كان هو نفسه قابلاً لذلك من قبل - وسّع للانسان فيه وأمكن له منه وقد علمت الغرض والغاية فهو منحة وهو رحمة وهو عطاء . وقل مثل ذلك

فما استطاع استخلاصه من مركبات يجارى بها الأعضاء وإنها لعجيبة أن تجرى فتقول : فعلنا وفعلنا - أنزلنا مطراً وصنعنا قرأً وأمرونا سلسماً وشفينا مريضاً واستولمنا عاقراً . ما هذا ؟ تأمل ما فعلناه ؛ إننا حوّلنا بخار سحب موجود إلى ماء فنزل مطراً .

وما كان البخار ليستجيب لنا فيتحول ماء وما كنا انطمع في تحويله ماء إلا لأنه هو في نفسه قابل لذلك . ويحصل له ذلك من غيرنا ، ومن قبل أن نعلم . بل ومن قبل أن نخلق . فلما علمناه يتحول ، وعلمنا سبب تحوله ؛ فعلنا مثل السبب أو بعبارة أخرى نقلنا إليه السبب فتحول ؛ والقمر الذى تذكر مصباح كالمصابيح هو فقط أكبر منها ويحتاج إلى الطاقة من زيت أو كهرباء مثلاً ؛ ولابد لنا من إمداده بها حتى ينير ؛ وما نستطيع خلق الطاقة بحال . بل كل ما نستطيعه هو استخلاصها من مصادرها ثم نقلها إليه .

وإنك تعنى بالإمراض والإشفاء نقل الجراثيم إلى السليم ليمرض ومعالجة المريض بالدواء ليشفى . تأمل عملك ؛ إنك نقلت شيئاً موجوداً لشيء موجود فحسب . أما النتائج التى تترتب على عملك الآلى الذى قمت به فلا سلطان لنا عليها . ولا هيمنة لنا على أفعالها .

بل وما كنا نعلم أن هذه التى تنقلها تحدث هذه الآثار التى نرجوها إلا لأن التجارب قد أرتنا أنها تفعل ذلك فدرجنا عليها . ولقد كنا فى عهد البحث والتفكير نلقى بالسبب إلى الغاية ونقف منتظر ؛ فأما رأينا الأمور قد استجابت لسببنا فقد حمدنا الله ، واحتفظنا بالوسيلة التى قد نجحت - أو لا - تركناها إلى غيرها حتى نهتدى . فالمسألة علم لا خلاق ؛ وتوهم لا تسلط

واستعطاء لا إعطاء .

وقل مثل ذلك في الاستيلاء، ومنع الاستيلاء؛ فإن هو إلا إزالة الحواجز القائمة، في طريق الحيوانات المنوية لتصل إلى المرأة، أو إقامتها في طريقها لكيلا تصل، وهذا هو كل الفعل.

فهل بعد ذلك نقول إننا فعلنا مثل فعل الله أو أحسن من فعله ذلك الذي لا يقول به الأطفال الصغار؟ اللهم إنا نعوذ بك من وساوس الشيطان هل في العالم من أحدث عينا نالته ليرى الإنسان من خلفه؛ أو أنشأ يداً نالته ليُعطي من ورائه . ؟

كلا — وذلك لا يكون — إن ذلك التحسين الذي حصلنا عليه في صور الحيوانات بوسائل التربيّة، هو كما قلت لك بمنحروح لنا، ومعمول حساب به وجُعِلت الحيوانات قابلة له وما نملك في هذا الصدد، إلا تقديم الوسيلة فتسجيب الأمور أولاً تستجيب ذلك مالا سلطان لنا عليه، وطبيعي من أعطاك زمام الماشية وساقها لك لتتقاد لا يقال إنك غلبته عليها وأخذتها من دونه — وحسبنا — وأرى النوم براودك فلاقيم التليّة وسأعود إليك إن شاء الله — في اليوم التالي .

شبهة الملامح فيه في نظرية النشوء والارتقاء

قال الرجل في زيارتي التاسعة له :

كنا نجد أنواع الحيوان والنبات تتسلسل أمامنا في سلسلات شتى لا تقربها ولا تفصلها ؛ ونراها مقدسة لا يستطيع شيء في الأرض أن ينال منها شيئاً فإذا بالامر على العكس من ذلك .

أرانا العلم بمفضل بحوث التطور ، كيف تنوعت الانواع ، واشتققت اشتقاقاتها ، وعرفنا أسباب بياضها وسوادها ، وسمتها وهزلها ، واستطعنا كما قلت لك استحداث سلاسل لا عداد لها ، مما يدل على أن النظرية صحيحة لا ريب فيها .

والآن فهو جادٌ في بحث أسباب نشوء الحياة على الأرض وانتظامها في السلسلة وإذا ذاك ترى أن آخر هيكل للعبادة في الأرض قد هُدم .

قلت للرجل أريد أولاً أن أوضح لك النظرية كما أفهمها ليكون كلامي مُنصباً على شيء تعلم ما هو في نظري :

إن هذه النظرية تعني أن الكائنات الحية الموجودة الآن على سطح الأرض حيوانية ونباتية لم تكن بهذه الصورة منذ الأزل ، وبهذه الكثرة كلا . كانت على صور أخرى مختلفة ؛ تعاقبت تباعاً بمرور الزمن ؛ وفعّل الأحداث الطبيعية فكانت الصور الحاضرة ؛ هي النتيجة الأخيرة للتطور والتقليب وهذه الكثرة التي نراها عليها الآن . هي نتيجة اشتقاقات بحيث لو مضينا إلى الوراء بسلسلة الأنواع ؛ نراها تتضام وتتلاءم وتقل شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلى أصل واحد .

وعلى ذلك فالإنسان كان حيواناً مثل الحيوانات الشقية مما أشقت منه وساعدته الظروف فترقى؛ وحصلت له تلك الميزات التي صارت له من دونها قال الاستاذ سلامة موسى في كتابه (نظرية التطور وأصل الإنسان) ص ١٧ (إن الإنسان لم يكن انساناً منذ الأزل وإنما كان حيواناً يشبه القرد وكان قبل ذلك يشبه الليمور ولم جراً حتى نصل إلى الخلية البسيطة . للحياة الأولى على الأرض وهكذا الحال في سائر الحيوان والنبات) ثم يقول : (إن الحيوان والنبات على تعدد أنواعهما التي تبلغ الآلاف نشأت في الأصل من نوع واحد)

وجاء في كتابه فلسفة المشوء والارتقاء ، للدكتور شبلي شميل . الجزء الأول ص ١١٦ (يقتضى إذا أريد الجمع بين صورتين معلومتين أن نبعث لهما لا عن صورة تجمع بينهما رأساً بل عن أصل مشترك مجبول)

أول القائمين بهذه النظرية (لامارك) الفرنسي وإن تسأله عن الأصل الأول الذي تفرعت عنه أشقات الكائنات الحية من أين جاء ؟ يقول لك بالتولد الذاتي — أى تولد من الجماد بنفسه ويدعم رأيه فيقول : أليس في البطن تتولد الديدان ؟ — وهذا المثال الذي استشهد به خطأ كل الخطأ كما نعلم ذلك الآن .

وجاء (دارون) الإنجليزي فقال بهذه النظرية ونسب الأنواع إلى خمسة أصول أو ستة ولا يستبعد أن يكون لها جميعاً أصل واحد نفخ الخالق فيه نسمة الحياة ؛ أى أنه تحفظ ولم يقع في الخطأ الذي وقع (لامارك) فيه حين قال بالتولد الذاتي ، والأسباب الطبيعية التي عملت في التطور وتنويع

الأنواع هي في نظر (لامارك) العادة والضرورة وجنس المعيشة، واستعمال الأعضاء وعدمه، وفعل الأشياء الخارجية والوراثة

فالزرافة اضطرت إلى تناول غذائها من الأشجار العالية فطال عنقها، والشعابين ذات الأجسام الملساء المستطيلة المجردة عن الأعضاء إنما كانت هكذا لأنها وجدت في أما كن قضت عليها بالزحف، والمارور في مسالك ضيقة. والبط لم يوجد له ذلك الغشاء بين أصابع رجليه إلا لاضطراره إلى السباحة وهكذا

وأسابب التطور في نظر (دارون) هي الاختلاف وتنازع البقاء والانتخاب الطبيعي والوراثة.

ويقررهما شبلي في ص ٢٤٩ من مجموعته الجزء الأول فيقول: فمن يجهل ياترى اختلاف أفراد النبات والحيوان. أو ينكر ما للغذاء والأحوال الأخرى الطبيعية من اليد القوية في إحداث هذا الاختلاف تبعاً لناموس المطابقة. وما للوراثة من القوة في نقل صفات هذا الاختلاف في النسل ثم يقول: فالاختلاف الذي ينشأ عن المطابقة يجعل في الأحياء قابليات وجودية مختلفة، فيطلب الضعيف القوت فينازعه القوي. وإذا كان القوت قليلاً يهلك الضعيف، وذلك هو تنازع البقاء الذي يؤدي إلى بقاء البعض وفناء البعض، وهذا ما يقال له الانتخاب. ويسمى طبيعياً. إذا كان بين الأحياء بعضها مع بعض، أو بينها وبين الأحوال الخارجية، وصناعياً - إذا كان بواسطة الإنسان

ويوضح لنا سلاسه موهبي المقصود من الاختلاف فيقول في ص ٧٧

من كتابه المذكور : الأحياء كلها في تطور مستمر فالأبناء يخالف الآباء وهذا الاختلاف الصغير يتراكم جيلاً بعد جيل حتى يعود فيما بعد اختلافاً كبيراً

ومن قبل ذلك يقول : (إذا وضعت مائة محارة في صفة واحد صعب عليك تمييز كل واحدة من الأخرى ولكننا إذا وقفنا مائة رجل صفّاً واحداً ، وجدنا الاختلاف ظاهراً بين كل شخصين) — أى أن الاختلاف هنا أقوى منه هناك

هل هي صحيحة أو خطأ؟

وللنظرية من يتشيع لها من العلماء ؛ ولها منهم من يرفضها ؛ ولكل من الطرفين حججه وشواهد التي يستند عليها . وفي اعتقادي أنه ما لم يثبت أمر هذه النظرية عملياً ؛ فستظل متأرجحة . قال الأستاذ الدكتور وليم (ترتر) رئيس مجمع ترقية العلوم البريطاني لسنة ١٩٠٠ (مدار البحث العلمي على المشاهدة الدقيقة التي تتكرر مراراً ، حتى لا يبقى فيها محل للخطأ . وعلى التجارب التي تُفي منها كل ما يمكن أن يقع فيه خطأ ، وعلى التبعثر وإعمال النظر للوصول إلى النتائج المنطقية المترتبة على المشاهدات) (١)

فاذا نظرنا إليها على هذا الأساس نراها تتكون من شطرين : بشّ الحياة في الجماد واشتقاق نوع من نوع — لم يثبت عملياً أى من الشطرين كان — كل حجة رجالها في الشطر الأول أن المواد التي تتكون منها

الخلايا الحية : من اكسجين و كربون وهيدروجين وأزوت وأملاح .. الخ
موجودة كلها في السكون ، ويمكن جمعها ومراعاة النسب التي تتكون
عليها ؛ غير أنهم يقولون إننا إن فعلنا ذلك لانجد الحياة قد دبّت في هذه
المواد — إذن فلنتنظر حتى نفعل ؛ ولا نحكم على الشيء الذي نمتنى أنفسنا
بحصوله أنه قد حصل من قبل أن يحصل ، ويجب أن نعلم أنه وإن لم يكن مستحيلا
أن نوفق في التوفيق — كذلك حتما يكون — والعلم وإن كان يتسع كل يوم
فهو فقط يرينا الممكن أنه ممكن فنفعله ؛ ولا يستطيع أن يجعل غير الممكن
ممكنا مطلقاً ؛ وحيثهم في الشطر الثاني : أننا حصلنا بواسطة التربية على
فصائل متنوعة للنوع الواحد فجعلنا من الحمام الهري ؛ الحمام المطوق
والزاجل والمسروول وهكذا ، وفعلنا مثل ذلك في الكلاب وفي الخيول وفي
كثير من الحيوانات الأخرى والنباتات

ثم يقولون وما حصلنا عليه من الفصائل في فترة ، قد حصل الزمن
الطويل على أكثر منه فكذلك الأنواع

أصول البحث تقول ما حصل فعلا فهو يقيني ، وما تؤقّلون فيه فهو ظني
قد يكون صحيحاً وقد لا يكون

إن الاطراد في الأمور لا يكون دائماً ، بل ولا غالباً فلا تقطع بالقياس
إن قضيباً من النحاس أراه إن أساط الحرارة عليه يتمدد ، وكلما زدته
حرارة يزداد تمدداً ؛ ولكن ذلك لن يعار د فسيأتي وقت إن بلغت الحرارة
مبلغاً أن أرى القضيب ينهار بناؤه ؛ ويسيل هيكله فلو أنني كنت وقعت عند
الخطوات الأولى وبنت مستقبل القضيب على أساس الخطوات الأولى التي

رأيتها أكون مخطئاً

انه لكي تثبت هذه النظرية في نظر العلم يجب أن يوفق رجالها إلى بث الحياة فعلاً في الجماد كما يؤملون ، وأن يعملوا على اشتقاق الأنواع ويتكرر ذلك ويتكرر ، يأخذ تتاج عملهم طريقه في الحياة كسواه ذلك ما يفيد كلام الأستاذ وهو ليس بالهين - ولا يثبتك مثل خبير

كل الأمور العلمية كانت فروضاً (نعم) ونظريات. ولكن ألا تعلم أن هذه الفروض التي صحت كان معها أضعاف أضعافها بطلت ، وكانت في نظر العلماء محتملة ويمكن أن تتجه إليها الأمور ، وتكون الصحة من نصيبها ؟ إن ديناً كديننا - نحن المسلمين - لا يقف في سبيل البحث أبداً بل هو يُغري به ويدفع إليه في غير هوادة ودليل على ذلك نصوص القرآن الكريم الصريحة السافرة ، وتاريخ رجالات العلم من المسلمين فقد جالوا في كل بحث وتقلبوا في كل واد ؛ يرون عملهم إلى الله زلفى

وتأمل معي قول الله تعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت) - أفلا تراه وقد أعلمنا ديننا - أن الله رفع السماء وخلق كل شيء - قد دفعنا للنظر كيف ذلك كان ؟ وعلى أي وجه كان ؟ لنكتسب مع فضل الدين خير العلم ؛ ومع ثواب الآخرة عزه الدنيا

لعمري إن العلم الطبيعي بجميع فروعها يكاد ينحصر في هذه الآفاق التي أمرنا بنحوضها - ووجهها دائماً (كيف) تلك التي أمرنا أن نجعلها ووجهتنا في هذا السبيل

ولكأن نيوتن قد استجاب لأمر ربه من حيث لا يدري - حينما بحث

فوصل إلى قانون الجاذبية - وأرانا كيف رفع الله السموات العلا .

ولـ كأن دارون قد استجاب هو الآخر حين فعل - أما كونه وُفِّق أو لم يكن ، فذلك ما سيكشف عنه الزمن . ولو تأملت قول الله تعالى وقل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ، لو جدت أن القرآن لم يبحث على مثل ما بحث (دارون) فيه فحسب ؛ بل وأرشد إلى سبيل ذلك أيضاً .

هذا هو موقف الدين من العلم - نراه يبحث عليه ؛ ويرحب بنتائجه ولكنه يقول لمن يأتيه بشئ من ذلك : وهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ،

إن لهذا الحزم الصارم الذي يقفه العلماء من النتائج ، له ما يستأهله فقد كانت كل خدعة دخلت في أذهان العلماء ، لها ما يؤهم صحتها ، حتى لكأنها قاطعة . وناهيك بما كان يصاحب فكرة التولد الذاتي من أمور تجعل كل قول بعدها لجاج ، ومع ذلك سرعان ما ظهر أنها ضلالة ؛ وأن كل ما صاحبها كان وهما ليس ما يضحك أكثر منه . لذلك ترى العلماء يتحفظون قبل أن يقبلوا ؛ بل ويتحفظون بعد أن يقبلوا ، ولا يزالون متحفظين حتى النهاية . قال الاستاذ (ديور) رئيس المجمع المذكور لسنة ١٩٠٢ في خطبة الرئاسة : إن مانحسبه الآن نواميس الطبيعة لا نعى به أنه النواميس المقررة لهذا الكون بل التعليل الأخير الذي وصلنا اليه والذي نستطيع به وجبه أن نعال ما نراد من ظواهر الطبيعة . ولكن ما من أحد يحسر أن يقول إن تعليله هو التعليل الحقيقي وأنه ثابت لا يتغير لأنه قد 'تكشف غدا' أمور جديدة تضطرنا إلى تغيير كل رأى وتعليل (وبالتأمل في قوله - نعال لماذا شاع القول بهذه النظرية

فى لسان العلماء وهى لم تثبت ، وندرك معنى الموافقة فى نظرهم ومداهها .
 إن من حسن حظ هذه النظرية أن اختيار له اسم مظهره شائع فى
 الوجود فدخلت النظرية فى دائرته كالماتطفل يدخل مع الضيفان فصار أهل
 الدار يفهمونه منهم ، وهو فى الواقع ليس منهم ولا كن إلى متى - لابد أن يستبين
 الأمر عند انقضاء الحفل

* * *

إنه ليس أضر على الحقيقة من الأسراع بقبولها ؛ لأن هذا الاطمئنان
 إليها - وقت ما تبدو (بوادرها) سيجدوننا نفسر باقيا مما يروق لنا ، أى بالظن
 والتخمين ، وذلك مسخ لها ، وتشويهه ، قد لا تتخلص منه إلا بعد أجيال ، بل قد
 يكون هذا الذى قدمناه لها - خدمة لها - هو السبب فى ضلالنا عنها ونفورنا
 منها يوم تتكامل صورتها ، فنراها على غير ما توقع - والحق -ائق لا تأتى
 مطاقا حسب ما نتخيل ؛ والملاحظين بما أضافوا إلى هذه النظرية من توليدات ،
 وبنوا عليها من (علالى) قد أساموا إليها جداً إن كانت حقاً ، وأساموا إلى
 أنفسهم إن كانت ضلالاً ؛ ولكن لا عجب فهم إنما فعلوا لاعتقادهم بأنها إن
 تتكامل فستؤيد (مبدأ) فى أنفسهم يظنون أنها تؤيده ، وهيئات ثم هيئات .
 إن موضوع كتابى (لاهُوتى) صرف وما أرى النظرية تعرقل مسعاى
 إن صحت ولا تخلى لى السبيل إن بطلت ، فلا يعنى إن كانت صحيحة أو
 باطلة - ولترك للزم من وحده ليقول كلمته فيها ، فهو الفيهل الحق والفرقان
 المبين . .

موقف الاتحاد مع هذه النظرية

النظرية في ذاتها لا تدعو إلى الاتحاد أبداً ، آية ذلك أن (لامارك) أول القائمين بها (ودارون) ابن بجدتها (ووالاس) توهم دارون في التفكير فيها (وهكسلي) مذلّل سبلها وسبّس المادّة ليراقها على كل ما في السكون؛ هؤلاء جميعاً - تراهم وهم الملاحظون لشواهدا في مناحي الوجود والمكونات لمبادئها التي قامت عليها؛ والمنبهون الأذهان إلى أمرها - كانوا مؤمنين بالله أكمل الإيمان، آمنوا به من قبلها، وآمنوا به من بعدها، وأعلنوا إيمانهم حتى في كتبهم الخاصة بهذه النظرية نفسها وأكتفى (بدارون) الذي طغى اسمه على كل من تكلم فيها حتى صار يعرف بها وتعرف به؛ فأذكر كلمته التي أعلنها في هذا الشأن قال: (يستحيل على العقل الرشيد أن تمر به خابجة من الشك في أن هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغة، والآنفس الناطقة المفكرة، قد صدر عن مصادقة عمياء. لأنّ العياء لا يخلق نظاماً، ولا يبدع حكمة - ذلك أكبر برهان يقوم عندي على وجود الله)

ولكن الملحدين لهم وجهة في الاتحاد تضحك وتبكي؛ وتغيظ وتفجع؛ وجهة نسأل الله السلامة منها للناس. وإذا علمنا أنها مؤسسة على نظرية أصحابها مؤمنون تراها لا تفرغ من عجب.

شعيرة

تراهم يرددون لك وأنت تقرأ لهم : إن مباحثهم علمية . - إن القول بالله والخلق ليس علمياً - إن الاتجاه إلى القصد والتدبير الكوني ميشولوجية قد نفر العلم منها . وهذه دعاوى قد حُذِفَ منها أكثرها فبالتأرجحة لا يستطيع العارفون أن يجيبوا عليها بنعم ولا - لا . إنها قد صارت كما إذا تقدم إليك شخص بترك الصلاة قائلاً : إن القرآن يقول : يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة . . ، فما تستطيع أن تقول إن القرآن لم يقل ذلك وهو وإن قال ذلك فما يفيد قوله ما يعنيه .

إن مباحثهم علمية إذا أريد بالعلم البحث ، والنظر ، والتقليب ، وتفهم الأمور ؛ ووضع الفروض والنظريات ، ولكنها ليست علمية إذا أرادوا أن يلبسوا تلك النتائج التي وصلوا إليها ثوب العلم ، ولما تؤيدها التجربة بعد ، والقول بالله والخلق ليس علمياً إذا كان غرض العلم البحث عن ذاته تعالى (وهي ليست مادية) ولكنه يكون علمياً وشاغلاً للعلم حتى ما يفرغ ؛ إذا اتجه العلم إلى بحث آثار تدبيره وحكمته وهي تملأ الأكوان ، وما بحوث الباحثين في علم وظائف الأعضاء ، وإفرازات الغدد ؛ والمناعيات الجسمية ومكونات الدم إلأى في السبيل إليه ؛ وما آمن (من آمن) من العلماء الكونيين إلا على أساس ما أرشدهم العلم إليه من دلائل رحمته وتفضله وإنعامه .

والقول بالميشولوجية كان ضلالاً قد نفر العلم منه ، يوم كان لا يعرف

الباحث كيف يشفع رأيه بالتجربة ، ليعلم أحقاً ما رآه أم باطلاً أما اليوم فما أرى للقول بالميثولوجية من داع .

مرصعهم على الانضليل

وترى النظرية - والمفكرون فيها - مؤمنون - وضعوها بقصد البحث وللبحث ذاته ، قد اتخذ الملاحدون منها مبرراً للحاد ؛ ومسخوها ، ووسعوا فيها حتى شملت مناحيه عموماً - رضيت النظرية أم أبت .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد ، ما كان فيه من بأس - فشأن الشخص المطالع ، أن يرى في المعركة التي تطلعن الشجعان ، وتدعوهم إلى الحاسنة والاستبسال - يرى فيها هو نفسه بسبب طبعه وجبلته - ما يروع . ولكنهم يريدون أن يحرفوا الناس في وادهم - ولا أدري لماذا ؟ فنرى شبلي يقول لك في كتابه (فلسفة النشوء والارتقاء) : كم أنت متمسك بما نشأت عليه فأنا كنت مثلك وأكثرا . ويريك كيف كفر . ويقول لك :

لا يصلح الانسان مجتمعاً ما دام فيه الدين والوطن
وينقل إليك كلام الشعراء الذين هم على شاكلة فيقول :

حياة ثم موت ثم بعث حديث خرافة يا أم عمرو
أى أن غرض التضليل ظاهر ، والاستطراد إلى ما لا علاقة له بالنظرية واضح لا غبار عليه .

ولا أدري - وحرية الرأي مكفولة للجميع - لماذا لم يجعل عنوان كتابه : (لماذا أنا ملحد) ولا مانع من أن يذكر كيف اتخذ من النظرية

وسواها سبباً للالحاد ، ليكون عنوان كتابه دالا على ما فيه ، يطلبه من يريد أن يعرف كيف هو الحاد ؛ أو من يريد أن يلحد مثله ؟ ولكنك ترى الكتاب هكذا : عنوانه علمي وباطنه فساد .

وإن تضحك - فمضحك ماتراه من عبارة أتى بها يعتذر عن عمله ، أو كأنه يعتذره عنه فبدأها يقول : أنا لست متعصباً ضد الأديان وفي إمكانى أن أمزج كل إنسان مهما كان معتقده وبمبتهى الاخلاص (

ولم يختمها حتى قال : (فإذا أضففت إلى ذلك أسها يريد الأديان ، من الوجهة العلمية متحوّلات أوهام ، وأضغاث أحلام . .) فتشغل لنا دور المعتدى الذى جاء لخصمه يعتذر إليه ولكنه لم يقم من مجلسه حتى صفعه صفقة أخرى - فياليت ما جاء .

طريقهم في الاستدلال ومهمتهم في المجرد

وإنك لتلمح في بحثهم واستدلالهم معنى التسرع والحرص على غاية بعينها وذلك عيب خطير في الباحث ، يُهمله حتماً ، وقلما يدرك معه الأمور على وجهها . رأوا اشتغاف الفهم - ائله فقالوا : وكذلك الأنواع - قلنا لا بأس فلائله يعمل على الجاد في طالب البحث . وسمعوا (دارون) يقول : والأنواع أصلها واحد . فقالوا : والأصل الواحد متكوّن من الجماد . ومع أن (لامارك) اجتراً نقال بما هو دون غفلة أباد الزمن - فقد عابوا على (دارون) أنه لم يقل قوله . ولا أدري كيف كان يقول . وعلى أى أساس كان يقول ؟

ولهم لم يعرفوا بعدُ الوجهة ولا الأساس .
ولكنهم مع ذلك يمتدّون أنفسهم - ولا بأس في هذه أيضاً لو لم يتعجلوا
وكان كل ذلك قد تم - وهو لو تم ماضراً - تراهم يقولون على ذلك
لا (إله) فالأحداث هي التي فعلت . فان قلنا : وأين هي الأحداث التي
فعلت ؟ لم نرمها فعلت ! يقولون : أتريدون أن تقولوا إن الوجود نشأ
بمعجزة . .

ومعنى المعجزة في نظرهم - كما فهمت - أن تأتي الأحداث بأسباب
لا تبارى ، ولا تدرك .

وماضى البحث الطويل، يدل على أن كل ظاهرة كونية لها سبب مادي
يدركه من يبحث عنه : الليل والنهار لها سببهما من دورة الأرض أمام الشمس
ووقوف الأجرام السماوية في مواقعها ، له سببه من الجاذبية وهكذا - فهم
يريدون أن يقولوا - ما ألفناه في تاريخ البحث الطويل أن كل ظاهرة لها
سببها المادي الذي إن خفي عنا اليوم ، فسنتكشفه غداً ، وما رأينا شيئاً جاء
بالمعجزة يوماً .

ونحن - المتدينين - نعلم أن الله إذا أراد أمراً هيئاً أسبابه . وفعل الله
وتدبيره وحكمته لا يشقّ به بسواه - فما كان التدبير كالعجب ؛ وما كانت
المصادفة كالحكمة . فهذا التمييز ندرك ما هو من فعل الله وتدبيره وإنعامه ،
وما هو من عمل المصادفات والقوى .

وطبيعي ليس يحتّم على العامل أن يعمل بيديه ، ويأمر العمل بنفسه
- وإلا لكان مخترع القطار يتحمّ عليه أن يحركه بنفسه أو اعتبر القطار

ولا مخترع له ، ولكنهم لا يلتفتون إلى شيء من ذلك .

فإن قلت لهم إن الأحداث المباشرة ليست عاقلة حتى تمتد الكائن الحي بما يلزمه من حواس وأعضاء ووقايات . وليست بذات قصد وتدبير حتى تهيم له البيئة حسب ما تتطلب حياته فتجعلها مشتملة على هواء وماء ، وحرارة وضوء ، وزرع وضرع ومعادن .

وليست حكيمة حتى تجعل هذه الأشياء متناسبة مع احتياجاته ؛ لا تقصير ولا فضول — يقولون اسكتوا لا تقولوا ذلك فتلك ميثولوجية ولكنهم لا يلبثون أن ينسبوا هذه الآثار إلى المصادفة وتلك ميثولوجية من نوع آخر — ولعمري لو كانت المصادفة تفعل ذلك فاسمها مغلوط .

الأعضاء الزائدة

ويأتى دور الأعضاء الأثرية أو الزائدة التى يقولون إن الحيوانات والنباتات تشتمل عليها ، وللإنسان منها الزائدة الدودية واللوزتين وعضلات الأذن وسواها ؛ هذه الأعضاء يقولون إن وجودها فى هذه الكائنات كأثر من آثار العهد القديم البائد الذى كانت عليه هذه الكائنات ، فكانت هذه الأعضاء تعمل لها وقت ذاك . أما الآن وقد تغير الحال غير الحال ، فقد صارت لا تعمل لها .

ويمثلون لذلك قائلين : إن الزائدة الدودية كانت مهمتها سابقاً تحويل المواد الخشبية فى الأعشاب التى كان يأكلها الإنسان إلى سكر . أما الآن وقد تغير طعام الإنسان فقد صارت لا تجد ما تعمله ، ويقولون إنها ستنقرض

مستقبلاً. هذه الأعضاء يتخذها رجال المذهب دليلاً على صحته ؛ ويتخذها الملحدين - فضلاً عن ذلك - دليلاً على انعدام القصد والتدبير أى تبريراً للجحود والاحاد .

ومع أنهم قد قالوا - إنها كانت لأغراض تؤديها في حينها ليدعموا المذهب - أى أنها ليست عبثاً - فقد عادوا يخدمون الاحاد بها وليست فاعلة بعد ما قالوا كلمتهم .

على أن هذه الأعضاء التي يظنونها زائدة ، كثيراً ما تظهر لهم ضرورتها فقد عدّ (بنجر) شارح (دارون) من هذه الاعضاء : الغدة الدرقية واللوزتين ، فعلق شبلي نفسه على ذلك بأن الاطباء وجدوا أن من تُنزع منه الغدة المذكورة يصاب بالبلاهة التامة ، ويقول بعض الاطباء عن اللوزتين إنهما تفرزان سائلاً يقتل الميكروبات التي تدخل مع الطعام فهما كالخارس على ذلك فما ظنوه زائداً (مما ذكر) ظمّر أنه ليس كذلك - وقد يكون ما بقي هكذا أيضاً . ثم الزائدة الدودية التي يقولون إنها تهضم المواد الخشبية التي في الأعشاب - إنها تنفع عند من حصل في غابة ولم يجد غير الأعشاب فأكلها لتلاير لك جوعاً . فهي كاحتياط ، فهذه الاعضاء كانت لها أهميتها في الماضي حسب قولهم ، وقد انكشف لنا أمر بعضها فعلمنا أهميتها - للآن - فلم تعد زائدة . وبعد ذلك فمنها ما ينفع في أمور قد يتعرض لها كل إنسان . أى وجهة تتجه إليها في حمل هذه الاعضاء تجد القصد من كلامهم هم أنفسهم - فالجحود خطأ ، والفلسفة التي بنوها يجب أن تنهار .

ولا أدري وقد أخرجوا القصد من حسابهم - لسبب أو لغير سبب -

ما عساهم قائلين لأنفسهم إذا تساموا : لماذا وجدت الأسنان في الفم ! والعين في الوجه ، والشرابين الممتدة هنا وهناك ؛ والقلب ولماذا يدق ، والجلد في السرى لماذا اتصل بالجنين - أنا والله في حيرة وعجب !

الجهيرين

وبعد كل ذلك جميعه فان جوبهوا بالتدبير والتنظيم بحالة لا يستطيعون إزائها دفناً ؛ ولا لها محملاً . يقولون لك إنها الضرورة - النواميس بحجة أن تفعل ؛ فلا بد أن تفعل ، ولا فضل لها ، لأن المـكـره لا يُشـاب ، وما نرى سواها فلا نعتقد سواها .

يقول الدكتور شبلي شميل في ص ٢٤٣ من كتابه (فلسفة النشوء والارتقاء) جزء أول : « إن كان المراد بقوة الألوهية المدبرة المتصرفة في الكون . هذه السنن التي تجري عليها الطبيعة فلا يكون بيننا خلاف في ذلك إلا أنها لا تكون عاقلة ومريدة كما يقال ، وماذا تفيد إرادتها وهي حينئذ لا تفعل مختارة أي أنها لا تقدر أن تلتئم وتخرّب ، وتبني وتهدم ، وتخرق نظام الكائنات كيف شئت ، ومتى شئت ؛ بل تفعل مضطرة على حكم الضرورة)

(أقول) : أما عقلها فتأبى من قصدها لما تريد . وتدبيرها ليتم ما تريد والدكتور ما عمتى عليه أمر الإرادة وهي تعمل ، إلا لكفره بنعمة الله ورحمة الله ، وعناية الله به ، فلم يُحد لنفسه نقطة يرتقب الإرادة عندها وهي تقبل عليها ؛ فيدرك اتجاهها وحركتها ، لذلك عفت نفسه (إن كان

صحيحاً يريد أن يتبين (أن يرى الارادة تهـدم وتبني ؛ وتخرّب وتلشىء ؛ وتخرق النواميس المعتادة ليستطيع أن يدركها ويحس بقصدتها وسلطانها وهي تتجه لتُدرك الغاية التي لم يرها لها من قبل .

أما لو أنه طرح التشاؤم جانباً ؛ وأمسك الجحود حتى يتبين ، لوجد الارادة سافرة واضحة ، تمضي في وجهتها ولها جالجلة ، ولها أزيز .
إن الخلايا الحية المتكاثرة ، التي عملت على تكوينه في بطن أمه واستكمال صورته أما يراها قد عملت له (وهي ماضية في البناء) حساب فتحة الفم فلم تسدّها ؛ وفتحة الأذن فلم تبنيها ، فها هي الارادة قد عملت ما يلزم لأنّه يلزم ؛ ولم تشأ أن تجعل في جدار جسمه ثغرة لأن ذلك يؤذيه ، فهي عاقلة تتجه إلى المصلحة ولا تتخطاها . فان كان يرى أن النواميس تحكم على الخلية أن تسير هذا المسار ؛ فيجب أن يعلم أن القانون نفسه رحيم من الاول فقرر ذلك ، وهيمن على تنفيذه ، فكان الفضل أتم ، فان كان ذهنه لا يزال مشغولاً بالمطابقة والوراثية ، فليرفع رأسه ريثما يدرك ، أنه في صورته وشكله كان غير أبيه ، أي أن المسألة ليست قوالب تتشكل فيها صور البشر . فان أبى إلا شيئاً جديداً على غير المألوف ليرى الارادة وقصدتها بحالة جدية تدفع كل شبهة وتنفي كل احتمال . فاني أدعو من يفكر مثل تفكيره (فقدّمات هو) للملاحظة التجربة التي أجراها الباحثون على خلية ملقحة (لقنفذ بحري) جاء في كتاب فتوحات العلم الحديث ص ٢٦٩ : « خذ خلية ملقحة من خلايا القنفذ البحري ودعها تنقسم إلى خليتين ، ثم خذ كلا من الخليتين وضعها في إناء ملي حدة ترها وقد نمت قنفذاً بحرياً كامل الأعضاء ؛ أو دع الخليتين تنقسمان إلى

أربع خلايا أو ثمانى خلايا؛ ثم خذ كلا من هذه الخلايا وضعها فى إناء على حدة وتم قنفذاً بحرياً كاملاً .

فلماذا تنمو كل خلية إذا فصلت عن غيرها قنفذاً بحرياً كاملاً . ولكنها لا تفعل ذلك إذا بقيت واحدة من طائفة من الخلايا ؟

وما الطريقة التى تعلم بها الخلية المفصولة أن عملية تخليد الحياة تقع على عاتقها فتتنمو قنفذاً بحرياً كاملاً ، هذه هى التجربة التى ذكرها الأستاذ فؤاد صروف فى كتابه المذكور وعلق عليها كما ترى .

والواقع أن ذلك أمر يستلفت النظر فكان الخلية تتصرف تصرفاً مناسباً للحالة التى تطرأ عليها . ولو كانت تمضى فى وجهة قد شذت إليها شذاً لاتملك سواها لما كان فى استطاعتها أن تتصرف تصرفاً جديداً إزاء هذا الحادث الجديد .

فاذا تقرر ذلك فما يلغى أن نستريب بالأمور وهى تتجه فى وجهة واحدة لا تغيرها لأن المصلحة التى تتجه لأدائها لاتتم إلا على هذا الوجه الذى تتجه إليه ؛ ولو كانت قد صدفت عنه يمئة أو يسرة ماتتم - إن أحداً إذا تقدم ليرسم صورة حصان مثلاً؛ فهو لابد أن يسلك فى رسمه السبيل الموصل إلى رسم الحصان ولا ينحرف عنه لأن الغاية تحتم عليه ذلك ولا تتم إلا بذلك وليس معنى هذا أنه مضطر ؛ كلا - فقد كان يستطيع ألا يرسمه (١)

إنظر الروح

ويأتى بعد ذلك أمر الروح ، فيسكرونها استناداً على هذه النظرية ، أو

(١) انظر موعود الجبر والاختبار فى باب (تعهد سمات الالهية) من القسم الاول

يوصلون إنكارها ؛ متخذين منها مبرراً قائلين : هذا الانسان مثل الحيوان إذن ، اشتق بما اشتقت منه ؛ بل ومثل النبات كذلك ؛ فلماذا تكون له روح دونها ، ويمتاز بشيء سواها ، كلا كلا ؛ هذا وهم وضلال ، انظروا الى الحيوانات ؛ إننا نرى لها من الحياة ونرى لها من السكر ، وهي تدبر ؛ وهي تحتاط ؛ هي مثل الانسان في كل شيء ، وما كان هناك من فرق ؛ فهو كيتي لا كيتي ؛ هو فقط ترقى دونها ؛ وكذلك النبات له شيء جزئي من ذلك ، أنه يحس وتؤثر المخدرات فيه ، ولقد كان الكلام يطول لولا ما أظهره العلم أخيراً من أمر المباحث الروحية التي ردت أصلب الماديين عوداً ، وأعصاهم قياداً ، وأكثرهم اطمئناناً لما كان يراه ؛ هذه المباحث قد ردت هؤلاء الى إيمان كإيمان العجائز ، وقد وقفنا على شيء من أقوالهم ، فلم يعد للكلام في هذا السبيل من داع^(١) أما هذه الشبهات فهل كانوا يريدون ألا تتسلح الحيوانات بما يعينها على أمرها ؟ وكيف كانت تعيش لو لم يكن لها هذه الحالات ؟ إنها مكلفة أن تحتال على رزقها ؛ وأن تربي أولادها ؛ وأن تدافع عن حياتها - فلا بد لها من الوسيلة الى ذلك .

ولو كانوا يحسنون بالوجود ظناً ما أوقعتهم النظرية (ولو صححت) في مثل هذه الريبة . لأن الانسان لو كان صحيحاً اشتق بما اشتقت الحيوانات منه ، بل والنباتات ، فهو - وقد ترقى دونها - لم لم يحصل على ميزات ليس لها منها القليل ولا الكثير ؟

هذه النباتات : إن تقف على عود من أعواد القمح قد استوي وقد

(١) راجع المباحث الروحية من القسم الثاني من هذا الكتاب (شبهة جلول أعمال الحياة من غرض آخر)

تُكامل نضج حبوبه ثم ترتد بذاتكرك الى الوراء لتستعرض ماضيها ،
ما ترى لهذه الحبوب التي له الآن أى أثر في حالته الأولى ؛ وهو عود
حشيشي أخضر .

فتلك الحبوب بنت الطيور الأخير ، قد تولت خلاياها إنشائها وبناءها
في حالتها الأخيرة .

والكلام في أمور الحياة التي لا علم لنا بخصوصياتها ، وميزاتها ودرجاتها
يسكون عبثاً ، ويكون ضللاً ؛ وحسبنا ما أوقفنا العلم عليه في هذا السبيل
فهو أتم إقناعاً وأهدى سبيلاً .

مُبهات خطيرة

إننا نستدل على عناية الله بالبشر، والكائنات الحية الأخرى، بما زُوِّد
به كل منها في جسمه من أعضاء وحواس وأجهزة قد اختلفت باختلاف
كل نوع ؛ وحُوت بحسب ما تتطلبه حياة كل نوع ، وهيئت تماماً لتقوم
بعملها ؛ وتؤدي الغرض منها ، ثم اختير لها المكان اللائق الذي لا يناسب
سواه ..

والملاحظون يتخذون من نظرية التطور ، وجهة فوضوية يحملون عليها
هذه الآثار الرحيمة ، تبرر الإلحاد في نظرهم وتجانب الايمان .

يقولون : إن الكائن الحيّ — وهو مجبول على التغير — فان تصادف
وجاء لون من ألوان التغير صالح ، مقوّ له ومعين ، تواريثه بنوه ، ويستمر
التغير حتى يأتي لون آخر ، يضاعف اللون السابق يتوارثه عنه بنوه وهكذا .
فعلى هذا النحو تكونت الأعضاء ، ونشأت الحواس ، وتم بناء الأجهزة ،

وكان وضع كل منها في الوضع المناسب الحاضر؛ هو آت على هذه الوتيرة أيضاً، يساعد المصادفة على إتمام العمل العجيب الذي رأيناه الآن - ما يكون من أن كل نوع من أنواع التغير غير مناسب يبيد صاحبه؛ فلا يبقى إلا الصالح فيستمر ويخلد ويتضاعف حتى يتكامل ويتم.

جاء في كتاب الدكتور شبلي (فلسفة النشوء) ص ١٣١ : «إننا نتمتع اليوم من صنع العين الدقيق التي هي أكمل الأعضاء والطفها، والتي أصلها حسب تحليل دارون، نقطة عصبية حساسة، ارتقت حتى بلغت حالتها الحاضرة بعد أن مرت بدرجات من التغير غير محدودة،

ويقول في ص ١٣٩ : «يرى علم اللاهوت أن وضع الأنف في وسط الوجه وعدم وضع العينين في لمهام الرجل؛ غاية في الإحكام والحكمة، والحقيقة إن من ينظر إلى ذلك الحاضر الآن بقطع النظر عن الماضي يجد فيه من الموافقة والمطابقة ما يحسبه مقصوداً، والعلم لا ينظر إلى ذلك الحاضر؛ بل ينظر إلى ما كان عليه في الماضي، وبأى الطرق وصلت إلى ما وصلت إليه، فمن الجهة الأولى على مبدأ الانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء؛ تقوى الأعضاء الموافقة، والصفات المناسبة على سواها؛ في الدهور الطويلة، ومن جهة أخرى على مبدأ الارتقاء والوراثة، تُحفظ في الأجسام الحية، الأعضاء لا فائدة لها وقد تكون مضرّة أيضاً،

على ذلك فكان هذه الأعضاء تكونت - كما فهم شبلي - على نحو ما تكون الجزر من رواسب النيل في مجراه، وكأنا إذ نعلق أهمية على هذه الأعضاء، قوامها القصد والتدبير والرحمة؛ قد وقعنا في الوهم الذي يقع فيه

من أتى إحدى هذه الجزر فوجدها صالحة لسكناء ، فقرر فضلاً لغير
ذی فضل .

الدكتور يقول إن وهماً سببه أننا ننظر الى الحالة الحاضرة وكفى .
واقفه ان الوهم لا يرتضيه أحد ، فلنسر وراء هذا الدليل الحادق لنرى
ما تسفر عنه النتيجة .

لننظر الى الماضي البعيد جداً حتى نصل الى أول أدوار الحياة ولنتمثل
أنفسنا قبل أن تكون لنا هذه الأعضاء والأجهزة والحواس . لننظر الى
حالتنا الأولى اذن ؛ ونحن خلية مجردة عن كل تركيب .

وأسفاه على الدكتور ! إن العناية هنالك بحذاقها ؛ إن الخلية تبصر
ولا عين لها ! وتسمع ولا أذن لها ! وتشم من غير أنف ! وتنتقل من غير
رجل ! وتعرف ما ينفعها فتقصده ! وتعرف ما يؤذيها فتهرب منه ! وتهضم
الطعام ولا معدة ! وتتخلص عن فضلاته ولا جهاز لإخراج !

لقد انتهينا اذن الى حيث بدأنا ، ورحمة الله هنالك كما هي هنا ؛ وفعل
الظروف والأحداث ؛ وكرر الدهور والاحقاب ، لم يأتنا بجديد ، لسكان
هذه الجوارح والأعضاء — وقد تكوّنت على حسب فهم الدكتور هي
في الواقع — بناء على مازى في الخلية الأولى — كالمنظار على عين المبصر .
كان مبصراً قبل أن يأتبه ؛ وذلك ناقض لفلسفته ؛ رأساً على عقب ؛ لأن
النتائج التي تأتي بعقب تكوّن الأحداث ، لا يكون لها وجود قبل
تكوّنها .

إن عناية الله بنا ليست مسألة تاريخية ، حتى تشكك كوننا في وثائقها

وأسانيدها ، بل هي متكررة ومستمرة ، ومتجددة كل يوم وكل ساعة ،
تهاجم أحدنا الميكروبات فإذا بالخلايا البيض لنا منها سياب ، فإن تغلبت
الميكروبات وزحفت الى الداخل ، تولت المناعات الجسمية محاربتها والقضاء
عليها ، بافرازات كيمياوية تلشأ لوقتها ، ولا أدري لمصلحة من هذا الفعل -
سوانا ؟

على أننا إذ نتجه الى عالم الأحياء ، نجد الضفدعة مثلاً تكون مائية في
أول أدوار حياتها ، وعندها الاستعداد للحياة في الماء ، ثم تتحول حالتها
بجأة لتناسب الحياة البرية التي تنتقل اليها . ذلك ما يمر أمامنا ولا أحداث
فعلت ولا تغيرات تكررت وتجمعت كما تذكرون .

ليس لي - طبعاً - مثل علم دارون وغيره من فطاحل العلم ولا قريباً
من ذلك ، ولكنني أذكر مشاهدة واقعية لا بد أن يجعلها في حسابه ، مادام هو
يريد أن يضع للحياة قاعدة عامة قوامها التغير .

ثم لم لا تكون هذه التغيرات التي تذكرون ، هي - فقط - عون لبني البشر على
تمييز بعض أفرادهم عن بعض ، وتمييز مقتنياته من الحيوانات وسواها ؛ بدليل
أن التغيرات تكون أكثر ما تكون في عالم الانسان ، ثم تخف نوعاً في
الحبوان ؛ ثم تخف أكثر وأكثر في الثمار ، فهي تناسب كثرة وقلة بحسب
الحاجة الى التمييز ؛ وعلى هذا الأساس ، ومثل هذه الغاية وضع
الناس الاسماء للأفراد ؛ فلما تكررت الاسماء بينهم ، وبدأ الاشتباه يدب
قرنوا اسم الشخص بأبيه ، فلما تكرر ذلك أيضاً ووجد في الناس من اسمه
واسم أبيه مثل سواه أضافوا الجد لرفع هذا الاحتمال الثاني .

ولكن مالنا وذلك - حسبنا أننا سايرنا الملحدين في وجهتهم ؛ فوجدناهم يلحدون اخير سبب ، ويتخذون من نظريات العلم التي اصحابها مؤمنون ، حجة ليكونوا بها كافرين . وليس عجيباً - فرّب شقي بشيء غيره به سعيد . فالعلة على ذلك ليست في الشيء نفسه ، وإلا لشقي به صاحبه ؛ بل هي تتعلق بالشقي ذاته ، يُبحث عنها بين أطوائه .

* * *

وينقضون الإلهام الذي نراه في عالم الحيوانات فنستدل به على رحمة الله بهذه المخلوقات أو يحاولون نقضه على النحو الآتي : يقولون إن مانسليه إلهاما آت من مصدر إلهي رحيم ، هو في الحقيقة متكوّنات عادات ، رتّخت في الأنواع متسلسلة من الأصول إلى الفروع ، فهجرة الطيور سببها أن الأصول الأولى حدث لها في موطنها الأصلي ما أزعجها فهاجرت ، وتكرر ذلك الحادث فتكررت الهجرة ، فأخذ الفروع عن الأصول هذه العادة ، وما زالت ، ولو لم يكن هذا الحادث ما كانت الهجرة . ويأتون بقصة لما بقي مما نراه في هذه الحيوانات في بناء العش وحضانة البيض وهكذا . والكلام يطول . لو قلنا لماذا كان الإنسان وهو أكثر الأنواع الحيّة رقيّاً واستعداداً يخرج إلى الوجود لا يعلم شيئاً مما كان عليه أبوه . وما بال الحيوانات التي من عاداتها أن تموت عقب البيض بعد أن تهيم الوسيلة للحفاظ عليه ، وتُعدّ الغذاء الكامل لصغارها المستقبليين . ممّ تعلّمت ذلك ولم تر أصلاً لها تعلّمت منه ؛ وتمضي في السلسلة إلى الوراء فتجد الحال هكذا جميعه ، الفروع لا ترى أصلاً لها أبداً (١)

(١) اقرأ كلام العلماء في هذا الشأن في موضوع الإلهام من القسم الأول من هذا الكتاب

في الواقع أن ذلك شيء لا جواب عليه ولو صح تفسير بعض أنواع
الالهام بمثل هذه (الفوازير) فإن غالبها لا يستطيع تفسيره . فلو ظننت أن
الأمر من المعضلات الوقتية التي سيحلها الزمن ويتولى العلم نفسـيـرـها
وأصررت على أنها عادات ؛ قلت لك ومع ذلك فرحمة الله بادية لأن هذه
العادات مارسخت في هذه الأنواع ، إلا وفيها قابليات لرسوخها ، واستعداد
في البلية ، وهي لها لتنتفع ، وإذا علمنا أنها لولا هذا لهلك ، إذ ليس في
عالم هذه الكائنات مدارس ومدرسون ، وإن منها ما يعيش منفرداً فلولا
تَرْصُّكَ أصوله تنحدر إليه لينتفع بها ، وهي ليتلقاها لهلك ، لو وجدت رحمة
الله في الأمر على أي وجه تحمله .

وإذا أضفت إلى ذلك أن هذه القابليات فيها هي وحدها وليست في
الإنسان لأن له عنها غناء ؛ علمت أن العطاء بقدر ، فإذا تأثرت بقانون
المطابقة ، وقلت إن الإنسان ما كان هكذا إلا لأنه وجد نفسه غير محتاج
إليها ، ولو اضطرت الحياة وتوقف بقاؤه على علم ما كان عليه أبوه لو وجدت
فيه القابلية ، ولنشأ يجد من أبيه ، ما تجده الحيوانات من أصولها . قلت لك :
فكان العطاء مذخور في الجميع ينتفع به من اضطرت له الظروف إليه —
فالرحمة والحكمة لم يختلفا . وتدبر معي : لماذا كان ما يتأثر بالعادات هو المنح
دون الرجل مثلاً . أليس لأن الأول فيه القابلية لذلك دون الثانية ؟ وحسبنا

* * *

ويأتي بعد ذلك أمر الدين فيطبقون عليه نظرية التطور فيجدونها فعلاً
تنطبق عليه ، بدأ وئناً متقلباً في مناح عدة من الوثنية ، ثم إلى التوحيد رأساً
أو إلى التشليث قبل ذلك ، ويتخجلون من ذلك دليل على بطلانه وليس بفاعل

ولقد أحسنوا صنعاً إذ أتوا باللغات فوجدوا مامراً (بالاديان) مرّ بها .
 عانت تطورات وتحوّرات واتجاهات بصياغة ألفاظها هنا وهناك .
 الواقع أن الأوهام تلابس تفكير كل باحث وإلا لم يكن باحثاً ؛ إنه
 إن كان يصل إلى الحقيقة رأساً فذلك ليس بباحث ؛ بل هو مُلهَم وموحى
 إليه ، هذا العلم الذي بين أيدينا هو خلاصة افتراضات وظنّيات استخلص
 منها بنسبة قد لا تصل إلى ١ في المئة فأى ناموس من نواحيس الطبيعة استيقناه
 الآن وصرنا ننعم به ، إن تلتفت إلى الوراء لنستعرض ماضيه نجد في سلسلته
 تعرّجات وافتراضات . كانت تتجالح عن جوانبه طوال ما امتد . حتى وصل
 إلى ما هو عليه الآن .

إنما السؤال يجب أن يتجه إلى أصل نشأة الدين وهل هناك من
 سبب طارىء وجدت بوجوده بحيث لو لم يكن وجد ؛ ما كانت توجد ؟؟
 يدل كلام العلماء على أن الدين كان مع الإنسان منذ نشأته ومن قبل
 أن يكون له علم أو فن أو خلق ، وقد سبق أن قلنا لماذا هو فطري وكيف هو
 فطري فشأنه شأن اللغة ، الحاجة إلى كل منهما لا يمكن الاستغناء عنها ، ولذلك
 تعرضا لتقلبات الزمان . واصطهدما بأحداث الأيام ومع ذلك ظالا باقين .
 تختلف الصورة وتتشكل ؛ والجوهر باق لا يزول ولا يحول .

إن الفرق بين الشيء الخرافي يُتلقى به أحداث الزمن إلى نطاق التفكير
 وبين الشيء الأصيل الفطري ؛ أن الأول يُطوى تحت أطباق النسيان مع كثر
 الأيام واستنارة الفكر . أما الثاني فهو يتقلب ما يتقلب ، ولكن يظل حياً
 باقياً . إن العلم يُعدّ له ولا ينفيه . فلتن قال شبل عن الأديان إنها أضغاث

أحلام فذلك في ظنه هو، أما العلم والعلماء فيقولون : إن الإلحاد مرض يتطلب العلاج ؛ وعلماء النفس يقولون إن الحاجة إلى الأديان كالخاجة إلى الطعام والشراب ؛ ولئن قال (شيلي) عن الأديان : « أنها متحرلات أو هام ، فليطلب إلى العلم لينظر في المرأة ، ليجد أن تاريخه من هذه الناحية لا يختلف .

هل هذه النظرية ولو صحت يحذفها تريب

إنني إن اعتقدت كما تعتقدون بصحة هذه النظرية ، وقررت معكم أن أصل جميع الأنواع الحيوانية واحد ؛ وأوغلت في الاعتقاد حتى صرت أقدر بما تتمنونه من إمكان التولد الذاتي — فقلت به سلفاً ومن الآن — وافترضت أنه قد صار حقيقة واقعة ، أقول إنني إن فعلت كل ذلك ، فما أرى في الأمر ما يدعو إلى الريبة ولا يبعث على الجحود والانكار .
ولكى أبين لك ذلك أرجو أن تتدبر معي تلك الحقيقة المشاهدة المدوسة التي يعرفها كل منا . حقيقة أن العامل ليس حتماً أن يعمل بيديه . فقد رأينا المخترع يخترع الآلة فتعمل بالنيابة عنه وتظل تعمل له ، وتنتج مصالحه ولو غاب .

زد على ذلك مانعته نحن في ذات الله من أنه ليس مادياً ؛ وعلى ذلك فلو كان يعمل بيديه وحاولنا أن نراه بأبصارنا وهو يعمل ؛ فإن ذلك يكون تكليفاً للأمور بما لا تستطيعه الأمور .

وحتى لو أبيت الموافقة على ذلك ، قلت لك الموافقة وعدمها لا يهم ، لأن مدار البحث سيكون في أفعال حاصلة أمامنا ، وإلى من تنسب ، فلا دخل لذات الله وعلى أي حال هي بالمسألة

ومن المحقق أنك لا تجهل أن اللاسلكي مكّن الانسان من أن يرسل الطائرة فتستمر مشيئته وتنجز غرضه وهو عنها بعيد — بينه وبينها أميال وأميال . وإن من يرقب الطائرة وهي تجرى في مجاريها ، وتؤدي مهمتها ، ثم تعود إلى مقر التأيادة ، فتحمل العتاد من جديد ، وتؤدي مهمة أخرى وتقفل راجعة . طبيعي من راقب ذلك لا يشك فيما تحمله من قصد ، هو قصد مرسلها وما تتجه إليه من غرض هو غرضه : وما يدل عليه فعلها من اقتدار هو له . كل ذلك يراه من هو في أرض العدو في الساحة التي تعمل فيها الطائرة ، ويدرك كل هذه الصفات التي للراسل ممثلة في عمل الطائرة : وإن كان بعد ذلك لا يستطيع — وليس بجوهري — أن يعرف هل الراسل أبيض أو أسود ، وطويل أو قصير .

إذا تقرر ذلك : فأحداث النظرية التي وافقتك عليها الآن كما تبغى ، وأكثر مما تبغى ، بيننا وبينك في تأويلها 'خلف' . أنت تنسبها للمصادفة العمياء ، والفوضى الهوجاء ، وأنا أقول كلا إني أرى في أحداثها سمات التدبير والحكمة ، والقصد والغاية — فلننظر معاً لنرى الأمور إلى أين .

١ — حينما اعترض المعترضون على هذه النظرية : بأن الكائنات الحية ذات الخلقة الواحدة — ما بالها لا تزال عند بدء سلسلة الحياة لم تدرج ؟ في حين غيرها قد بلغ غاية الشروط — وقد كانا معاً في نقطة واحدة من الأول ، علل رجالها ذلك بأن عقبات وقفت في سبيلها فنعتها ، كما نلاحظوا أن هذه العقبات لو لم تكن ، لسارت هذه الأحياء في مدارج الرقي كسواها ، وهذه غفلة خطيرة — ما كانت تجمل بهم — عن مستلزمات سير دولا ب الحياة العام

لأن هذه الحيوانات لو كانت قد ترقّت كخيرها ، أو قريباً منها ، وأقفرت
دركات الحياة الأولى من مثلها — وهى كانت تخلو حتماً — ماداموا يعرفون
قبل غيرهم أن نشوء الحياة من الجملد الآن ، قد صار غير حاصل — حتى قرروا
أن الأحوال ربما كانت مواتية في الماضي ولم تعد

أقول . . لو أن هذا الرق حصل لها وخلت دركات الحياة من مثلها .
إذن لانهار بناء الحياة جميعه . لأن لهذه الأحياء الدنيا ، رظيفة البيكتريا التي
سبق أن قلناها مراراً ، فهى حلقة من حلقات المواليد الثلاثة ، يترتب على
فقدائها وقوف الدولاب العام .

فهو تدبير ذلك الذي أبقي هذه حيث هى ، عند الدور الأول ولا يزال
يبقيها ومصلحة الحياة تقتضى هذا البقاء وتحتّمه ، ولا تقوم لها قائمة بدونه
٢ — من الأخطاء التى تقعون فيها في التدليل (ولا أعرف كيف
تقعون فيها) أنكم : لاعملية تقومون بها ، تجارون فعل الطبيعة بها من
تركيب اللشا أو السكّوول أو غير ذلك ، إلا ويحضر كل منكم ذهنه ، ويبدأ
الغفلة عن نفسه لكيلا يسهو فيخطئ فلا يحصل على التركيب الذى يريد
— وهو لو كان أخطأ لما حصل على التركيب فعلاً — ثم بعد ذلك تنسبون
هذا الفعل الذى تطلب منكم هذه اليقظة ، وإعمال الروية والتفكير وخطئة
مقررة مرسومة ، تنسبونه للصدفة ، كأن الصدفة تقوم مقام العقل أو العقل
يقوم مقامها ، والصدفة بمعناها المقرر المعروف ، هى عمياء لا وجهة لها ولا
قصد لها ولا غاية ، ولا خطة يمكن أن تحتفظ وتسجل ، وذلك هو شأنكم
أيضاً حينما تبحثون أمر التوالد الذاتى ، وتريدون أن تعرفوا كيف كان

وعلى أى وجه كان ، يُجرى كل منكم التجارب المعقولة التى يُظن أن يكون
أتى على مثلها ، ويسأل العلم عن خصائص اللواد يمكن أن تنير له السبيل ،
ويسأل لذاكرة أن تكون قد وقعت حادثه (قد وقعت فى ميادين البحث
لباحث) يمكن أن تهدي إلى النجاة ؛ أى أنكم تتوقعون أن التولد كان -
(إن كان) وحصل (إن كان حصل) على وجه على معقول . وكل
ذلك ما للمصادفة به يدان ، فنسبة هذه النتائج العلمية المعقولة التى تقومون بها .
إلى المصادفة ؛ هو خلف وتناقض بين المصادفة وحدّها وسماتها وحركتها ،
وبين هذا الذى تنسبونه إليها - خير لكم أن تقولوا إن الطبيعة التى فعلت ذلك ،
هى عاقلة حيث هى فعلت شيئا محقولا ، وعلى ذلك نكون قد بدأنا تنفق ، أو
يكون الأمل كبيرا فى الاتفاق .

٣ - الفوضى الهوجاء التى تقولون إن ركب الحياة قد امتطاهما ؛ حتى
ارتقى إلى مراقبه ما كانت لتحفظ - (ولا تستطيع أن تحفظ) على كل
فرد من أفراد الفصائل والأنواع ، ما تحتاج إليه حياته من حواس وأجهزة
وأطراف فى كل شكل تتشكل به ؛ وعلى أى صورة يمكن أن تكون عليها
وأن تهيم المصادفة للفرد أعضاء التذكير والتأنيث فى جسمه ، إن كان قد
وصل إلى طور لا يمتنع فيه من الخارج ؛ وأن تُعد لكل ذكر أنثاه ؛ ولكل
أنثى ذكورها ؛ إن كان قد وصل إلى طور يحتاج فيه إلى قرين ، فإن كنتم
تحملون هذا الأمر الذى لا يسع المصادفة القيام به إلى الوراثة . فهمى تنقل
الصورة التى كانت فى السلف بحواسها وأجهزتها إلى الخلف ثم تتكرر

حركة الاختلاف فتتراكم وتسجل حتى تصل إلى صورة تلقى بنفسها ؛
 مهياة لذلك مكتسبة أسباب ذلك ؛ وبعد هذا تنقل الوراثة هذه الصورة
 الصالحة في النسل مادام غير الصالح يبيد ويتلاشى ، فاسمح لي أن أقول إنى فى
 هذه الموامل الجافطة ؛ المسددة الممانعة للفساد أن يدب إلى الأحياء ؛ أرى سمات
 التدبير ، إنه يذكرنى بما كينة تدرية الغلال وحركتها التى يتمخض عنها
 الحادث العجيب ؛ حادث انفصال القمح عن الغلت ، فإن الحب والغلت
 يتحركان معاً بحركة الغربال ويشتركان دعماً فى تلك الحركة ، بحيث لا يفضل
 نوع على نوع فيها ؛ ولكن بعد ذلك فالفضل فى الانفصال ، يرجع إلى
 تلك الثقوب التى فى الغربال ، ثقوب الحبوب مفصلة بحسب جسمها فى جهة
 فلا بد أن تنفذ منها ، وثقوب الطين فى أخرى مفصلة هى الأخرى لها لى
 لا يدخل سواها . فعاد العملية مصادقات والتدبير وجهها فينبغى ألا يغفل .

٤ — إنى لا أستطيع أن أتصور أن التطور - وقد جعلتم المصادفة
 للحياء أساسه ؛ والقوضى التى لا غرض لها سائقه - لا أستطيع أن أتصور
 أن تطوراً هذا شأنه ينتج عنه هذا التقابل العجيب بين النباتات الزهرية
 المختلفة ، والحشرات المتنوعة التى تلتفحها - فتعمل المصادفة والقوضى على أن
 يظهر هذان الجنسان المتعاونان إلى الوجود معاً . كأنهما على ميعاد .

نعم إن شخصاً يهيم فى الصحراء يبحث عن القوت لا يجده ، قد يسلك
 طريقاً يجد فى وسطه أو أثناءه شيئاً يؤكل - المصادفة لا يعوزها ذلك نعم ،
 ولكن ما هنا غير ذلك ، إن الأزهار متنوعة تنوعاً كثيراً ؛ والحشرات متعددة
 بتعددتها ؛ وبين كل زهرة وحشرتها من التوافق والالتئام ما لا يتأتى للمصادفة

أن تقوم به ، ما دامت لا قصد لها ولا غرض . إن الزهرة ذات لون بحسب ما تبغى حشرتها ، ورياح وفق ما تشتهي ؛ و فارق ذلك فهي في عمقها أو قربها متوافقة مع خرطوم الحشرة الخاصة بها طولا وقصرا ، وفي تفتحها وانقباضها متوافقة مع الوقت الذي توافيها الحشرة فيه .

فإن كانت المصادفة تفعل ذلك ؛ فما أعرف مصادفة لها تدبير إلا معكم ، وما أعرف فوضى قد صارت ذات قصد إلا عندكم . وعلى ذلك يتحتم عليكم أن تعيدوا تعريف المصادفة والفوضى من جديد - فلم تعد الأولى عمياء ولم تعد الثانية هائمة .

هـ - سلمنا أن الحياة نشأت من الجاد ؛ على نسق التولد الذاتي ولكن ما الذي هيأ لها تلك البيئة الصالحة ؛ التي لو لم تكن لانطفأت شعلتها لحظة انبثاقها ؟ إن الحياة تتطلب هواء ذا تركيب خاص وغذاء من نوع خاص وماء له قوام ، إن يختلاف يموذ غير صالح ، وضوء بقدر ، وحرارة بقدر ، وهكذا . ما الذي جمع بين هذه الأشياء اللازمة كلها وأتى بها إلى حيث انبثقت شعلة الحياة هذه ، فائن كان تطور آخر قد صاحب الأكوان ؛ حتى تكاملت ، فنتجت هذه الآثار حيث توجد الحياة بالذات ؛ وتجمعت كل اللوازم لم يغب شيء . وتكيفت بحسب ما يوافق الحياة ، والمصادفة أيضاً كانت العامل الفعال . فلعمري لم يعد للتدبير والعقل والحكمة من ميزة على المصادفة لأن ذلك غاية ما يمكن أن تفعله هذه الأشياء . وعلى ذلك فقد اختلطت الأمور عندكم ومتى اختلطت الأمور في نظر العقول ؛ فلا أدري كيف يستطيع عملا بعد ذلك .

فيأصاحي : إن العملية التي قنم بها في تركيب البروتوبلازما رغبة أن

تدب الحياة . لم تكن هذه العملية وحدها ، بالنى يمكن أن وتنسب للمصادفة لأنكم تعلمون أن التركيب من مواد مقررة ، و بنسب مقدرة لا تختلف ، لذلك كنتم تتساجون باليقظة والتهير وتستعينون بالميزان ، فلماذا كل ذلك لو كانت المصادفة العمياء تفعله .

ولو فرضنا وأن الحياة كانت دبت فعلا حين تم التركيب ، فالجو الصالح لاستمرارها ، على سطح الأرض المشتتل على هواء وغذاء وماء وحرارة وضوء لا يمكن أن يكون قد جاء اعتباطا ، لأنه لا وجود له إلا حيث هى ؛ أليس إحضار انقلم والقرطاس والمخبرة للكاتب ليكتب يتطلب علما بما لزم ، وتميزاً ليختار صاحبه ما يلزم ثم يقدمه - تلك صفات لا يتسع لها معنى للمصادفة كما تفهم الناس المصادفة ، وقل مثل ذلك فى الأمور الأخرى التى قلت أنها توحى بالتدبير وعلى ذلك فهمى تتنافى مع الفوضى .

إن الذى يوقعكم فى هذا التناقض ، أنكم ترون الأحداث ولا ترون الفاعل الذى يحدوها - فلا تهترون أن يكون لها فاعل ؛ مادام ليس بالذى يرى ؛ لماذا ؟ هبوا الفاعل كمراسل اللاسلكى الذى ينجز أعماله ويتمم مشيئته وهو عنها بعيد ؛ واعترفوا له بالقصد الذى تم عنه فعله ؛ والتدبير الذى اشتمل عليه فعله ؛ ولا تذهبوا فتنسبوا للمصادفة ما يتناقض (إن كان لها) بمعناها ويبطل وصفها - إنكم لعمري تشبهون بعمالكم هذا - ذلك الذى يريد أن يدخل الجمل فى سم الخياط - وليس بداخل فيه أبدا .

الله و العلم

لقد شاع خطأ - وكثيراً ما يشيع الخطأ حتى يعم - أن العلم لا شأن له بالبحث عن الله . ويدلل القائلون بهذا القول العجيب فيقولون : إن الله ليس مادياً والعلم إنما يبحث عن الماديات ، وهذا كان يقال لو كان غرض الباحث العثور على ذات الله تعالى . ولو كان ذلك غرضاً لأحد ، لكان ذلك الغرض (بدءاً) وعلى غير مألوف البحث . لأنه مامن باحث كان غرضه البحث عن ذات الشيء أبداً ، أو تكييفه . إنما البحث عادة يكون في آثار الشيء فقط ، ومن هذه الآثار ؛ نستدل على وجوده بعد ذلك . وكثيراً ما تتوالى آثار الشيء حتى تعم ، ومع ذلك يكون الشيء ، نفسه غير معروف كنهه ، ولا يُستطاع تكييفه .

إليك مثلاً الجاذبية العامة ، إن آثارها بما لا يستطاع حجوجه ، وهي تبعاً لذلك قد صارت بما لا يُمارى فيه ، ولكن إن تسأل عن الجاذبية نفسها (ماعداها تكون) لا تجد عند أحد جواباً لسؤالك ؛ قال (دارون) في كتابه (أصل الأنواع) ص ١٥٨ في صدد الرد على اعتراض وُجه إلى مذهبه : « أما اعتراضهم - القائلون بالخلق المستقبل - بأن العلم لم يلق بشيء من نور البيان على ماهية الحياة ، فمعرض مفلول لا وزن له ، إذ من منهم في مستطاعه أن يبين لنا عن أصل جاذبية الثقل وماهيتها في حين لا يستنكف أحد من العلماء أن يمضي في مباحثه مسترشداً بالنتائج التي تترتب على ذلك

العنصر الغامض المبهم الذى يسمونه الجاذبية ، (١)
فأنت ترى أن العلماء لا يمنعهم من الاعتراف بالشئ إلا يسكونوا قد
عرفوا كنهه ، مادامت له آثار تدل عليه ، بل هم لا يتجهون فى مباحثهم إلى
كنه الشئ أبداً — وإلا لأوقفوا الاعتراف بالجاذبية حتى الآن . . . ولا
أدرى على ذلك ما بال أمرهم فى شأن الله قد اختلف .

نعم إن ذات الله ليست مادية ، فالبحث عنها هى نفسها ليس من شأن
العلم ، ولكن العلم مع ذلك يتعين عليه — إن لم يكن قد فعل — أن يفرق
بين المسواب والخطأ ، والبحث والحكمة ، والتدبير والفوضى — وهذه
الآثار هى نفسها موضوع بحثنا عن الله — فها أنت ترى أن موضوع الدين
قد صار فى دائرة العلم ، رضى العلم أم أبى .

إن الباحث يرى الخلية تنقسم فلا يجد فى ذلك عجباً — فذلك شأنها وتلك
طبيعتها — ولكنه حين يرى أن الانقسام قد شمل أجزائها المعدودة المحدودة
بدقة وضبط كما يفعل الحاسب تماماً ، وقد اطرده ذلك فمنع توهم أن يكون
التوفيق الذى رآه فى التقسيم قد جاء مصادفة ، فانه إذ ذاك لا يرى له مندوحة
من اعتبار شئ زائد على الانقسام ، وهو التدبير الذى راعى الانقسام ،
حتى كان مضبوطاً .

ثم إذا رأى أن الخلايا قد تكاثرت أمامه نتيجة للانقسام فلا يجد فى
ذلك شيئاً أيضاً ، ولكن إذا وجد أن هذه الخلايا قد تراصت وتجمعت ؛
وتنحت نحو صورة مقررة تريد تشكيلها وإبرازها ، فذلك شئ زائد

(١) نقلا عن كتاب ملقى السبيل للإستاذ أ. ج. مظهر من ٦٠

يتطلب الاعتبار .

لقد استرعت هذه الحالات العقلية التدبيرية أنظار العلماء واستولت على ألبابهم بحكمتها وصوابها ، ودقتها دقة مطلقة وقالوا في شأنها الكثير :

قال العلامة الكبير ولیم کروکس السكياتي الانجليزى الشهير :

(إن مانسميه ناموساً طبيعياً هو في الحقيقة مظهر من مظاهر الاتجاه الذى يعمل على موجب شكل من أشكال القوة ، ونحن نستطيع أن نعلل حركات الذرات المادية كما نعلل حركات الأجرام ، ونستطيع أن نكتشف جميع النواميس الطبيعية للحركة ، ولكننا مع ذلك لانكون أقرب بما كنا عليه إلى حل أهم مسألة وهي : أى نوع من أنواع الارادة والفكر يمكن أن يوجد خلف هذه الحركات الذرية مجبراً إياها على اتباع طريق مرسوم من قبل ؟ وما هي العلّة العاملة التى تؤثر من خلف هذه الظواهر . وأى ازدواج من الارادة والفكر يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات خارجاً عن نواميسنا الطبيعية بحيث يحملها على تكوين هذا العالم المادى الذى نعيش فيه ؟)

أما لو كنت حاضراً الاستاذ وهو يقول ، لأشرت عليه أن أوغل فيما أنت فيه فقد بدأت . لقد عرفت أن ما وراء الذرات إرادة وفكر (أى ليس عمى ولا فوضى) فسر هذا المسار . وصاحب الحركة إلى نهاية دورها لتعلم ما تسفر عنه ، إن كان خيراً أو شراً ، وطيباً أو خبيثاً ، وكل وصف تحصل إليه من ذلك فهو جواب .

وهو لو فعل لكان قد حمد الفعل ، وشكر المادى . ذلك لأنه

إن صاحب هذا التوجيه الذى يحدد الخلايا الحية ، وهى تتجمع وتراص ، يرى غايته تكوين الاعضاء لنا والحواس ، وقل ما ننعم به فى ذواتنا من فضل وإنعام ، وإن صاحبه فى حركات الخلايا النباتية يرى الغاية تكوين الثمار التى هى رزقنا وطبنا وشرابنا .

وهو بحكم مهنته قد صاحبه من نواح أخرى ، فإذا به يعمل على تكوين عالمنا المادى ، الذى نعيش فيه . فالتوجيه خير وبركة إذن ، وفضل عظيم ، لقد تجمعت الحركات المباركة من حولنا ، كل منها تعمل فى جهة لا غناء لنا عنها . وكان عملها دائماً مضبوطاً مقدّراً ، لا تقصير فيه ولا فضول .

وراء هذه الحركات المتنوعة حركة أخرى حتماً أعلم وأشمل ، قد وجهت كل منها فى جهة ، لتعمل لنا . فهى بنا أرحم وبحاجاتنا أدلم ، ذلك ما يقوله من شاء أن ينتفع بعقله ، وإلا فليلقه من رأسه فلا داعى إليه .

إن هذا ليس تخميناً ولا حدساً

هو كما إذ سمعت طرق الباب ، ففكرت أن طارقاً طارقاً ، فإن عجزت عن أن تلحق به لتراه لأنك مريض ، أو سعت له لتراه فلم تجده فذلك لا يعنى أن حكمك كان خطأ أبداً .

إن من قال بالأشعة الكونية ؛ لم يكن قد رآها ، ولكنه وجد آثاراً تدل على وجودها — فليس بتخمين قوله ، وليس بنى حدس ، إنما لا يشق عليه علينا النظام والفوضى ، ولا يغمّ علينا النافع والضار ، الأول مقياسنا إليه الحواس والثانى المشاعر — فأى مقياس للصواب أقوى من ذلك ؟

لا يغنى على مطلقاً أن أرى أن هذه الحركة توافقت مع تلك أم لا . لأن

ذلك ما أراه بعينى .

ولا أن هذا يؤلمنى وذاك يريحنى ، لأن مشاعرى تنبئنى بما تحسه من ذلك
فبهذين المقياسين أحكم ، فلا سبيل للضلال إلى أبدا .
إن ضلال الملحدين آت من أنهم ساروا ووجهتهم فى البحث : الحدث
وما يحدثه . وطبيعى كل حدث له سببه المادى الذى إن غاب اليوم ؛
فسينكشف لهم بعد اليوم .

والأقدمون كانوا إذا وقفوا على ظاهرة وغاب عنهم للسبب المادى
المؤثر فيها ينسبون فعلها لله ؛ حتى يأتى العلم فيكشف السبب فيخزى
حينذاك الضالون — لما كان ذلك شأن الأقدمين — فقد ظن الملحدون ،
أننا ماضون على وتيرتهم — كلما غاب عنا سبب مجهول ، نظنه الله ، فهم
يتصنعون الحيلة والحذر وبُعد النظر ، لكيلا يقعوا فى هذا الضلال —
كلا أيها السادة إننا مثلكم فى ذلك — إننا إن يغب عنا سبب ، فلا بد أن
ينكشف لنا يوما ما — ذلك ما نفهمه ولا نبحث عن الله على هذه الوثيرة .

إننا لا نقل إن الله أنزل المطر متجهين بهذا الحكم إلى الناحية الآلية ؛
حتى تقولوا لنا كلا — إنه البرد كثف السحاب ، بل من ناحية التدبير
والتقدير . ولا شك أن للتدبير والتقدير دخل فى كل أمر وله مقامه ومحموله .
إن شخصا يدق بالمطرقة على السندان يستحق المثوبة والشكر فى حين
غيره إن فعل الفعل نفسه يستحق الملام .

وما وقعنا فى خلط حين فعلنا ذلك ؛ فالأول كوفى لأن عمله كان
مناسبا ومقدرا تقديرأ صالحا فجر خيرأ ، والثانى كان على العكس فأفسد الغاية

فأستحق ما نزل به .

وإن ساعتين تُقدِّمان اليك تدق كل منهما ولا تنف ؛ قد تعمـ لو قيمة إحداهما في نظرك حتى تبلغ أضعاف قيمة الأخرى ؛ لا شيء إلا لما فيها من دقة وضبط قد خلت الثانية منهما ، ولا شك أن خلال الساعة ليس هو الوقوف فقط .

فالأعمال تجري في مجاريها مستجيبة لأسبابها الآلية ولكن يصاحبها بعد ذلك وفوق كل ذلك — سمات الخير أو الشر — والصواب أو الخطأ .

ولا شك أن للخير والشر والصواب والخطأ ، أسبابها التي تنتسب لها ، وتوجد بوجودها ، وتنعدم بانعدامها ، كما للفعل الآلى وجبلته أسبابه التي ينتسب إليها ، وسيلنا إلى إثبات الطرفين ؛ المشاعر والخواص .

فاذا كان العلم — كما تدعون — لا يعرف إلا الناحية المادية وجلبتها فلا شك أنه هازل ، ولا شك أنه مقتصر كل التقصير .

إنه على ذلك لا يفرق بين العمل الجيد والردى ، والحركة العابثة والمصلحية ، ولا بين العامل الحاذق والأخرق ، ومعاذ الله أن يكون العلم هكذا .

كأن كل أطباء الدنيا في نظر العلم سواء مادام كل منهم يعرف كيف يستعمل المشارط والسماكة ، ويغوص بأصابعه في جسم المريض . وكأن الناس مخطئون في نظر العلم ، حين فارتوا بين درجات الأطباء تبعاً لما يبدو في عملهم من حذق ومهارة .

وكان المرضى أصحاب الشأن مخطئون حين يتركون هذا الطبيب الجاهل

الذى لم يحسن فهم العلة ، وتكييفها ، إلى آخر فهمها وكتّفها ؛ ثم عالجها
فزال ؛ ومشاعره كاذبة ؛ والواقع غير موجود ؛ لأن كان العلم هكذا فالجهل
خير منه ؛ بل والناس يؤثرون الجهل عليه إذا أرادوا السير في الحياة ، لأنه
ليس فيهم إلا من يبحث عن السعادة الأجود ، ويطلب العامل الأذوق ،
ولا يضع وديعته إلا عند الأمين ، ولا يصاحب إلا الخير الصالح .
فنحن إن راقبنا حركة الكون الآلية فضررنا عنها صفحا وانجهدنا إلى
ما كان منها نعمة لنا ، نحن مقصودون بها ، لأنها مفصلة على حالتنا تماما .
فتعالتقنا بالسبب الآتى بها (وقد علمنا أنها لا بد ذات سبب) فما نعیش في
الأحلام ؛ ولكن الملحدین هم الغافلون .



وإلى العلماء الكونيين أقول : إن ديننا كديننا - دستوره القرآن في كل
شئ ؛ وفي أمر العقائد قبل كل شئ ؛ - لم يسلك بنا إلى إثبات وجود الله ،
طريق العلة والمعلول - حتى تقولوا : السبب القريب للعلم ؛ والسبب البعيد
لله على نحو ما كان يقول الأقدمون عن الله ؛ إنه علّة العالم ؛ بل هو أعان
لنا سميته ، وحدّد وصفه بأنه الرحمن الرحيم . فهذا الوصف نسير على ضيائه
في أنحاء الكون فنجد يد الله في كل شئ من أول سبب نراه يعمل في الكون
إلى آخر سبب .

فلنترك حركة الكون وجلبتها لما يكون أو من يكون لايغنيننا - ولكن
ننظر ما ينجلى عنه العمل ، فإن كان لغوا فما علينا منه ، وإن كان صلاحا
مقدّراً مقصوداً ؛ فثمّ أمر الله ؛ وذلك عظام الله ؛ قدمه بيده ؛ أو هيّأ
ما يقدمه - النتيجة واحدة ،

ولقد كان جديراً بكم وأنتم تسرون في سلسلة الأسباب والمسببات ،
والتنقيب وراء الأحداث لمعرفة ما يحدثها أن تعيروا الانسان التفاتاً ؛
لتعلموا صلة تلك الأحداث به - على نحو ما أشار عليكم بذلك الاستاذ
ميخائيل فوستر الفسيولوجي ورئيس مجمع ترقية العلوم البريطاني ؛ حيث قال في
خطبة الرياسة : (العلوم الطبيعية نفسها تلوم ذويها إذا قهروا نظرهم على
الطبيعة ؛ ولم ياتفتوا إلى أعمال الانسان ؛ وهو في نظرنا محور الطبيعة) (١)
في الواقع لو أنكم فعلتم ذلك لحصلتم على نتائج قيمة ؛ ومعارف واسعة
عن منطق الوجود ؛ وحكمة الوجود ؛ وتدبير الوجود ؛ مالم يكم عنها غناء .
لاتسيروا هكذا - كما أنتم الآن - تفتقدون من سبب إلى سبب ؛ جامدين
صامتين كأن الوجود آلة خربة قد تولت الصبغة العابثون إدارتها ؛
فتحركت عجالاتها لغير غرض . وكأن هربرت سبنسر الفيلسوف الكبير
قد أشار إلى هذه الغاية التي تهفوا اليها نفسى حين قال : (ليس الغرض من
علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر الطبيعية ؛ وإنما الغرض الاسمى أن يشرف
الانسان على ذلك السر الباهر ؛ ويستطلع تلك العظمة الإلهية من وراء تلك
الحدود التي يفتى اليها علم الطبيعة)

ماضركم لو بحثتم أمور الكون على نحو ما فعل العلماء حين درسوا
الألبان ، وعرفوا احتياجات صغار الحيوانات التي ستغذيها تلك الألبان ،
ثم وجودوا (بغاية الدقة والضبط) ان كل نوع منها مهياً تماماً لصاحبه ؛
لا يقوم نوع مقام آخر أبداً ، أليست تلك النتائج علمياً - لعمري إنها لعلم
بل وحكمة وتدبير ؛ والوقوف على الحكمة ومداها ، والتدبير وغاياته

هو علم أيضاً - وعلم الذن وأشبهى .

والغريب أن المؤمنين منكم ما آمنوا إلا بالاتجاه الى هذا السبب والدلائل التي بنوا عليها اعتقادهم ، وأعلنوها ، تدل على أنهم قد اتجهوا إليه ؛ ثم هم لا يلبثون وقد قضوا من الايمان لبائناهم أن يعودوا إلى البحث الصامت السابق ، كأن السبيل الذي اتجهوا إليه كان خطأ .

إن ميشولوجية الزمن القديم كانت غير مأونة العاقبة لأنها كان يعوزها التثبت . أما الآن فالاضراب عن السير في هذا المسار بحجتها لاداعي إليه - وإلا فأى خطأ وقع فيه من تسكلموا في وظائف الأعضاء ومهمة الغدد . وهكذا . اجعلوا الانسان قاعدة للبحث كما أشار إلى ذلك الاستاذ المذكور رئيس المجمع وهو من رجال المهنة كما تعلمون ، ومن أعلم علمائكم . لا يحفل ما ينبغي وما لا ينبغي ، وليس معقولا أن يشير في مكان كهذا على رجال في مثل علمه ؛ ومن رجال الحرفة - بشيء خطأ أو بشيء لا لزوم إليه . أقول : اجعلوا الانسان قاعدة للبحث وامضوا لا تخشوا عقبة ، فاذا بالدين والدنيا قد اجتمعا في صعيد ؛ وإذا بالعلم ليس إلا أداة لأمر الله .

الآن آمنت

وما إن وصلت إلى هذا الحد من الكلام على هذه النظرية ، التي تفرعت وامتدت ، واتجهت هنا وهناك (فاستخرقت من وقتنا أربع جلسات طويلة) حتى رأيت الرجل قد هوى على ذراعيّ فاجتذبهما ، وحماق في وجهي ووجدت ناظره في ناظريّ وقال : (الآن آمنت) ثم رفع رأسه الى السماء يقول : رب اغفر لي إني كنت من الظالمين . ثم أخذ وجهه في كفيه ؛ وظل يبكي وينتحب . حتى تساقط الدمع منهما متتابعاً . فتركته حتى اشتفى . ثم اتجه إلىّ وأخذ يقول : كثيراً ما يغفل الإنسان في تفكيره غفلة من يبحث عن منظاره وهو على عينيه . إن أعظم شبهة أضلّنا بها أولئك المفسدون الأشرار أنهم أخذوا يعرضون بأوهام السابقين . وقد كانوا يتسبون كل ظاهرة خفي سببها - إلى إلههم المعبود . فيظهر العلم خطأهم . فلا يرفعون مع كل ذلك . ويظنون متمسكين بعلّة العال . وأخيراً أرجع العلم كل القوى العاملة في الكون . إلى قوتي الجذب والدفع للطبيعتين في الأجسام المادية . فظننا أن الدائرة قد تمت . ولم يعد في الأمر من موضع لشيء زائد يعمل بعد ذلك وجدنا على هذه الفكرة . نظن أن ما عداها أوهاماً . وأضغاث أحلام .

وما أيقظني من غفلي الا قول القرآن الكريم وهو يُعلن سمات الله فيقول : بسم الله الرحمن الرحيم . فأخذت أبحث من حولي فأجد نعماً حقّة مقدرة بقدر حاجتي . مدبر أمرها اتصل إلىّ . فعلت أن شيئاً وراء القوة المادة من آثاره هذا التدبير . وذلك الانعام والرحمة . والحقبة اني الحركة

الآلية شيء . وتوجيهها لتُنجز غرضاً ، وتؤدي مهمة وتجزل عطاء - شيء آخر - هنا أدركت أمر الله من بين هذه الضلالات والشبهات . فحمدت للقرآن مسعاه وعلمت أنه (حتماً) شفاء لما في الصدور .

إنك لست أول من ناظرت من المؤمنين كلا ، بل ناظرت غيرك كثيرين وكنا ننهي دائماً إلى لا شيء . لأننا كنا مانكاد نبدأ في المناقشة حتى نصطدم بمبادئ أرى صحتها . ولا أحتمل من يشككني فيها . ويأبى هو الموافقة عليها - فيتعذر علينا المسير . أما أنت فقد وافقتني على الكثير مما كنت أتمسك به . وأريتني من بعد ذلك أن أمر الله معها . وبالرغم منها موجود . وسماته لا تشبه بسواها : هي رحمة وانعام . وتدبير وتقدير . وتلك لعمري لا تنسب إلا إلى إرادة عاقلة مدبرة حكيمة : رحيمة بالعباد . تستحق قبلهم كل ثناء وشكران . لذلك كان إعجابي بك عظيماً . وشكري لك أعظم . وسأظل ذا كرا ليدك عندي ما حييت .

قلت : أوسعيد أنت بإيمانك هذا ؟ قال : نعم معادة يصغر بجانبها كل شيء . ويمون من أجلها كل شيء .

إن الملاحد الذي غفل عن ربّ الوجود . يكون غريباً في الوجود . لا يعرف له غرضاً . ولا يدرك حياته معنى . شأنه شأن من سقط من الطائرة في بلد غريب . فلا يعرف أن أحداً يعرفه فيها أو يُعنى به . أما الآن وقد عرف له رباً رحماً يحوطه ويرعاه ويمده من فضله ويكاؤه برحمته . فالفرق بين الحالين عظيم وعظيم .

قلت سرعان ما أوجد الإيمان لك فلسفة ! إنك الآن تذكرني بالحزرة

عم الرسول . فانه ما كاد يؤمن حتى قام يقول وهو لا يزال في المجلس : والله ما أحب أن يكون لي ما أظلمته السماء وأنا على ديني الأول .

ويظهر أن العقائد تُكَيِّفُ الإنسان تكييفاً جديداً . وتصبغ الوجود أمامه بصبغة خاصة . فيتغيَّر مجرى تفكيره في الحال . فيأصاحي : ما هناء في بك بأقل من هناءك بنفسك . فالحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده . (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) وهنا نهضت للانصراف فمداً إلى الرجل يده مصافحاً ومودعاً يتحدر الدمع من عينيه . وينطق بكلمات الوداع وما يكاد يُبين .

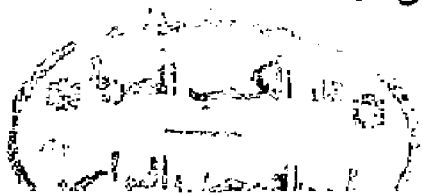
* * *

لا أدري أتعبر هذه المناظرة حقيقية أو خيالية : إن هذه الشبهات موجودة فعلاً في كتب الملحدين ، وكنت أناقشها بما ناقشتها به هنا حين كانت "رد" على ، فلم ينقصها إذن إلا اجتماعي بالملحدين فعلاً في مجلس واحد (وهذا لا يقدم شيئاً في المسألة ولا يؤخر)

والنتيجة التي أنهيتُ إليها المناظرة لا توصف بالاختلاق لأنها هي النتيجة المحتومة لمن بنى إلحاده على هذه الشبهات مادامت أرائي قد نقضتها نقضاً ، لا يسمح لها مطلقاً بالبقاء . وإلا فليخبرني من يعارض في هذه النتيجة : كيف يبقى الإلحاد بعد ما ذُكر .

نعم في الناس من لا يؤمن ؛ وإن تأتته بكل آية ، ولكن هذا الصنف منهم لا يُسأل المنطق عن علمته ، بل يسأل الغلب والاطباء — وإذا كان الوجود لا يخلو من المرضى ، فهو كذلك لا يخلو من الأصحاء .

(انتهى)



اصلاح الخطأ في القسم الثاني

ص	س	خطأ	صواب
٢	٧	تلتزموا	تلتزموا
٤	١٩	عمل	عمال
٥	٣	وبيل	وبيل
٢٣	٤	أو يدين له	أن يدين له
٣١	٧	فتتحليل أجزائها	فتتحليل أجزاؤها
٤٠	٧	يعينوه	يعينونه
٤٠	٧	ويتثبتوا	ويتثبتون
٤٨	في الهامش	هـ ألف بليون	هـ بليون
٤٨	٦	للبشرى	البشرى
٤٨	١٨	بجانت	بجانب
٥١	١	نظره	نظرة
٧٣	١٥	الشخص	الشخص
٧٥	٧	وأخطائهم	وأخطاؤهم
١٠٠	٤	تدير أ كيد	تدير أ كيداً
١٠٠	١٢	لهاوى	لهاوى
١١١	١٥	والنشا	النشا

فهرس القسم الثانى

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٢	شبهة الأسباب الظاهرة	١١٠	شبهة أعطى فكر
٩	عود إلى شبهة المصادفة	١٢٠	نظرية النشوء والارتقاء :
٢٣	شبهة نخلوه أعمال الحياة من	١٢٠	بجمل النظرية
	غرض أخير كما توهموا	١٢٣	هل هى صحيحة أو خطأ
٤٤	شبهة الملحدين فى أمر النكبات	١٢٨	موقف الملحدين من هذه النظرية
	والأرزاء التى تشتمل عليها الحياة	١٢٩	شعوزة
٦٠	استدراك	١٣٠	حرصهم على التفضيل
٦٠	شبهة الملحدين فى مدى اتساع	١٣١	طريقتهم فى الاستدلال ووجهتهم
	الكون		فى الجحود
٦٩	شبهة أخطاء الديانات السابقة :	١٣٣	الأعضاء الزائدة
٧٢	غل الورائة	١٣٥	الجبرية
٧٥	ضلالات السابقين فى الوائبة	١٣٧	إنكار الروح
	وأخطاءهم فى تعليل الأمور	١٣٩	شبهات خطيرة
٨٢	الإسلام فيه الوقاية من كل	١٤٦	هل هذه النظرية ولو صحت
	ضلالة وقع فيها سواه		بمخذافيرها تريب ؟
٩٠	الدين فطرى فى النفوس	١٥٣	الله والعلم
٩٥	شبهة القوة والمادة	١٦٣	الآن آمنت